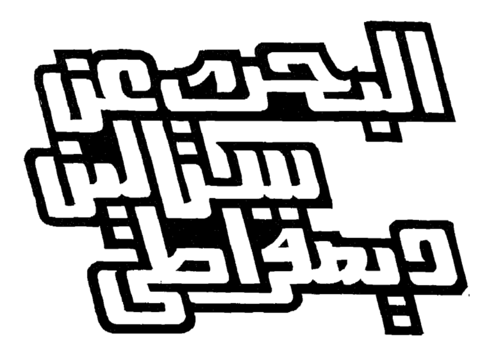


لطفى الخولى

البحث عن ستالين ديمقراطى

اچيديا الروسية

لطفى الخولى



التراجيديا الروسية

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون : ٥٧٨٦٠٨٣ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

تصميم الغلاف : عبد الغنى أبو العينين

الإهـــداء

إلى زمـلائى فى أسـرة تحـرير الطليعـة ..

هـذه الجماعة الفـكرية - السياسية
التى كان لهـا الشجاعة ،
فى زمن عاصفـ ،
أن تشق طريقها إلى الاشتراكية .
وتنقد تجاربها فى نفس الوقت .

المحتويات

الصفحة

هـذا الـكتاب

فى مطار القاهرة التقيت بصديق قادم من كوريا الجنوبية . راح يحدثنى بحماس عن معجزتها الاقتصادية – الاجتماعية . وعندما علم أنى عائد من موسكو سألنى :

– كيف وجدت روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ؟

لقيت نفسى تجاوبه بتلقائية :

– شىء لا يصدق !

ردد الصديق :

– لا يصدق ! معجزة أخرى ، تقصد ؟

ارتج علىّ . لم أعرف ماذا أقول له غير أن « المسألة معقدة » . وداهمتنى فجأة ، فكرة أنه ربما يكون هناك بالفعل معجزة روسية . غير أنها المعجزة « العكسية » تماما للمعجزة الكورية .

تراءت لى هذه المعجزة فى حمولة الصورة التى أتيت بها هذه المرة من موسكو : بلد من أكبر وأغنى بلدان العالم . قوة عظمى نووية . اقتصاد متعدد الطاقات ، ينتج من الإبرة للصاروخ ، ظل يطرح نفسه منافسا للاقتصاد الأمريكى والأوروبى ، مجتمع أزاح البطالة عن كاهله وضمن لمواطنه العمل ولقمة العيش والسكن والتعليم والصحة ، وحتى حق الترفيه فى أوقات الفراغ .. كل هذا انهار فى لحظة زمن ، ومن الداخل ، كأنه كان خيالا أو وهما لبس قناع الواقع ما يربو على سبعين عاما . الشعب الذى علم فلاحيه وعماله الاستمتاع بالأوبرا والباليه والموسيقى ، ودفع أبناءه إلى ارتياد الفضاء والسباحة فيه ، بات الكثيرون منه يتحلقون حول صناديق القمامة بحثا عن كسرة خبز . يحلمون بعودة ستالين ، بعد أن رجموه فى الأمس القريب ، وهم يشقون فى صخب فوضوى طريقهم إلى الحرية والديمقراطية وتعدد الأحزاب . والمدينة ، تبدو كأنها قطعة انشقت من

أسطورة ألف ليلة وليلة ، راحت تشع بأضواء مسحورة . وصيحات البهجة واللذة الحسية ، يأتيك صداها من علب الليل ونوادى القمار الفاضحة الأنوار ، يحرسها ضباط الجيش الأحمر السابقون . وسيارات الرولزرويس والمرسيدس والفولفو ، تخترق شوارعها بجنون .

كانت هذه « الصورة – الصدمة » هى التى تلبستنى فى الليلة الأولى والنهار الأول ، من زيارتى لموسكو فى أغسطس ١٩٩٤ . وفجّرت فى نفسى علامات الاستفهام الوحشية النهمة ، عما حدث ويحدث ، تبحث عن إجابات . وتطوع أصدقاء مصريون وعرب مقيمون فى موسكو باجتهادات متنوعة ، ألقتنى فى بحر مضطرب بأمواج الحيرة . أو على الأقل لم تشف غليلى . وقررت أن أغوص فى هذه « الموسكو – المفاجأة » ، أفتش وأبحث بنفسى عن إجابات .

لجأت إلى نوتة تليفوناتى ، أستنجد بأصدقاء روس أتحدث معهم وأناقشهم . جربت ما لا يقل عن خمس عشرة مهاتفة ، غير أنى رجعت – كل مرة – بخفى حنين . الأصدقاء انتقلوا من مواقعهم . أو أرقام التليفونات انتقلت إلى غيرهم . ولا أحد يدرى عن أحد شيئا . الكل مسه التغيير والتيه والترحال .

فى صباح اليوم الثانى ، كنت أتناول قهوتى فى كافيتريا الفندق ، عندما لاحظت رجلا أنيق الملبس بدرجة تلفت الانتباه ، فتح حقيبة يد « سامسونايت » أمامه على المائدة المقابلة ، يحدق فى وجهى لحظات ، قبل أن يهتف باسمى . وقام مسرعا ووقف أمامى ضاحكا ، وقال : ألم تعرفنى ؟ أنا يورى !

يورى ، هو أحد أصدقائى الروس القدامى . يخطو اليوم نحو اكتمال الحلقة الخامسة من عمره . على درجة عالية من الثقافة وحب السخرية معا . تعرفت عليه عندما كان أستاذا فى مدرسة الحزب الشيوعى ، يحاضر فى تاريخ الفكر الاشتراكى . وكان قد استضافنى أكثر من مرة فى المدرسة ، أتحدث إلى طلبته عن تاريخ الفكر الاشتراكى فى مصر ، وعن الاتجاهات الفكرية فى الثورة الفلسطينية . وعن المقارنة بين « التجارب الاشتراكية » الناصرية والبعثية والبوميدينية الجزائرية .

تعانقنا بحرارة . أخذت خطوتين إلى الوراء أتأمله . تذكرت أنه كان دائم الشكوى من انعدام الذوق فى صناعة البدَل والأزياء السوفيتية عموما ، فيما عدا التقليدية منها . ولا يدرى ما السبب . وينكر أن ذلك يعود إلى الثورة . ذلك أن

لينين أبو الثورة كان دائما – فى رأيه – أنيقا فى ملبسه ويتمتع بحس فنى وذوق عال فى اختيار هندامه . وعندما كان يلوح بصيص شك فى عين محدثه ، كان يرفع سبابته ويقول : انظروا إلى صوره .. كل صوره ، منذ جاء بقطار الليل إلى سان بطرسبورج وألقى خطابه الثورى الأول ، حتى بدلة الموت التى حنط فيها .

أذكر أن فساد ذوق الأزياء فى الاتحاد السوفيتى ، احتل المركز الثانى من اهتمامات يورى ، بعد دراسة وتدريس تاريخ الفكر الاشتراكى . وسمعته أكثر من مرة ، بخفة دم ساخرة ، يقول إنه يفكر فى القيام ببحث عن علاقة الاشتراكية بالذوق المتدنى لملابس الاشتراكيين والاشتراكيات .

فى مقهى الفندق ، وقف يورى أمامى على « سنجة عشرة » . سألته مداعبا :

– هل بدلتك روسية ؟

أطلق ضحكة مجلجلة ودودة وقال :

– لا مع الأسف . ليس بعد . إنها فرنسية من صنع بيير كاردان . دفعت فيها ثلاثمائة دولار . يعنى هى بسعر اليوم ستمائة ألف روبل . ماذا تقول ؟ لصوص ! لكنهم يبيعون للصوص أيضا .

ابتسمت زاعقا : لصوص !

تقدم نحوى وصوته الساخر يسبقه :

– اسمع ! التفارش (الرفيق الشيوعى) الواقف أمامك الآن أصبح باختصار رأسماليا من رجال البزنس فى الأزياء .. لا تفتح فمك هكذا كالقروى الساذج ..

كان ثلاثة من الأجانب قد دخلوا المقهى وجلسوا إلى مائدته ونادوه :

– مسيو يورى .

أشار إليهم محييا ، واستطرد يخاطبنى :

– للأسف ليس لدّى وقت الآن فأنا أتفاوض على صفقة كبيرة . ماذا تفعل الليلة ؟ دعنى أمر عليك فى الثامنة مساء وأصحبك إلى سهرة مع بعض الأصدقاء ، أظنك تعرف بعضهم . سترى العجب وتتعرف على الحكاية كلها .

في المساء ، جاء في موعده يرتدي بدلة أخرى أنيقة داكنة ، يقود سيارة مرسيدس بيضاء . ركبت بجانبه . وما إن لمح وجهي حتى انفجر في نوبة من الضحك .

سألته : ما الذي يضحكك ؟

قال بود : ما يركض على وجهك من تعابير . يبدو أن « التفارش » ، لم يفق بعد من صدمة الصباح .

في الطريق ، أخبرني أننا ذاهبون إلى سهرة تعقد دوريا كل شهر في أحد المطاعم بين مجموعة من الأصدقاء . توثقت بينهم العلاقات خلال عملهم المشترك بين الحزب الشيوعي والدولة خلال عهد جورباتشوف . ومع انهيار الاتحاد السوفيتي والحزب تفرقت بهم السبل والاتجاهات والمواقع . لكنهم حافظوا على صداقتهم . يلتقون في الثلاثاء الأول من كل شهر حول مائدة عشاء ، تدب بينهم المناقشات الفكرية والسياسية العاصفة ، ويسبون بعضهم بعضا بأقذع الشتائم . لكنهم يفترقون في آخر الليل وقد لعبت الفودكا برؤوسهم ، أصدقاء على موعد الشهر القادم .

قال لي يوري : ربما ما يجمعنا شيء غريب في هذه الأيام ، وهو أن « عرق الاشتراكية » لا يزال ينبض ، بقدر أو بآخر ، في نفس كل منا . بيننا من دخل السوق وأصبح رأسماليا . وبيننا أيضا الشيوعي القديم المستقل أو الذي انضم إلى الحزب الشيوعي الروسي الجديد . أو الذي يتعاطف مع القوميين بمن فيهم جيرينوفسكي . ومن يعمل بصحافة المعارضة أو تليفزيون الدولة . ومن يتولى مناصب صغيرة أو كبيرة في حكومة يلتسن . نحاول أن نساعد بعضنا بعضا . نفضفض عما في نفوسنا . نستعيد الماضي ونفكر أيضا في مستقبل بلادنا وأولادنا . ننقد كل شيء في أوضاعنا . نتعارك . يعذبنا ذلك « العرق الاشتراكي » الذي لا يزال ينبض فينا . ولا نكف عن التساؤل حول ما يخبئه لنا الغد . ليس فقط غد السنوات القادمة . بل غد الساعات القليلة الآتية .

في غرفة خاصة بأحد المطاعم الحديثة الفخمة ، كان ينتظرنا أربعة عشر شخصا ، تعرفت على ستة أصدقاء سابقين لي بينهم . ودار الحديث وألتهب مع دوران الكؤوس والسباب والضحكات . وكنت دائما أدس بينهم ، بين الفينة والأخرى ، سؤالي : ماذا حدث وماذا يحدث في روسيا ؟

وتطوع تسعة منهم ليكونوا مرشدين لى فى رحلتى بين دهاليز موسكو السياسية والفكرية والاجتماعية ، طارقا بسؤالى الأبواب والرؤوس .

فى زيارتى الثانية لموسكو فى مايو ١٩٩٥ ، كان جحيم الصراعات فى الغابة السياسية ، الفقر والبطالة ، الثراء والمافيا ، قد استعر فى المجتمع إلى حد يفوق الارتفاع غير العادى لدرجة الحرارة التى هاجمت المدينة بما يربو على خمس وثلاثين درجة ، لأول مرة منذ خمسين عاما ، كما يتذكر أهل موسكو المخضرمين ، حتى هج الناس فيها إلى الشوارع شبه عرايا . وتوقفت حركة الطيران ، لأن أسفلت مدارج الطائرات ذاب وتعجن تحت وهج الشمس وكثافة الرطوبة .

سألت « يورى » عما آل إليه حال روسيا منذ زيارتى الأولى فى أغسطس ١٩٩٤ ؟

أجاب : اسمع يا تفارش . لعل أهم مقياس تقيس به أمورنا الراهنة فى روسيا هو هذا السيد المبجل ، الدولار الأمريكى ، فى أغسطس ١٩٩٤ كان سعره قد بلغ ألفى روبل . فى هذه اللحظة من مايو ١٩٩٥ ، اخترق السيد المبجل سقف الخمسة الآلاف روبل .

هذا الكتاب هو حصاد هاتين الرحلتين فى روسيا ، التى لم تعد سوفيتية . ولكن لا يعدم الأمر أن « العرق الاشتراكى » ينبض بحذر وقلق ، هنا وهناك ، من جسدها .

لطفى الخولى

الدقى – الجيزة – يونيو ١٩٩٥

• الفصل الأول •

السوق : كل السلع مستوردة
إلا فتيـات الليـــل

ذهبت إلى موسكو – أخيرا – فى زيارة استطلاعية . استفزنى إليها صديق أحترمه وأثق به . كان – ولا يزال – على علاقات إنسانية عميقة واقتصادية مهمة مع الاتحاد السوفيتى ثم روسيا أو الاتحاد الروسى . وذلك على امتداد زمنى متواصل ، يزيد على ربع القرن .

قال لى الصديق : لماذا لا تزور موسكو الآن ، لترى كيف يحاولون – بطريقتهم – بناء نظام رأسمالى على أنقاض نظام اشتراكى ؟ .

أعترف أن السؤال ، وإن لم يفاجئنى ، إلا أنه وخزنى بوجع فى القلب المشحون بالشجن والظلال المتجهمة بعلامات الاستفهام حول تلك الأيام والآمال الذهبية للاشتراكية فى العالم وفى مصر أيضا .

أقول هذا رغم أن سؤال الصديق ، المعايش لحركة الأفكار معايشته لحركة السوق ، كان ودودا . وينطلق من أرضية البحث الفكرى . وهو الذى اضطرته ظروف عائلية أن يغادر مركزه الأكاديمى بالجامعة أستاذا فى علم الإدارة ، إلى ساحة ، أو قل غابة « البزنس » ، استهدف – بالأساس – أن يحفزنى إلى المعاينة الميدانية لما يمكن أن يسمى بأتون التحول السياسى – الاقتصادى – الاجتماعى ، فى روسيا . وهو التحول ، الذى بدا وكأنه يعاند حركة التاريخ ، لم يتوقعه أحد فى عصرنا وعالمنا . والجارى بآلام عظيمة ، فى بلد عظيم المساحة والموارد والتجارب ، كان فى عام ١٩١٧ أول موطن للثورة والنظام الاشتراكيين فى التاريخ الإنسانى .

وهكذا شددت الرحال إلى موسكو فى أوائل شهر أغسطس ١٩٩٤ . كانت هذه أول مرة أزورها كعاصمة للاتحاد الروسى ، بعد أن تكررت زياراتى لها ما لا يقل عن خمس عشرة مرة عندما كانت عاصمة للاتحاد السوفيتى ، « قلعة الاشتراكية » وإحدى الدولتين العظميين فى عالم الحرب الباردة .

كانت آخر هذه الزيارات فى مايو من عام ١٩٩١ . وهو العام الأخير فى حياة الاتحاد السوفيتى قبيل انهياره وتفككه بعد اثنتين وسبعين سنة من قيامه . وسقوط ميخائيل جورباتشوف وجماعة البريستورويكا الإصلاحية ، وصعود بوريس يلتسن وجماعة ما سمى بالديمقراطيين الجدد .

دخلت موسكو – روسيا ، فى الليل . كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بقليل . المدينة التى عرفتها بوقارها ، حتى فى أضوائها الليلية التى تشع من خلالها النجوم السبع الحمراء فوق الكرملين وفندق أوكرانيا ووزارة الخارجية ، وغيرها من المبانى الضخمة الخمسة ذات الطراز الستالينى ، كانت تسبح وسط شلالات من أنوار الإعلانات الباريسية والنيويوركية الصاخبة عن بضائع مستوردة : كريم نيفيا ، شيكولاتة مارس ، أزياء كاردان ، كوكاكولا ، مطاعم ماكدونالد ، سيارات مرسيدس ، بطاقات الائتمان من الفيزا حتى الأمريكان أكسبرس .. لم يكن هناك إعلان عن سلعة روسية واحدة ، اللهم إلا فتيات ملاهى الليل ونوادى القمار التى انتشرت على نحو سرطانى فى روسيا ، وبالذات فى موسكو . وتكشف الإحصاءات بعض العورات الصاخبة الصارخة فى جسد روسيا ، بعد أن تمزق عنه الرداء السوفيتى الاشتراكى . وبات لهذه الإحصاءات بيوت ومصادر متعددة ، محلية وأجنبية ، تتناقض غالبا فيما تفصح عنه من أرقام . ومع ذلك اتفقت هذه الإحصاءات على أن عدد كازينوهات القمار قد بلغ ١٥١ كازينو ، مفتوحة أمام الأجانب والروس دون تمييز أو قيود . فى حين تتناقض أرقام الإحصاءات حول أعداد علب الليل ، فهناك ما يصل بها إلى ٤٥٠ علبة . وهناك ما يرى فى ذلك مبالغة . ويؤكد أنها لم تتجاوز الثلاثمائة ملهى وحسب ، تتنافس فيما بينها على عدد ونوعيات الراقصات الحسان وبرامج الاستربتيز والسهر الممتد حتى الفجر . يحرسها فتوات أشداء مفتولو العضلات ، بعضهم كانوا أبطالا رياضيين ، وبعضهم الآخر ضباط سابقون بالجيش .

فى موسكو – الاتحاد السوفيتى ، كان من المستحيل أن تجد مطعما مفتوحا – حتى فى الفنادق – يمكن أن يقدم لك شيئا تأكله أو تشربه ، بعد العاشرة

مساء . كذلك الأمر بالنسبة لمحلات بيع المواد الغذائية ، أما موسكو – روسيا ، فقد اكتظت بكل أنواع المطاعم الفاخرة التى تقدم خدماتها إلى ما بعد منتصف الليل . ومنها ما يظل – مع كافتيريات الفنادق – مفتوحا حتى الصباح . لم تعد هناك مشكلة فى توقيت العثور على طعام ليلا أو نهارا . لكن المشكلة صارت فى ثمن الطعام . على سبيل المثال ، العشاء الطيب فى موسكو – السوفيت ، بمعايير الاشتراكية طبعا ، ويدخل فى ذلك الكافيار والشمبانيا والفودكا الروسية وطبق اللحم والخضار والسلاطة والحلو والفاكهة ، كان يكلف ما بين ثلاثة إلى خمسة روبلات على الأكثر . فى موسكو – روسيا ، بات هذا العشاء الذى يقدم على طريقة أرقى المطاعم فى باريس أو لندن أو نيويورك تصاحبه مشروبات مستوردة ، يتراوح سعره ما بين ستين ومائة دولار أمريكى للفرد الواحد . وتستطيع أن تدفع مباشرة بالعملة الأمريكية التى تقبلها السوق المسكوفية بترحاب أكثر من العملة الروسية . فنجان القهوة ، تتناوله فى كافتيريا الفندق أو المقهى الحديث بدولارين . فى اليوم الأول لزيارتى لموسكو – روسيا فى أغسطس ١٩٩٤ ، كان الدولار يصرف رسميا مقابل ١٩٥٠ روبلا . وعندما غادرت موسكو بعد أسبوع واحد ارتفع السعر إلى ٢١٥٠ روبلا . وحين عدت مرة أخرى فى مايو ١٩٩٥ كان قد تجاوز الخمسة الآلاف روبل . فنجان القهوة فى موسكو – السوفيت ، كان لا يتجاوز ثمنه خمسة كوبيك (الروبل = مائة كوبيك) . وحتى بعد البريسترويكا لم يصل إلى أكثر من ثلاثين كوبيكا . وهذا يكشف مدى ما وصل إليه التضخم من أرقام فلكية . والتى ظلت تتراكض نسبتها – علوا – ما بين ٣٠٠٪ إلى ٥٠٠٪ بين آن وآخر . وتفخر حكومة يلتسن اليوم بأنها استطاعت أن تكسر من موجات التضخم بحيث لم تعد تتجاوز نسبتها عشرة فى المائة ، شهريا .

إن الروبل الذى كان يعادل – رسميا – دولارا وعشرة سنتات فى حياة الاتحاد السوفيتى ، أخذ – عمليا – ينخفض فى السوق السوداء ، منذ الستينيات تحت وطأة تكلفة سباق التسلح الرهيب على حساب الاقتصاد الوطنى وعملية التنمية ، فأصبح الدولار – فى البداية – يصرف بثلاثة روبلات . وظل الأمر يتصاعد حتى بلغ الدولار فى عام ١٩٩١ ، عند انهيار الاتحاد السوفيتى ، مائتى روبل .

ومع استقلال روسيا وقيام الاتحاد الروسى ، أصاب الانهيار العملة الوطنية

بصورة حادة . وارتفعت الأسعار بشكل جنونى . وذلك مع استمرار متوسط معدل الدخل الشهرى للمواطن فى حدود ثلاثمائة روبل .. أو ثلاثة آلاف روبل حديثا . ويعود ذلك فى الأساس إلى توقف عملية التنمية تقريبا . وتدنى الإنتاج إلى درجة مخيفة أمام سياسة الانفتاح الاقتصادى التى تكالبت بشراهة على الاستيراد من الغرب لكل شيء .. حتى الفودكا الإنجليزية ! .

لعله يكفى للتعرف على أبعاد هذه الحالة المأساوية ، تسليط الضوء على رقمين وحسب . وذلك على سبيل المثال .

- فى عام ١٩٩٣ ، صدرت روسيا سلاحا للخارج بما قيمته ٢,٧ مليار دولار ، وفى نفس العام ، استوردت شيكولاتة بمبلغ ٢,٢ مليار دولار .

- فى عام ١٩٩٣ أيضا ، بلغ معدل إفلاس الشركات ، وبالتالى بيعها بأبخس الأسعار ، والتخلص من عمالها والإلقاء بهم فى هوة البطالة ، بواقع خمسين شركة ، أسبوعيا . أكرر أسبوعيا .

أحدث هذا بالضرورة ، فى وقت قياسى ، تمزقا مفزعا فى النسيج الاجتماعى . ملايين من الناس ، والتى كانت على الأقل تتمتع خلال حياة الاتحاد السوفيتى بالحد الأدنى من مستوى المعيشة الآدمية ، تدفع بقسوة إلى هوة الفقر والمجاعة بالمعنى الحرفى . على جانب من المدينة تشع أنوار الحياة المخملية اللذيذة التى تفيض ترفا وبذخا ، وبجنون كأن الحياة تنتهى فى الغد . وعلى الجانب الآخر الذى يعتمه العوز والحاجة إلى كسرة الخبز ، على بعد أمتار معدودة ، يتحلق عشرات من الناس حول صفائح القمامة يبحثون فى استسلام غريب ، عن شيء يحفظون به رمق حياتهم . لم يعد هناك ميدان أو شارع كبير يخلو من المتسولين المعطنين فى ملابسهم القذرة . التشرد بات إحدى سمات روسيا الليبرالية الجديدة ، على طريقة يلتسن وجيدار وغيرهما من قادة النظام الجديد .

وتعرى ظاهرة الملابس الرجالية والنسائية لآخر موضات باريس ولندن وروما ، التى راح يختال بها نفر محدود من المواطنين والمواطنات ، خصوصا فى شوارع الانفتاح الجديدة مثل جوركى وأرباط الجديد وغيرهما ، يركبون آخر موديلات سيارات المرسيدس والباكار والفولفو ، وبروز طبقة طفيلية تتشدق ببعض كلمات إنجليزية بلهجة أمريكية ، عن الديمقراطية والليبرالية والسوق ، وتهاجم دكتاتورية وفقر الاشتراكية . وينشأ مع هذه الطبقة ومن حولها ، شبكة

ممن يجيدون السمسرة فى كل شىء ويبيعون كل شىء ابتداء من أملاك الدولة حتى أدق أسرارها . وتتفاقم الجريمة الفردية والجماعية ، فى الشارع والفندق والجامعة ومحطات المترو . وتتبلور أخيرا « المافيا الروسية » التى أخذت تتصارع على النفوذ العالمى مع « المافيا الإيطالية » . وتضرب فى أوروبا الغربية وعمق الولايات المتحدة . وذلك إلى الدرجة التى اضطرت معها واشنطون إلى إنشاء مكتب تابع لهيئة التحقيقات الفيدرالية الأمريكية (F.B.I) فى موسكو . وذلك بهدف التعاون الأمنى مع الحكومة الروسية لمكافحة المافيا . وهو ثانى مكتب من نوعه خارج الولايات المتحدة ، بعد المكتب الذى أفتتح فى روما منذ سنوات .

الأمن – أيضا – بات واحدا من الهموم الوطنية الكبرى فى روسيا . لا أحد آمن . من المواطن العادى حتى رئيس الدولة يلتسن الذى سرقت سيارته ذات مرة من جراج الرئاسة . الهجوم المسلح على المنازل والمصانع والأفراد فى الطرقات بقصد السرقة ، صار شائعا . القتل المحترف مقابل أجر ، غدت له جماعات منظمة تؤجر لتأديب وترويع السياسيين والمفكرين ورجال الإعلام والأعمال . والغريب أن بعض هذه الجماعات تعلن عن نفسها دون حرج . ويتردد أنها تلقى حماية ودعما – مقابل مصالح متبادلة – من بعض ذوى النفوذ فى السلطة السياسية وأجهزة الأمن . وذلك إلى الدرجة التى بات يصرخ فى مواجهة خطرها ، العديد من قيادات الدولة والمعارضة معا . ابتداء من يلتسن وتشيرنوميردين رئيس الحكومة ، حتى روتسكوى نائب الرئيس السابق وحسب اللاتوف رئيس البرلمان السابق اللذين انتهيا إلى السجن بعد معركة الديمقراطية الروسية بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية فى خريف عام ١٩٩٣ . وهى المعركة التى حسمت بقصف مدافع دبابات الجيش للبيت الأبيض الذى كان يشغله البرلمان .

سعار التنافس الوحشى بين المليونيرات الجدد فى سوق مفتوحة على مصراعيها ، دون أن تتوافر لها – بعد – قواعد وقيم تحكم أساليب التعامل ، أفرز جرائم من نوعية جديدة تماما على المجتمع الروسى مثل السيارات المفخخة التى تنفجر بين وقت وآخر ، والإغارات الليلية المسلحة على المؤسسات والمكاتب لتخريبها وقتل من يوجد فيها انتقاما من منافسين ، أو تأديبا لعدم الوفاء بالإتاوات المفروضة . تماما كما كان يحدث فى شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية فى الثلاثينيات على أيدى عصابات آل كابونى .

وما يثير الانتباه فى موسكو اليوم ، هو شيوع نزعة التقليد لكل ما هو

أمريكى بالذات ، فى ملبس وعادات وحركات الشباب الروسى ، حتى نموذج رجل الأعمال وما يحيط به من مساعدين وحراس وأجواء أقرب ما تكون ، ولعلها ترجمة حية ، لأجواء السينما الأمريكية . أما الأوروبى ، سواء أكان مواطنا عاديا أو رجل أعمال أو رجل دولة ، فليس هو النموذج المطلوب أو الأثير عند الروسى المعاصر . « الأمريكانية » و « الأمريكانية القح » – إذا صح التعبير – هى المثل الأعلى وهى التى تأكل الجو فى موسكو . وذلك سواء بمعناها الجيد أو بمعناها السيىء . والسيىء هو الطابع الغالب .. طابع الكاوبوى .

حيثما توجهت تصطدم بهذا الكاوبوى الروسى : فى السياسة والأحزاب التى تتزاوج وتتوالد وتنقسم دون انقطاع . فى الاقتصاد ومؤسساته العامة والخاصة . فى القوات المسلحة . فى أجهزة الأمن . فى الصحف والإذاعة والتليفزيون . فى الثقافة والفنون . الكل عالى الصوت ، ناقد لكل شىء . لا يرى غير نفسه . يركب الجنون والعنف من أجل تحقيق مصلحته الشخصية أو حتى مشروعه لإنهاض روسيا من جديد .

المجتمع فى حالة فوران عنيفة . يفرز ، بلا انقطاع ، الغث والسمين ، العفن والصحة أيضا . يتشرذم إلى خنادق متقاتلة ، تحكمها نفسية التربص بالآخرين . والآخرون ليسوا نمطا أو اتجاها أو جماعة ثابتة نسبيا . بل فى حالة تغيير عنيف مستمر ، متجاورين ، فى صراع يتجاوز ، فى كثير من الأحيان ، الحد الأدنى من العقلانية .

فى يوم واحد تستطيع أن تجتمع بأنصار الإمبراطورية والقيصرية الروسية ، والشيوعية ، والاشتراكية ، والليبرالية ، والرأسمالية ، والدكتاتورية ، والديمقراطية ، ولينين ، وستالين ، وخروتشوف ، وجورباتشوف ، ويلتسن ، وروتسكوى ، وزوكوف ، والمافيا ، والفنانين ، والكتّاب ، وراقصات الباليه وعلب الليل ، والعاهرات ، والقسس ، والملحدين ، والمليونيرات ، والمتسولين .

ووسط هذا المحيط الهائج ، يمكن مع ذلك أن ترى وتلمس ، جزرا صغيرة متناثرة تحاول أن ترتب أمورها وأفكارها وحركتها بهدف غزو المجهول من الأيام القادمة ، ومحاولة السيطرة عليه . هناك جزر لا تزال شيوعية بالمنظور التقليدى تريد العودة بالبلاد إلى ما كانت عليه قبل تفجير البريسترويكا فى عام ١٩٨٥ ، ولا تخفى جذورها الستالينية . وجزر أخرى ، تحاول أن تزاوج بين الاشتراكية الماركسية وغير الماركسية مع الديمقراطية وحقوق الإنسان . وجزر ثالثة ، ترفع

شعار الانتقال إلى اقتصاديات السوق بمفهوم ليبرالى وبعد اجتماعى . وجزر رابعة ، لا ترى خلاصا إلا من خلال أمركة روسيا ، دولة ومجتمعا واقتصادا وقيما . وجزر خامسة ، تريد العودة إلى الأم روسيا التى كانت إمبراطورية على أيام بطرس الأكبر .

باختصار إذا دققت النظر فى روسيا ، بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وانهيار التجربة الاشتراكية وانطفاء نجومها السبع الحمراء فى سماء موسكو ، وانزواء جورباتشوف بالبريستورويكا فى مركز دراساته ، تكتشف أن الصراع فى موسكو يجرى – فى نفس الوقت – على مستويين : مستوى الظاهر ، فى الشارع والملاهى والسلطة والمعارضة . ومستوى الباطن ، فى الثقافة والروح الروسية والتجمعات الآخذة فى التبلور من جديد . ولكن مضمون الصراع يظل واحدا بمفردات واحدة : الاشتراكية والرأسمالية والديمقراطية والمافيا . وهى جميعا ، وفى وقت واحد ، تطرق بعنف أبواب المجهول . وهذا – بالدقة – هو جوهر التراجيديا الروسية فى آخر القرن العشرين .

• الفصل الثانى •

لو خرج ماركس من قبره ؟!

يداخل المرء ، وهو يتجول في موسكو – روسيا ، يلاحظ ويرصد ، يتذكر ويتأمل ، يتحاور مع هذا أو ذاك من السياسيين والمفكرين والكتاب – وبعضهم من الأصدقاء القدامى – وسائقى التاكسى ، عمال الفنادق ، البائعات فى السوبر ماركت ، الإحساس بأن قوة خفية ألقت بالمدينة ، فجأة ، فى لجة بحر مسحور لا شواطىء له ، تصارع أمواجا عاتية من المشاعر والأفكار والرؤى المتلاطمة بعنف .

معالم المدينة التى عرفتها ، لا تزال شاخصة : الكرملين بأبراجه وساحته الحمراء ، اتحاد الكتاب الذى سكنه يوما تولستوى وكتب فيه رائعته الحرب والسلام ، فندق المتروبول بطرازه المعمارى القيصرى الذى أقمت به فى أول زيارة لى إلى موسكو عام ١٩٥٧ ، نهر موسكوفا ، شارع جوركى ، أرباط القديم ، اتحاد النقابات ، نصب جاجارين أول رائد فضاء فى التاريخ ، مسرح البولشوى الذى يطل بواجهته المهيبة على الرأس الجرانيتى « لكارل ماركس » فيلسوف الاشتراكية الأشهر . ماذا لو خرج الرجل من قبره فى لندن وزار موسكو التى كانت عاصمة أول بلد انتسب إلى فلسفته على امتداد ما يزيد على سبعين عاما ثم انقلب عليه ، فجأة ، انقلابا مروعا ؟ أغلب الظن أن الرجل تزلزله صدمتان . الصدمة الأولى ، أن الاشتراكية قامت ، أول ما قامت ، فى بلد متخلف مثل روسيا فى أوائل القرن العشرين ، فى حين أن آماله وتنبؤاته كانت تركز على ترجيح قيام الاشتراكية فى أكثر البلاد الأوروبية الرأسمالية تقدما ، وبالذات بريطانيا أو ألمانيا . وهو ما لم يحدث . أما الصدمة الأخرى فهى ما آلت إليه الاشتراكية ،

فى روسيا السوفيتية ، من نظام تصاعدت قوته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، زمنا ، قبل أن ينهار فى النهاية وهو يطرق أبواب الرأسمالية ، بفوضوية رهيبة ، طلبا للنجاة . ولعله كان يظل يتساءل فى وجوم : أين الماركسية ومنهجها الجدلى التاريخى والمادى ؟ فى كل ما حدث ويحدث .

على أية حال ، ورغم كل ما ثار فى نفسى من أحاسيس وهواجس ، فإن موسكو الروسية بدت لى هى موسكو السوفيتية ، فى المعالم والقسمات التقليدية . ولكن علىّ – مع ذلك – أن أعترف بأن شيئا فيها – وربما أشياء – قد تغيرت أو تتغير . ربما غدت المدينة أكثر تنظيما ونظافة . ربما تعلمت – أخيرا – كيف تتجمل و « تتمكيج » بألوان العواصم الغربية التى تجيد رسم أشكال متنوعة من الفرح الشبابى . ربما صارت أكثر حركة وصوتا عاليا وجنونا ليليا . ثمة شيء كالبهجة ، يناوش ويهاجم ، وفى كثير من الأحيان يسخر ، بعنف هنا وبرفق هناك ، من ذلك الوقار الرصين التقليدى الأقرب إلى الجهامة والعبوس ، الذى تميزت به عاصمة أول دولة اشتراكية .

منذ جرت رجلى إلى البلدان الاشتراكية فى أواخر الخمسينيات ، انعقدت فى نفسى بين الآن والآخر ، مقارنات بين العواصم الاشتراكية والعواصم الرأسمالية ، فى المعمار وتخطيط الشوارع والساحات وحياة الناس وروح المدن .. وأذكر أن المقارنات كانت تنتهى دائما لصالح المدن الاشتراكية ، أيديولوجيا . فهى مدن جادة ، عاملة ، لا تعرف البهرجة وضياع وقت الناس فى التسكع ، سواء بسبب البطالة أو لمجرد المتعة والجلوس فى المقاهى لتأمل حركة الناس والشمس والظلال والأشجار ، كما فى المدن الرأسمالية .

غير أننى لاحظت ، عندما كنت أحيد الأيديولوجية بعض الوقت ، وأسأل نفسى بأمانة : إذا خيرت أن تعيش حياتك بين مدينة اشتراكية أو مدينة رأسمالية أو برجوازية ، فماذا تختار ؟ كنت أجيب : أفضل المدينة البرجوازية ، على الرغم من كل عوراتها الأيديولوجية .

ولعل دافعى إلى ذلك ، وقتذاك ، أمران :

□ الأول ، أنك على الرغم من نعيم الاشتراكية فيما توفره المدينة للمقيم فيها من ثقافات وفنون متنوعة ذات مستوى عال بأسعار رمزية ، وما تقدمه لك من صنوف الطعام ، وإن كانت على مستوى متواضع ، إلا أنها رخيصة الثمن

إلى درجة مذهلة ، وما تشعر به من سواسية الناس كأنهم أسنان المشط .. أقول ، على الرغم من ذلك ، فإنك كنت تحس بنفسك معزولا عن العالم منقطع الصلة أو المعرفة . ليس فقط بالنسبة لما يجرى فى الخارج ، بل حتى بالنسبة لما يحدث فى الداخل . ليس هناك منافذ مفتوحة أو متاحة للأخبار وحركة الحياة إلا ما يقدمه التليفزيون والصحف المحلية ، بالقدر المسموح به حزبيا أو من الدولة ، وباللون المطلوب أيديولوجيا فى هذه المرحلة أو تلك .

اليوم ، فى ١٩٩٤ ، فى موسكو الروسية ، تستطيع أن تذهب إلى أكشاك الصحف التى انتشرت فى كل مكان وتشترى ما تشاء من الصحف الأمريكية والأوروبية وغيرها دون رقيب ، من النيويورك تايمز والتايم حتى الفيجارو والتايمس والأهرام والحياة والشرق الأوسط . بعضها فى نفس يوم صدوره ، وبعضها الآخر فى اليوم التالى للصدور على الأكثر . وإذا كنت تعرف الروسية فأنت تواجه مشكلة الاختيار بين عشرات الصحف والمجلات الروسية ذات السياسات والاتجاهات المختلفة ، مؤيدة أو معارضة للنظام . وفى غرفتك بالفندق تفتح التليفزيون فتأتيك الـ C.N.N الأمريكية والـ B.B.C البريطانية وعشرات المحطات الأخرى الأوروبية المتنوعة الاهتمامات ، بما فى ذلك الجنس الصارخ .. هذا فضلا عن محطات التليفزيون الروسى المتعددة الألوان والأشكال دون قيود . وتلاحظ ، ضمن ما تلاحظ ، تركيزا على الأنباء والتحليلات المالية والاقتصادية للسوق العالمية والسوق الروسية معا ، وطوفانا من الإعلانات ، بدءا من سيارات رولزرويس حتى أحدث كباريه تم افتتاحه ، فى سان بطرسبورج (لينينجراد سابقا) .

□ أما الأمر الثانى الذى كان يعتمل فى نفسى عند المقارنة بين المدن الاشتراكية والمدن البرجوازية ، فكان يتمحور حول سؤال محدد ، وهو لماذا تبدو عواصم كل البلدان الاشتراكية ، ربما باستثناء بودابست عاصمة المجر ، وكأنها تتهرب – عامدة – من البهجة وفرح الألوان والحركة ، كأنها رجس من عمل البرجوازية الشيطانية ؟!

صحيح أن الوقار والجدية فى المدن الاشتراكية كان لهما جمالهما الخاص ورونقهما المتميز . ولكن لماذا الوقار دائما صارم صلد ، والجدة تعنى الجهامة والعبوس ووحشة الشوارع والمبانى والناس ، وكأنها صفات جوهرية لكل ما هو اشتراكى أو بروليتارى . فى حين أن العواصم البرجوازية ، وإن كانت لا تخلو

فى بعض سماتها من وقار وجدية ، إلا أن ذلك يجرى فى مناخ عام من البهجة والابتسام ومداعبة الحياة ؟!

فى موسكو الروسية ، عام ١٩٩٤ ، تحس بالبهجة والبسمة . وتلون الحياة بأضواء مختلفة . إنارة الشوارع والمعالم التقليدية للمدينة أصبحت أكثر جمالا . الإعلانات شرعت تغزو بأضوائها ليل المدينة ، التى باتت تسهر حتى الصباح بعد أن كانت تأوى إلى النوم مع الساعة الحادية عشرة ليلا .

أخذت البهجة والأضواء الموسكوفية ترسم معالم جديدة للمدينة . المحلات التجارية الكبيرة والصغيرة والسوبر ماركات ، التى انتشرت وقد تجسدت فى ديكورات حديثة ذات فتارين جميلة رشيقة . المطاعم الجديدة الفاخرة التى تقدم كل فنون الطهى من اليابانى والصينى إلى الإيطالى والفرنسى واللبنانى والهامبورجر الأمريكى . علب الليل ، التى ضاقت عليها المدينة ، فراحت تستأجر بعض الأماكن الحكومية أو النقابية العامة ، مثل جوانب من مبانى وزارة الثقافة واتحاد الصحفيين والكتاب . وجنبا إلى جنب مع لافتات المصالح الحكومية ، تتألق لافتات النيون الحمراء والزرقاء والخضراء ، تكشف عن مدى ما يصل إليه عرى الراقصات فى هذا النادى الليلى أو ذاك . ويتوالى دون انقطاع زحف هذه النوادى إلى بعض الأماكن الحكومية . وتصرح الدولة بذلك ، ولا ترى فيه عيبا ، وإنما حلا لمشكلة السيولة النقدية التى تعانى منها معظم المصالح الحكومية ، وخاصة فى مجال الخدمات ، وتمنعها من مزاولة نشاطها . مثل هذا التأجير يحل أزمة الميزانية والاعتمادات ، حيث إن الإيجار يكون دائما مرتفع القيمة بدرجة كبيرة . الغاية تبرر كل واسطة فى موسكو الرأسمالية ! .

غير أن أضواء البهجة والبسمات فى موسكو الروسية كما أنها تضىء المعالم الاشتراكية التقليدية فى المدينة وتشعل النور فى تلك القطاعات النامية من المجتمع البرجوازى الصاخب الجديد ، فإنها تكشف فى نفس الوقت ، وبقسوة ، عن مواقع الفقر والتشرد والتسول التى تنشب أظافرها فى ملايين من الناس ، الذين سقطوا فى هوة البطالة والمجاعة والتعاسة . وذلك فى بلد ظل نظامه الاجتماعى يفخر بأنه لا يوجد بين ظهرانيه عاطل واحد أو جائع واحد ! .

المدينة رغم مظاهر الجمال التى تبدو عليها ، صارت قاسية على أهلها ، الذين يبدون – فى معظمهم – كالغرباء المشردين المفلسين فى شوارعها ودروبها الملعلعة بالأنوار .

أصبحت الحياة مغامرة منهكة للروح والبدن . وذلك على الرغم مما تطرحه – وبوفرة – من سلع ضرورية وكمالية مستوردة من جميع أنحاء العالم ، وتطلعات رهيبة للإثراء غير المشروع . وذلك من خلال التجارة السوداء الواسعة النطاق فى المخدرات والعملة والمواد التموينية من المنتجات الروسية والدعارة . على شاشة التليفزيون ، ذات مساء ، قالت سيدة روسية فى خريف العمر : عندما كان لدينا نقود كنا نقف فى طابور طويل خارج المحل ، فإذا دخلنا لم نجد شيئا نشتريه . الآن ندخل المحل دون طابور ونجد أمامنا كل شىء معروضا للبيع ولكن لم يعد لدينا نقود .

انتهى – تقريبا – كل ما كانت تقدمه الدولة من خدمات اجتماعية للمواطنين . فى المستشفيات الحكومية التى ما برحت ، قانونا ، ملزمة بأن تقدم دون مقابل الخدمة الصحية لكل مواطن ، أصبح عليه أن يدفع للطبيب والممرض ، وثمن الدواء أيضا . ولم يعد أحد يستطيع أن يستدعى عربة الإسعاف ، إلا إذا دفع ما يسمى « مقابل البنزين » . وفى المدرسة ، بات على أولياء الأمور ، أن يقدموا للناظر والمدرسين هدايا نقدية وعينية ، وإلا حرم أبناؤهم من التعليم بطريقة أو بأخرى . ولا يستطيع المواطن أن يشكو . ذلك أن ما من جهة على استعداد لقبول شكواه والتحقيق فيها . والنصيحة العامة لكل مواطن أن عليه ، بطريقة أو بأخرى ، أن يدبر أموره بنفسه . ليس المواطن الفرد وحده . بل المؤسسات الحكومية والتنظيمات النقابية والاجتماعية ، أيضا . تحرك واحصل على ما تحتاجه من أموال ، ولن يسائلك أحد من أين وكيف حصلت على هذه الأموال !

ظاهرة الدخول إلى « البزنس » ، أصبحت عامة ، للصغير والكبير من الأفراد والمؤسسات . المدينة الجامعية التى كانت مخصصة لسكنى الطلاب ، يستخدم جانب منها كفندق تجارى . الكنيسة التى استعادت وزنها الروحى والسياسى ، تفتح المتاجر وتقوم بمنح بركات الحماية للرأسماليين الجدد مقابل نسبة من الأرباح . عدد من ضباط البوليس ، وخاصة فى إدارة المرور ، يكوّنون مع موظفين فى الدولة وشركات السياحة ، شبكات تخصصت فيما أصبح يعرف « بروسنة السيارات » . وتعنى هذه الروسنة ، سرقة السيارات التى يأتى بها السياح إلى روسيا ، سواء بالاتفاق مع أصحابها أو غصبا . وفى ليلة واحدة تدخل السيارة إلى ورشة خاصة تغير معالمها ابتداء من اللون حتى رقم الشاسيه ، وتطرح للبيع فى السوق ويمنح صاحبها الأجنبى ، الذى يتقاسم ثمن البيع مع

السراق ، شهادة رسمية صادرة من السلطات الروسية بأن سيارته قد سرقت ولم يستدل على سارقها . الأمر الذى يضمن له حقه فى تقاضى التعويض من شركة التأمين فى بلاده .

مع بدايات عام ١٩٩٥ ، تكشف نشاط من نوع جديد للمافيا الروسية ، يدور حول الإتجار فى بيع الأطفال الحديثى الولادة ، وقطع الغيار البشرية . وذلك من خلال شبكة واسعة النطاق ، مؤمنة بوليسيا ، وممتدة عبر أوروبا والولايات المتحدة . ينتظمها خط يبدأ من موسكو إلى كل من برلين وسان فرانسيسكو . يشارك فى أعمالها العشرات من الأطباء ومديرى المستشفيات والملاجىء ومراكز التأهيل التى أصابها التدهور والفوضى . يقومون بسرقة المواليد والأطفال المعوقين ، طبقا لمواصفات خاصة . وذلك بعد الإدعاء بوفاتهم المفاجئة ، وقيام المستشفيات والملاجىء بدفنهم على حسابها على وجه السرعة ، وقاية للصحة العامة وحتى لا يتحمل الآباء تكاليف الدفن الباهظة . وتشحن المافيا المسروقات البشرية إلى مراكز صحية مجهزة تجهيزا خاصا .

المواليد يباعون فى بورصة دولية تتجمع فيها طلبات الأسر الأوروبية والأمريكية الراغبة فى تبنى مواليد أصحاء مجهولى النسب . وأما الأطفال المعوقون فيدخلون إلى مجزر صحى ، حيث تنتزع الأعضاء السليمة من أجسادهم وتباع إلى السماسرة الدوليين لقطع الغيار البشرية . وحسب بعض التقديرات ، فإن حجم هذه التجارة ، الحديثة نسبيا ، يتراوح بين مائتين وثلاثمائة مليون دولار ، كل أربعة أشهر .

من أشهر المعالم الجديدة فى موسكو الروسية تلك البنايات اللامعة المتألقة التى تضم بنوك أو شركات توظيف أموال ، وهى مماثلة فى أسسها وحركتها لما عرفناه فى مصر من مثل هذا النوع من الشركات . ربما يكمن الفرق فى أن الشركات الروسية ، لا تستخدم الدين واللحى فى ترويج بضاعتها . ولكنها تعلن بصراحة عن عبقريتها فى تحويل صغار المدخرين إلى مليونيرات خلال بضع سنوات لا تزيد على خمس فى غالب الأحوال . ويتدفق الآلاف من المواطنين الروس بمدخراتهم إلى هذه الشركات آملين فى الوصول إلى مرتبة المليونيرية .

ويتراوح ما تعلنه هذه الشركات عن نسبة الأرباح التى تقدمها للمدخرين بين ٤٥٥٪ سنويا (البيت الروسى) و ٥٠٠٪ سنويا (بنك أولبى) . وتصل هذه النسب إلى ٩٥٠٪ فى السنة الخامسة .

وقد استطاعت هذه الشركات أن تمتص آلاف المليارات من الروبلات من السوق . ويبدو أن الحكومة تشجع هذه الشركات بهدف امتصاص أكبر كمية من النقود من السوق تخفيفا لحدة التضخم الرهيب . فى حين يؤكد العديد من الاقتصاديين أن هذه الشركات تمثل كارثة فى الحال والمستقبل . ذلك أنها ، فى الوقت الراهن ، توظف أموالها فى التجارة والمضاربة فى العملة ، وتنشيط حركة السوق السوداء فى كل شيء على نحو أخطبوطى ، وتمويل عصابات المافيا فى نشاطها الداخلى والخارجى . وتسجل البورصات العقارية فى فرنسا والولايات المتحدة الاتساع المتزايد لحجم الشراء الروسى للعقارات فى نيس وكان وولايات كاليفورنيا وفلوريدا ونيويورك . وأما عن المستقبل فمن المشكوك فيه ، بقوة ، أن تتمكن أى من هذه الشركات من الوفاء بالتزاماتها لعملائها من المدخرين . وأغلب الظن أنها سوف تعلن إفلاسها فى الوقت الذى يكون أصحابها قد هاجروا إلى الخارج .

الواقع أن بيع الأوهام صار تجارة رائجة فى موسكو الروسية .

إن العرافين غدوا نجوما لامعة ، مسموعى الكلمة على نطاق واسع فى المجتمع الروسى . يتنبأون بالأحداث ، ويفتون فى جميع القضايا السياسية والاقتصادية والمشاكل الاجتماعية والشخصية ، ابتداء من التغييرات الوزارية ومعدل صرف الروبل بالنسبة للدولار ، حتى التغييرات المناخية وعلاج الأمراض المستعصية ومشاكل الحب . وتمنح محطات التليفزيون المختلفة مساحات واسعة يوميا لهؤلاء العرافين الذين كان بعضهم من قبل يزاول مهنا محترمة كالطب والهندسة والأبحاث العلمية . وفى الغالب يستخدمون من طرف بعض القوى السياسية ، فى المعارضة أو فى السلطة ، وأصحاب المصالح الذين باتوا يسمون « بالروس الجدد » ، وعصابات المافيا . وذلك للترويج لاتجاه معين أو لتكوين رأى عام حول مسألة ما . وفى هذا يتنافس ويتصارع العرافون ، بكل ما يملكون من وسائل التأثير والإيحاء ، فى محيط جماهيرى يتسع باستمرار .

وهكذا مع انتشار بضاعة بيع الأوهام ، وعجز الحكومة عن القيام بمهامها الأساسية ، وتشتت المعارضة وانقساماتها المتوالية ، وصعوبات الحياة المتزايدة ، ونشاط المافيات ، بات المواطن الروسى سجينا ماديا ومعنويا لظروفه القاسية ، لا سبيل أمامه إلا أن يلتمس – بكل الوسائل الممكنة المشروعة وغير المشروعة – الحلول الذاتية لجميع مشاكل حياته . الدولة غابت ، والاشتراكية

انهارت ، والمكاسب والحقوق الاجتماعية تبددت ، والروح الجماعية تفككت وبادت قيمها .

حدثني دبلوماسي مثقف في سفارة عربية ، وفد حديثا لتمثيل بلاده في موسكو ويسكن أحد الفنادق ، بأنه فوجيء ذات مساء وهو يتناول كوبا من الشاي في الكافتيريا ، باثنتين من الحسناوات الأنيقات ، تجلسان إلى مائدته ، دون استئذان . عرضتا عليه خدماتهما في الترفيه عنه ومصاحبته في جولة خاصة لموسكو في الليل وإمتاعه بكل ما يشاء في مقابل مائة دولار لكل منهما . خلال الحديث علم أن إحداهما مهندسة بأحد المصانع والأخرى مدرسة لفن الموسيقى . وأن ما يتقاضيانه مع زوجيهما من أجور ، لم يعد يكفي لطعامهن وأولادهن سوى عشرة أيام من الشهر بالكاد . ولهذا فهما مضطرتان لمزاولة هذا النوع من البزنس مع « أجانب محترمين » مثله ، بدلا من الانضواء تحت جناح عصابة من عصابات المافيا التي لا ترحم . وعندما سألهما الدبلوماسي كيف يدبران وقت عملهما في هذا البزنس مع حياتهما الزوجية ، جاءته الصدمة من جوابهما بأن زوجيهما يعلمان ، وأنهما بدورهما يمارسان نفس البزنس مع العجائز المتصابيات من السائحات الأمريكيات والأوروبيات .. وأجهشتا بالبكاء . وبصعوبة – قال الدبلوماسي – أعطيت كلا منهما عشرين دولارا ، وانصرفتا تجربان حظيهما مع غيري .

باختصار ، كل شيء تجده – اليوم – في موسكو ، حتى لبن العصفور كما نقول في لغتنا العربية . لكن الثمن غال في قيمته المادية والروحية إلى حد يكسر النفس والروح والقيم . هناك من لا يزال على إيمانه بروسيا الأم ، أو بالاشتراكية مصححة أو غير مصححة ، أو بالليبرالية الحقيقية . لكنه يسبح بمشقة ضد التيار . صحيح ثمة أضواء وبهجة في موسكو الروسية . تراها وتلمسها لكنك تشعر بها جريحة مكلومة . سألت أحد الأصدقاء القدامى : ما العمل ؟ كيف ترى المستقبل ؟ أجاب بما ملخصه : ثورة جديدة وأفكار جديدة و .. استعادة روح روسيا الأم . وحين قلت له إن المشوار يبدو وعرا وطويلا . هز رأسه عدة مرات وسكت . التمعت الدموع في عينيه . أحسست به غاضبا وخجلا من نفسه . وسكت أنا أيضا .

• الفصل الثالث •

انهيار مزدوج للنظام وللناس

من هول ما يجرى فى روسيا ، يظل المرء يسائل نفسه ، والفكر الاشتراكى ، والتجربة السوفيتية ، والتاريخ ، والواقع والناس ، فى موسكو : كيف انحدرت - وتنحدر - الأوضاع فى هذه البلاد المترامية الأطراف الغنية بمواردها الطبيعية والبشرية من مفكرين وأدباء وعلماء ، إلى هذا الدرك السحيق من العوز والجوع والتوحش الرأسمالى الفج والفوضى والمافيا ، فى سنوات قليلة ، كلمح البصر فى عمر الزمن ، وكأنه لم يكن هناك شىء من قبل غير الخراب والبوار . وهى هى ، نفس البلاد التى اختمرت فيها أول ثورة اشتراكية . وكانت العمود الفقرى لبنية الاتحاد السوفيتى ، الدولة العظمى الثانية فى عالمنا المعاصر . تمكنت - فى سابقة لا نظير لها - وهى ما برحت فى طورها الأول لإقامة الاشتراكية مع بدايات القرن ، من أن تشتت الحصار الرأسمالى الذى ضرب من حولها وتهزم أربعة عشر جيشا غربيا هاجمتها من كل الجهات . قاومت النازية وضحت بأثنين وعشرين مليونا من أبنائها حتى دحرتها . واندفعت بجيشها الأحمر ليكون أول قوات الحلفاء التى تدخل برلين مع نهاية الحرب العالمية الثانية . غالبت ركام التخلف القيصرى الرهيب . وفجرت ثورتها الصناعية والزراعية والاجتماعية والثقافية ، وانطلقت فى سباق التنمية ندا للولايات المتحدة وأوروبا . وامتلكت سلاحها النووى ، وهندست وجدان مواطنيها من الفلاحين والعمال بالآداب والفنون الراقية ، بدءا من الباليه وموسيقى بتهوفن وتشايكوفسكى حتى مسرح تشيخوف وشكسبير .

علامات الاستفهام بلا عدد . والإجابات شحيحة ، مفككة ، متهافتة . وبعضها ، قليل ، جاد ، يستحق الاهتمام والدراسة .

لم يسقط الاتحاد السوفيتى أو تنكفىء روسيا فى الوحل تحت ضربات هزيمة مروعة فى حرب ، أو نتيجة قصفها بقنبلة نووية من أعدائها . حتى الأعداء ، قبل الأصدقاء ، وقبل المواطنين السوفيت ، فاجأهم هذا الانهيار وتداعياته السريعة المفجعة . لم يتوقعه أحد لا فى أنضر الأحلام وردية ، أو فى أشد الكوابيس قتامة .

الحقيقة الوحيدة ، فى كل ما حدث ، ويحدث ، أن الكارثة تولدت وعششت وظلت تتمدد فى الداخل « الجوانى جدا » . وأصاب الجسد القوى مرض عضال كأنه نوع من السرطان السياسى والاجتماعى ، بات يلتهم الخلايا الحية ، ويسمم الدماء فى الشرايين .

وفى كل مرة ، كانت أعراض المرض تظهر على السطح ، كان يجرى علاجها بمساحيق الشعارات الثورية الزاعقة ، وتقارير الحزب الشيوعى ، الذى تحول إلى سلطة حاكمة تسبح فى ملذات امتيازاتها ، تصر على أنه ليس فى الإمكان أبدع مما هو كائن . .فى حين كانت غرغرينة العفن تنخر فى الأسس والقيم والعلاقات الاجتماعية ، حتى جاءت لحظة الانهيار التراجيدية .

صحيح أن نظام يلتسن « الديمقراطى بلا ديمقراطيين حقيقيين ، الرأسمالى بدون رأسماليين وطنيين منتجين » ، يبدو كأنه ذلك القدر الشيطانى الأعمى الذى عرفته المسرحيات الإغريقية المأساوية ، يتجسد من جديد ، فى تراجيديا روسية طافحة بالعفن . غير أنه رغم المسئولية المباشرة الخاصة للنظام الروسى الراهن ، لا يتصور المرء أن هذا العفن وليد اليوم وإلا كيف نفسر أن جماهير الناس التى بنت الاشتراكية ، تهجرها وتلعنها فى هيستريا محمومة . المؤسسات الاقتصادية ، تخرب وتنهب بأيدى من كانوا ملاكها من إداريين وتكنوقراط وعمال . الإتجار بكل شىء فى السوق السوداء ، من رغيف الخبز حتى الممتلكات العامة بات سلوكا طبيعيا . الهجرة إلى أمريكا صارت حلم الشباب . العلماء ، وخاصة فى المجال النووى وأبحاث الفضاء ، يبيعون علمهم وخبراتهم لمن يشترى ، مقابل مائتى دولار فى الشهر ، ترتفع حتى ألف دولار للعباقرة المتميزين منهم . خمسة آلاف منهم ، على الأقل ، هاجروا بالفعل إلى أمريكا وأوروبا وبعض دول العالم الثالث .

الانهيار ، إذن ، ليس فى آليات النظام الاشتراكى وحسب . ولكنه أيضا فى نفسيات وقيم المواطنين ، المفترض أنهم تأسسوا وتربوا على الفكر الاشتراكى وأخلاقياته ، على امتداد ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن . تبخرت الاشتراكية

وغاضت من نفوس الناس كأنها لم تكن يوما أبدا . وافتقد الناس ، ليس فقط الانتماء لنظام اشتراكى كان رائدا فى حركة الإنسانية ، وإنما حتى الانتماء للوطن ، أحيانا .

نعم . الانهيار كلى : الموضوع والذات معا ، النظام والناس . اللهم باستثناء مجموعات قليلة ما برحت تعيش بأمل أن تنهض الاشتراكية بفكر جديد وروحية جديدة . تلملم قواها المبعثرة والمتعثرة . تقاوم ولكن فى دوائر ضيقة ومحاصرة .

فى الحوارات التى أتيحت لى مع وجوه قديمة ووجوه جديدة من مختلف التيارات ، كنت أركز على كشف ماهية تلك الحلقة المجهولة والضعيفة فى السلسلة التى امتدت إليها يد هذا القدر الشيطانى الأعمى ، شدتها إلى القاع فتهاوت معها كل حلقات السلسلة من الأبنية التحتية والفوقية للنظام الاشتراكى السوفيتى ؟ أو - بالدقة - ما هى النقطة الأخيرة التى سقطت فى البحر الاشتراكى فأحدثت الطوفان المدمر ؟ أو بتعبيرنا العربى الشائع ما هى هذه القشة التى قصمت ظهر البعير السوفيتى ؟

الإجابات تستعصى على الحصر والتصنيف . ومنها ما يدخل فى باب العجائب المثيرة ، بقدر أو بآخر .

□ تسمع مثلا ، ضمن ما تسمع ، أن الأمر كله ليس إلا مؤامرة غربية رأسمالية ، أمريكية فى الأساس . نجحت بمثابرتها منذ بداية الثورة الاشتراكية فى الانتقام البربرى منها وتحطيمها . حيث إن استمرارها وتطورها كانا يمثلان ، بالنسبة لها ، قضية حياة أو موت للنظام الاشتراكى البديل ، الأكثر قدرة وعدلا وديمقراطية فى جوهره من النظام الرأسمالى . والذى كانت الحتمية التاريخية للتطور الإنسانى - فى المفهوم الاشتراكى السائد - تؤكد على شموله للعالم ، ودفع الرأسمالية إلى مزبلة التاريخ . وأن هذه المؤامرة ، التى ظل ستالين واعيا بها ومطهرا بصورة دورية لركائزها وعملائها فى الحزب والدولة والمجتمع ، سجلت أول نجاح لها مع صعود « نيكيتا خروتشوف » إلى السلطة ، فى الخمسينيات ، على جثة ستالين ، ببرنامجه التدميرى الذى جمّل بواجهات إصلاحية وديمقراطية . ورغم المقاومة السوفيتية العنيدة - وقتذاك - لهذه المؤامرة حتى أنها أسقطت رمزها خروتشوف ، إلا أنها كانت قد نفذت إلى الأعماق والمفاصل . وظلت تتحين الفرصة للضربة القاضية حتى أتيح لها ذلك فى منتصف الثمانينيات ، من خلال رجلها المدرب « ميخائيل جورباتشوف »

وجماعته من أتباع البريستورويكا والجلاسنوست . وأنه بعد أن أدى جورباتشوف دوره التاريخى التخريبى ، أسقطوه ، وأتوا بوجه جديد أكثر جاذبية وغوغائية هو « بوريس يلتسن » وجماعته .

□ فى مقابل جماعة المؤامرة ، وهى محدودة الأثر ، تسمع – أيضا – لمجموعة ربما أقل حجما ، وعلى النقيض تماما من فكرة المؤامرة . ولكنها فى نفس الوقت – تبدو موضوعيا – الوجه الآخر لها . هذه الجماعة تقول بنظرية « الانتقام السماوى » أو « انتقام أرواح الأخيار من الأشرار فى روسيا » . وتقوم هذه النظرية على أن السماء – دائما أبدا – تمهل ولا تهمل . وأنها مدت فى عمر النظام الاشتراكى الملحد وتسلطه الاستبدادى على رقاب الروس الذين كانوا قد ابتعدوا عن الله وكنيسته الأرثوذكسية ، وذلك بهدف إعادة تربيتهم وتقويمهم . حتى إذا ما حانت اللحظة ، دك الطاغوت ونظامه فى لمحة عين . ويتفرع عن هذه الجماعة ما يمكن أن يسمى بالتيار المسيحى القيصرى ، الذى أصبح له حزب عامل فى الساحة السياسية . وهو يذهب إلى أن أرواح الأخيار من الروس البيض الذين قاوموا السوفيت الانقلابيين وضحوا بأرواحهم فى سبيل روسيا والقيصر نيقولا الثانى وعائلته التى اغتيلت بوحشية ، ظلت تتجمع وتختبىء فى العوالم السفلى ، حتى إذا ما تهيأت الظروف ، انطلقت تمارس – ولا تزال – انتقامها المشروع الذى يمهد الطريق للعودة إلى النظام القيصرى « موحد الروسيا ومنبع قوتها المقدسة » .

□ ربما يمكن أن نضيف إلى هذه المجموعة من الإجابات ، مقولة أخرى تذهب إلى أن الاشتراكية حملت فى أحشائها دمارها وضياع روسيا ، عندما ولت ظهرها للقومية وباعت نفسها لوهم اسمه الأممية . وسمحت بالمساواة فى المواطنة السوفيتية بين الروسى وغير الروسى . فلم تحفظ بذلك للعرق الروسى أصالته ونقاءه وتميزه . وإنما مزجته بقوميات وأعراق متدنية من الشعوب الآسيوية التى تعيش فى الممتلكات الروسية . ولم يكن لمثل هذا الوضع الشاذ أن يدوم . وكان لابد لروسيا العظيمة – بعد طول عذاب ونفى فى مجاهل الأممية – أن تنتفض . وتعثر على روحها العظيمة من جديد . وتبنى نفسها من خلال آلام شديدة . وليس هناك طريق آخر ، لقيام الإمبراطورية الروسية مرة أخرى .

تتردد هذه النغمة ، بصياغات مختلفة ، فى جماعة « فلاديمير جيرينوفسكى » وحزبه « الليبرالى الديمقراطى » الذى تأسس فى أبريل ١٩٩٠ .

وكذلك فى أدبيات الجماعات القومية التى برزت على سطح الأحداث ، وأيضا لدى عدد من المفكرين والكتاب أبرزهم سولجنستين الذى انشق على النظام السوفيتى وطرد إلى الخارج وعاد إلى روسيا بعد أكثر من عشرين عاما فى المنفى .

غير أنه فى مواجهة هذه المجموعة من المقولات ، تحتشد إجابات أخرى فى تفسير ما حدث ، ويحدث ، لروسيا والاتحاد السوفيتى السابق .

- هناك من يرجع الأمر إلى البواكير الأولى للنظام الاشتراكى تحت قيادة لينين . وذلك حين عصف بواقع وفكرة التعددية السياسية فى الحكم والمجتمع . وعصف بائتلاف الحزب الشيوعى مع الحزب الروسى الثورى ، عندما أقدم جناح منه على محاولة انقلابية . وأنه منذ ذلك الوقت استسهل لينين واعتمد على حكم الحزب الواحد المحتكر للعمل والسلطة السياسيين ، دون منافس معارض أو قوة تحمل رأيا آخر . الأمر ، الذى وفر المناخ لنمو الاستبداد وانتشار أمراضه الفكرية والسياسية والاجتماعية . التى تحول دون كشف الأخطاء ، دوريا ، والتصدى لمعالجتها . وتجديد دماء الفكر والتجربة الاشتراكيين بما ينقذهما من الشيخوخة والعقم .

- ويرى آخرون أن جرثومة الموت زرعت فى الكيان السوفيتى الاشتراكى ، منذ تولى ستالين ، بثقافته المحدودة وجلافة طبعه ومزاجه الدموى ، السلطة فى الحزب والدولة . وألغى ما كان قد توصل إليه لينين ، قبيل موته ، من برنامج الإصلاح الاقتصادى الجديد المعروف باسم « النيب » والذى انطلق فى بناء اقتصاد سوفيتى عصرى من خلال الانفتاح المرسوم بعناية على الغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية . وإتاحة الفرصة بقدر محسوب ، للطبقة الوسطى التى كانت وليدة ، للمشاركة بدور معين فى هذا البناء من خلال ما سماه « بتعاونيات المواطنين المتحضرين » . واتجاه ستالين إلى القضاء الوحشى على الطبقة الوسطى وخاصة فى الريف ، تحت حجة تسخير الزراعة فى خدمة الصناعة وخاصة الثقيلة منها . وإشعال المذابح الرهيبة ضد كل من يخالف ويعارض هذا الاتجاه ، سواء داخل المجتمع أو الدولة والحزب ، فى الثلاثينيات . حتى إنه سقط خلال هذه المذابح ما يصل إلى عشرين مليون مواطن ، وفقا للتقدير الذى جاء بتقرير خروتشوف عن ستالين بعد موته . ومن بينهم غالبية القادة والكوادر من الحرس القديم ، وعلماء ومفكرى روسيا الذين اختلفوا مع سياسته وأساليبه الدكتاتورية الدموية . وانتهى الكثيرون إلى الموت ، من خلال محاكمات

التطهير الكبرى لمن سموا بالعملاء والمنحرفين . بمعنى أن العنف الدموى ، الذى تأسس عليه النظام السوفيتى واشتراكية الثكنة العسكرية الستالينية ، سمم منذ البداية كل شيء . وكان مآله الانهيار عاجلا أم آجلا .

• ويقفز قوم آخرون على المرحلتين اللينينية والستالينية إلى مرحلة بريجينيف التى امتدت من الستينيات ، بعد الانقلاب على خروتشوف ، حتى أوائل الثمانينيات . وهى مرحلة اتسمت بشيوع الفساد ، من القمة حتى القاعدة . وشارك فيها قادة حزبيون ووزراء ومديرون وحتى العمال فى مزارع الدولة والتعاونيات والمصانع والمطاعم الخ .. وتزعمت ابنة بريجينيف نفسه وزوجها الذى كان يشغل منصب نائب وزير الداخلية وأصدقاؤهما واحدا من أهم عصابات الفساد فى ذلك الوقت التى تنوع نشاطها فى السوق السوداء ، من الإتجار فى العملة حتى المواد التموينية الرئيسية . وقد حوكمت قيادة هذه العصابة علنا بعد موت بريجينيف ، فى عهد خلفه أندروبوف . ولكن حجم الفساد وعمقه كان قد بلغ درجة ابتزاز النظام وتحديه . وهو ما بلور ظاهرة المافيا بعد ذلك . وفى تقدير هذا البعض أن بريجينيف قاد البيروقراطية الحزبية التى وطدت أركانها ومصالحها فى قطع الطريق على سياسة خروتشوف الإصلاحية والآفاق الديمقراطية التى كان يدفع الحزب والبلاد نحوها . وتجمد كل شيء وركد ، فى النظام . اللهم إلا فى سباق التسلح التقليدى وغير التقليدى مع الولايات المتحدة الباهظ الكلفة . والذى وصل الإنفاق عليه فى بعض السنوات إلى ٣٠٪ من الدخل القومى . وتسخير كل الجهد العلمى والتكنولوجى للإنتاج العسكرى وحجبه عن القطاعات المدنية . وبقدر ما أخذ ينخفض مستوى المعيشة لأفراد الشعب ، ويتراجع معدل عمر المواطن ، وكذلك الخدمات الاجتماعية ، كانت تتزايد الامتيازات المادية والمعيشية .. وحتى الرفاهية بالسلع الكمالية المستوردة ، للشريحة العليا من القيادات فى الحزب والدولة . وراجت فى تلك الأجواء نكتة شعبية ذات دلالة ، تقول إن بريجينيف دعا يوما والدته من الريف لتزوره فى موسكو وتنعم بما ينعم به . وأنه راح يطوف بها على قصره الفاخر الذى يعيش به ، والداتشات (استراحات الريف والغابات) التى يلجأ إليها للراحة والاستجمام ، وأسطول السيارات واللنشات الذى فى خدمته . باختصار كل ما كان يتمتع به من رغد الحياة . وجلس ذات مساء يسأل أمه عن رأيها فى ما رأته . فقالت له : أنا سعيدة لك بطبيعة الحال . ولكنى خائفة عليك . وعندما سألها : ولماذا خوفك وأنا على

قمة السلطة ؟ قالت : « فى البلد ، إذا كنت قد نسيت ، شيوعيون فقراء ، إذا عرفوا ما تعيش فيه الآن ، جمعوا صفوفهم وهاجموك وقاتلوك يا ليونيد » .

الفساد ، والركود ، وتكلفة سباق التسلح الرهيب فى العهد البريجينيفى ، كانت عند هؤلاء القوم ، القشة التى قصمت ظهر الاتحاد السوفيتى وروسيا .

ثمة مقولات أخرى عديدة ، يعمد كل منها إلى التنقيب والتفتيش فى كيان التجربة الاشتراكية والنظام السوفيتى ، بحثا عن تلك النقطة القاتلة أو الحلقة الضعيفة فى السلسلة التى ظلت تنفث سمومها فى الكيان حتى أدت إلى الانهيار فى النهاية ، على هذا النحو السريع الصارخ . ولكنْ ، كل منها ، لا تفسر وحدها ما حدث بحجمه ونوعه المهولين . وذلك على نحو مقنع ، أو يمكن الاطمئنان إليه .

على سبيل المثال ، فإن العهد الدموى لستالين بمجازره فى المدينة والريف ومحاكمات التطهير وتصفية الحرس القديم من الثوار والكوادر الاشتراكية ، كان هو نفسه العهد الذى صعد فيه الاتحاد السوفيتى ، سياسيا واقتصاديا ونوويا إلى مرتبة الدولة العظمى الند للولايات المتحدة الأمريكية ، متجاوزة بلدان أوروبا الغربية المتقدمة . وتحت قيادة ستالين الدكتاتورية ، انطلق الجيش مع الشعب فى وحدة وطنية ، تدافع عن « وطن الاشتراكية » ضد الغزو النازى بفيالقه الجبارة . ويضحى اتحاد الشعب والجيش بأكثر من اثنين وعشرين مليونا من المواطنين فى معارك باسلة ، حتى ينتصر على الغزو . ويطارد فلوله حتى برلين .

الأمر – إذن – ليس بهذا التبسيط . ولا يكفى فيه التعلق بهذه الجزئية من السلبيات أو تلك ، واعتبارها وحدها ، منبع الخراب والانهيار .

كذلك الأمر ، عندما نصل إلى قائمة الانتقادات العنيفة ، بدرجاتها المتباينة ، التى تبدأ برصد الأخطاء وتنتهى بالتآمر والخيانة ، بالنسبة إلى مرحلة البريستورويكا التى قادها جورباتشوف . ثم مرحلة الليبرالية التى يرفع شعارها ، اليوم ، بوريس يلتسن . ولا تزال مسيرتها تخوض الأهوال والجوع والخراب والفوضى فى روسيا ، بعد انهيار الاتحاد السوفيتى مع أواخر عام ١٩٩١ . هاتان المرحلتان اللتان تشكل أولاهما ، القطيعة مع فكر وتجربة الاشتراكية بالمفهوم الستالينى . ثم تشكل ثانيتهما ، القطيعة التامة مع الاشتراكية فكرا وتجربة والبريستورويكا والاتحاد السوفيتى أيضا .

• الفصل الرابع •

فكرة المؤامرة ونظرية ألكسندر الأعرج

فى أجواء الصراعات الفوضوية التى لا يبدو لها مخرج بعد ، أو رؤى ذات معالم – ولو تقريبية – لآفاق محتملة ، يتطاير العديد من الأفكار والنظريات ، والاتهامات ، موشاة بالحكايات والقصص المثيرة حول كل شيء وكل حقبة وكل شخصية ، معاصرة أو تاريخية ، فى روسيا . سواء قبل البريستورويكا أو بعدها . قبل انهيار الاشتراكية والاتحاد السوفيتى أم فى أعقابهما .

جذب انتباهى – فى هذا الطقس السياسى الاجتماعى المحموم – فكرة منها بالذات . هى أقرب ما تكون إلى حزمة مختلطة من الأفكار والاتهامات والروايات ، تجمع بينها وقائع مشتركة . بعضها معروف وموثق ، وبعضها أقرب إلى التوليفات والاستنتاجات . باتت فى الآونة الأخيرة ، تتردد وتتماسك عناصرها ، كما لو كانت نظرية جديدة تكشف وتفسر سر ما حدث . وذلك داخل أروقة بعض الأوساط السياسية المعارضة فى روسيا والتى ما برحت بدرجة أو بأخرى ، ذات توجهات اشتراكية ، يجمعها ويحركها شجن الحنين إلى إعادة بناء الاتحاد السوفيتى .

تنطلق هذه النظرية من فرضية أن العامل الحاسم فى الانهيار ، ليس هو الواقع الموضوعى الذى كان عليه الاتحاد السوفيتى وتعثر اقتصادياته ، كما شاع . ولكنه يعود فى الأساس إلى العناصر الذاتية التى تجسدت فى نوعية الشخصيات القيادية والحزب والدولة منذ السبعينيات تقريبا . وهى الشخصيات التى تراوحت بين حفنة من العجائز ، انفصلوا عن الواقع وحركة الحياة

واستسلموا إلى خدر الشيخوخة والامتيازات ، مثل بريجينيف وتشيرينكو وغيرهما من غالبية أعضاء المكتب السياسى للحزب . وبين مجموعة أكثر شبابا تمكنت منها - بدرجات مختلفة - « النزعات البرجوازية » ، فأصبح منهم المغامرون من أمثال ميخائيل جورباتشوف وإدوارد شيفرنادزه ، أو المنبهرون الذائبون فى الغرب وأيديولوجياته ، مثل يوريس يلتسن وألكسندر ياكوفليف . وتحتفظ النظرية لهذا الأخير بالدور الأساسى فيها .

ولكى تؤكد هذه النظرية مقولاتها ، تشير إلى أن الإحصائيات ، المعترف بها دوليا فى نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات ، تكشف أنه على الرغم من أن الاتحاد السوفيتى لم تزد طاقته البشرية على ٥٪ فقط من سكان العالم ، إلا أن نصيبه من مجمل الإنتاج العالمى وصل إلى ١٦٪ بالنسبة للمنتجات الصناعية (الثقيلة والتحويلية والخفيفة) و ١٧٪ من الطاقة الكهربائية و ١١,٥٪ من الحبوب و ١٥,٥٪ من القطن . وأنه كان يكفل بالمجان أو بأسعار رمزية ، ولجميع المواطنين دون تمييز خدمات الصحة والتعليم فى جميع المراحل ، والترفيه الثقافى والإسكان . وأصبح يمتلك قوة نووية ، صناعة وسلاحا ، على نفس المستوى مع الولايات المتحدة . وأن كل ذلك قد تحقق بالقوة الذاتية للنظام الاشتراكى والاتحاد السوفيتى ، انطلاقا من نقطة الصفر ، دون أية مساعدات أجنبية سواء مادية أو تكنولوجية . وفى وقت قياسى لا سابقة له بالنسبة لأى بلد فى العالم . وأنه إذا كانت قد حدثت بعض الاختناقات فى عدد من السلع الاستهلاكية أو تدنت نوعيتها ، فهذه مشاكل عادية تحدث فى كل بلد ، من آن إلى آخر . لكن القاعدة الإنتاجية كانت واسعة ومتنوعة وصلبة وقابلة للتطوير . القضية لم تكن إذن تتصل - جوهريا - بالعامل الموضوعى أو بالاشتراكية كمنهج أو نظام . وإنما بالعامل الذاتى ، أى بالمستوى العاجز والمتدنى فكريا وسياسيا وأخلاقيا للقيادات الحزبية التى حكمت واستحكمت بالحزب والدولة منذ السبعينيات . وبدلا من أن تعود إلى « الأصول » ، وتعالج ما طرأ من أزمات ومشاكل هنا أو هناك ، بمنظور اشتراكى ، راحت تقطع خيوطها شيئا فشيئا مع الاشتراكية ، سواء بالهروب من الواقع كما فعل العجائز . أو بالتحديث الغربى كما اندفع إليه المغامرون .

فى تركيز هذه النظرية على العامل الذاتى فى تدمير الاتحاد السوفيتى ، تسلط أضواءها بكثافة على « البطل » الذى قام بالدور « الإجرامى » الأساسى فى

قيادة المغامرين ، والبلاد كلها معه إلى الكارثة . ويطلق عليه فى أدبياتها اسم (ألكسندر الأعرج) . والمقصود به رجل الفكر والسياسة الشهير « ألكسندر ياكوفليف » الذى يعانى من عرج ملحوظ فى مشيته . قيل إنه من آثار إصابته فى صباه بمرض شلل الأطفال . وقيل ، بل هو نتيجة حادث وقع له فى شبابه .

ألكسندر ياكوفليف ، رجل متواضع فى ملبسه وحياته وعلاقاته الاجتماعية . هادئ الطبع ، خفيض الصوت . لا يكل أو يتعب من الحوار مع الآخرين . تمكنه من ذلك ثقافته الواسعة والعميقة . وهو من القادة السوفيت القليلين الذين يتكلمون اللغة الإنجليزية .

ويجمع المراقبون على أنه الشريك الأول لجورباتشوف فى إطلاق البريسترويكا ، منهجا وحركة . وإن كان البعض يلقبه « بالعراب الأساسى » للبريسترويكا وواضع خطوطها العريضة ، على الأقل فى البداية . وهناك من يذهب إلى أنه هو الذى أقنع جورباتشوف بها ، طريقا بديلا لما كان يخطط له « يورى أندروبوف » ، من أجل إخراج الاتحاد السوفيتى من أزمة الجمود الخانقة ، والتى كانت قد اشتدت حدتها فى السبعينيات ، خلال عهد ليونيد بريجينيف . [يلاحظ هنا ، الاتفاق بين جميع الأطراف على زمن تخمر الأزمة السوفيتية فى العمق ، بغض النظر عن الاختلاف حول الأسباب] .

من الوقائع الثابتة ، فى ضوء تصريحات متناثرة لكل من جورباتشوف وياكوفليف أن الرجلين تقابلا ، فى قمة زمن الأزمة فى أواخر السبعينيات فى كندا . حيث كان ياكوفليف يشغل منصب سفير الاتحاد السوفيتى فى كندا . وكان جورباتشوف قد جاء فى زيارة استطلاعية للتجربة الكندية فى مجال التطوير الزراعى ، إنتاجا وتنظيما وتقنيات . وذلك بحكم كونه – وقتذاك – المسئول فى اللجنة المركزية عن تطوير قطاع الزراعة السوفيتى ، الذى كان أكثر القطاعات الإنتاجية تدهورا .

هناك ، فى كندا ، ووسط المزارع ، ولدت فكرة البريسترويكا من خلال لقاء الرجلين .

وحسب ما يمكن استخلاصه من أقوال كثيرة ، فإنه اتيح للرجلين أن يتصارحا حول أزمة النظام السوفيتى . ووجدا أنهما متفقان حول تحديد وتشخيص الأزمة . ولكنهما اختلفا – فى البداية – على منهج الحل وأساليبه . طرح

جورباتشوف ما كانت تفكر فيه الدائرة السرية الضيقة التى كونها أندروبوف عضو المكتب السياسى ومسئول الأمن ، والذى تولى القيادة ، بعد ذلك ، لمدة عام ونصف فى ١٩٨٢ إثر وفاة بريجينيف ، لمواجهة الأزمة . وكان ملخص ما طرحه جورباتشوف ، فى محاولة تجنيد ياكوفليف إلى دائرة أندروبوف ، أقرب ما يكون إلى مواصلة إصلاحات خروتشوف التى قطعت بيروقراطية الحزب بزعامة بريجينيف ، الطريق عليها . وتدور فى الأساس ، حول إحكام الحصار حول هذه البيروقراطية وتصفية أفكارها ومواقفها داخل الحزب . والعمل على تجديد دماء الحزب وبرنامجه وأساليب حركته فى ضوء متغيرات العصر وتحدياته . وجادل ياكوفليف طويلا وبعناد ، فى جدوى محاولات دائرة أندروبوف للإصلاح . وذلك من زاويتين : الأولى ، أنه يبدو من المستحيل شفاء الحزب من البيروقراطية ، وهى فى تقديره إرث ثقيل للغاية . وأنه حتى إذا كان ذلك ممكنا فإن الأمر يتطلب زمنا طويلا لن يتوافر لأحد على الإطلاق . والدليل على ذلك ما حدث لخروتشوف نفسه ، رغم التنازلات الكثيرة التى قدمها للبيروقراطية الحزبية . والزاوية الثانية ، أن الأزمة ليست أزمة حزب وحسب . إذا أعيد بناؤه ببرنامج جديد وآليات جديدة يتم تجاوز الأزمة تلقائيا . ذلك أن الأزمة – فى تقديره – هيكلية للمجتمع والأبنية الاقتصادية والآليات السياسية والتعليم والثقافة والإعلام الخ ..

عند نقطة معينة من حوار الرجلين ، قال ألكسندر ياكوفليف ، ما يعتبر « المدخل » لنظرية التدمير عند جماعات المعارضة الاشتراكية : « اسمع يا ميخائيلوفتش . أظنك توافقنى أن الاشتراكية الحقيقية القادرة على الوقوف على أقدام راسخة ، بالمنظور الماركسى ، هى تلك التى تنبثق فى مجتمع متقدم ، وتكون ابنة شرعية لرأسمالية ، بلغت أعلى درجات تطورها . ترث خبراتها وربما العديد من قيمها وبالذات الديمقراطية . وتنطلق بهذا الميراث – دون عقد – وبوصفه ميراثا إنسانيا نحو حياة أو نظام أكثر عدلا وتقدما . مشكلتنا أن اشتراكيتنا افتقدت منذ البداية ، شرعية الولادة من رحم رأسمالية متطورة . ولدت بعملية قيصرية فى الحرام ، فى التخلف . وحملت ، ولا تزال ، كل سلبياته وأمراضه » .

ويبدو أن جورباتشوف عارضه ، كما ينقل أصحاب « نظرية ألكسندر الأعرج المدمرة » عن بعض ما كتب عن لقاء كندا مؤخرا . وكان محور

معارضته ، أن الذى حكم ثورة ونشأة المسار الأول للنظام الاشتراكى والاتحاد السوفيتى ، ليس هو الماركسية فى أصولها النظرية التى نشأت فى غرب أوروبا لكارل ماركس وإنجلز . وإنما هى الماركسية اللينينية التى تعنى رؤية لينين للماركسية فى واقع روسيا ، رجل أوروبا المريض على بداية القرن العشرين . وأنه على عكس ما تنبأ به ماركس ، فإن قيام النظام الاشتراكى من خلال الثورة السوفيتية ، أمر ممكن الحدوث فى أكثر بلدان أوروبا تخلفا واستبدادا . وأن التاريخ أثبت صحة ذلك بقيام النظام الاشتراكى فعلا فى روسيا . وبالتالى فإن اشتراكية حقيقية ، من طبيعة أخرى وفى مواجهة تحديات أخرى ، يمكن أن تولد شرعيا من رحم التخلف إذا جرى تثويره . وهذا ما حدث . وأن الكارثة بدأت مع تراكم عمليات الانقضاض على الماركسية اللينينية ، بالهوس الستالينى الدموى والضيق الأفق ، وخاصة منذ منتصف الثلاثينيات ، والذى حول الحزب إلى جماعة استبدادية حاكمة تأتمر بأمره الفردى . وذلك بعدما ألغى المركزية الديمقراطية . ودفع الاتحاد السوفيتى إلى « اشتراكية الثكنة » العسكرية . وأنه رغم الهوس الستالينى ، فإن إنجازات عظيمة قد تحققت جنبا إلى جنب مع السلبيات والأخطاء العظيمة أيضا .

ولا ينكر ألكسندر ياكوفليف ما تحقق من إنجازات . ولكنه يراها ، من ناحية ، قد تمت بثمن فادح على حساب الإنسان والديمقراطية . ومن ناحية أخرى ، فإنها إنجازات جرت فى الغالب بأكبر قدر من القوة العضلية وأقل قدر من القوة التكنولوجية . وبالتالى فهى تستعصى على التحديث والمنافسة مع الرأسمالية . وتبدد – بدون مبرر – ثروات الاتحاد السوفيتى الطبيعية على نحو مذهل وغير مسئول . كما أنها تدمر وتسمم البيئة .

وفى تقدير الصائغين لنظرية التدمير ، التى تتمحور من حول الدور الفكرى والسياسى لياكوفليف ، فإن المناقشات بين الرجلين فى كندا ، انتهت إلى الاتفاق على عدد من الخطوط العريضة ، التى كونت فيما بعد الإطار العام للبريسترويكا . أو ما يسمونه ، فى بعض المقولات ، « التدمير السلمى » للاتحاد السوفيتى . وفى مقولات أخرى « الارتداد السلمى عن الاشتراكية إلى الرأسمالية » .

ويمكن إيجاز هذه الخطوط العريضة ، فى :

- تحييد الحزب وإنهاء احتكاره للعمل السياسى وسيطرته على جهاز

الحكم ، وإنعاش المركزية الديمقراطية داخله على قدر الإمكان من خلال لائحة تنظيمية جديدة تستند فى نفس الوقت إلى برنامج سياسى اجتماعى جديد .

- إشاعة الديمقراطية والاعتراف بشريعة التعدد الحزبى ، واحترام حقوق الإنسان ، ومكاشفة الرأى العام بالحقائق حتى ولو كانت على حساب الاختيار الأيديولوجى . وهو ما عرف بعد ذلك باسم الجلاسنوست [الشفافية] .

- الحد بدرجة جذرية من سباق التسلح وخاصة النووى مع الغرب عامة والولايات المتحدة بصورة خاصة .

- الانفتاح على الغرب بدون القيود الأيديولوجية ، من منظور أن الثورة العلمية والتكنولوجية تفتح الآفاق للتعاون المشترك والتعايش السلمى ، رغم تمايز واختلاف النظم السياسية والاجتماعية .

- تسريع النهوض بالاقتصاد الوطنى وتطعيمه بجرعات تكنولوجية مكثفة ، حتى ولو اضطر الأمر إلى طلب مساعدة الغرب . وخاصة فى مجالات صناعة الآلات المنتجة للآلات ، وعدد من السلع الاستهلاكية الأساسية .

- الحد من مركزية التخطيط الاقتصادى وإتاحة الفرصة تدريجيا لعمل آليات السوق .

ويبدو أن جورباتشوف حمل هذه الخطوط إلى أندروبوف . ولكن هذا الأخير لم يقتنع بها . واعتبرها تحمل مخاطر كبيرة على واقع ومستقبل الاشتراكية والاتحاد السوفيتى . وظل مصرا على خططه فى مواجهة أزمة الجمود والفساد ، بدءا من الإصلاح الحزبى .

غير أنه بعد وفاة أندروبوف ثم تشيرينكو ، وتولى ميخائيل جورباتشوف قيادة الحزب والدولة ، سارع إلى استدعاء ألكسندر ياكوفليف ليكون ساعده الأيمن فى تنفيذ ما اتفق عليه من خطوط عريضة خلال لقائهما فى كندا ، وذلك تحت اسم حركة البريسترويكا والجلاسنوست . وأصبح ياكوفليف عضوا بالمكتب السياسى فى الحزب للشئون الفكرية والأيديولوجية . ووضعت تحت إشرافه وسائل الإعلام من تليفزيون وإذاعة وصحافة ، وكانت كلها وقتذاك حزبية أو مملوكة للدولة أو النقابات والمؤسسات الخاضعة لتوجيهات الحزب . وهكذا شرع « ألكسندر الأعرج » ، كما يقول أصحاب النظرية ، فى شن حملة واسعة ، من خلال وسائل الإعلام التى عين لها مسئولين جددا يدينون له بالولاء ، لغسل

أدمغة الشعب بالهرطقات الديمقراطية الغربية » . الأمر الذى سمم الأجواء ضد الحزب الشيوعى فى المجتمع بصفة خاصة ، وثورة أكتوبر والاشتراكية وإنجازاتهما ومؤسساتهما من جيش وجهاز أمن الخ .. بصورة عامة . وظل ياكوفليف يدفع جورباتشوف إلى تقديم تنازلات كبيرة متتالية للغرب وحلف شمال الأطلنطى على حساب الاتحاد السوفيتى ومجموعة البلدان الاشتراكية وحلف وارسو وسوق الكوميكون الاشتراكية ، بحجة بناء تعايش سلمى حقيقى وتغليب القيم الإنسانية العامة على قيم الصراع الطبقى والاجتماعى ، إقليميا وعالميا .

وفى وقت من الأوقات ، كان جورباتشوف يكتشف النزعة التدميرية للاشتراكية والاتحاد السوفيتى ، لدى ياكوفليف ، فيحد من صلاحياته وسلطاته ، أو يجمده . ولكنه لا يلبث أن يعود إليه ويقربه . وما إن بلغ جورباتشوف حد القاع وسقط عن السلطة ، وجاء بوريس يلتسن المنبهر بالغرب والداعى إلى « أمركة روسيا » ، حتى سارع ياكوفليف إلى القطيعة مع جورباتشوف وتوظيف ملكاته الفكرية والسياسية لخدمة السيد الجديد . وأسندت له مهمتان أساسيتان فى روسيا الجديدة . وهما ، الإشراف على بناء مجموعة من الشركات المتوسطة والصغيرة ، لصالح بناء نواة طبقة وسطى . وكذلك توجيه تليفزيون الدولة لصالح قيم السوق والليبرالية .

النظرية مثيرة . وتتعامل مع عدد من وقائع ثابتة وموثقة . ولكنها تعمد إلى النفخ فيها والتهويل من أمرها إلى درجة تشط بها عن حدود العقلانية أو الرؤية الموضوعية للأمور . ولعل فى مقدمة ذلك إسناد مسئولية كل ما حدث ويحدث فى الاتحاد السوفيتى ثم روسيا ، إلى العوامل الذاتية وشخصيات القيادة . ثم التركيز على شخص ألكسندر ياكوفليف وحده . وتصويره بأنه الشيطان الرجيم الذى أغوى ملايين الروس ، بتناول الثمرة المحرمة من الشجرة المقدسة ، والخروج من جنة الاشتراكية .

وكان يمكن أن تكتسب هذه النظرية قدرا من المصداقية ، لو أنها كشفت عن التفاعلات بين سلبيات العوامل الذاتية وبين سلبيات العوامل الموضوعية فى النظام الاشتراكى السوفيتى . وكيف أمكن للبعض استغلالها ، أو حتى كلت قدراته عن التعامل الإيجابى معها . خاصة وأن أحدا ، لا ينكر بهذا القدر أو ذاك ، أن الاشتراكية والاتحاد السوفيتى قد دخلتا طور الأزمة الحادة منذ السبعينيات . وبالتالى أن يكون هناك أو لا يكون ألكسندر أعرج أو غير أعرج ، ليس هو – فى تقديرنا – بالأمر الجوهرى فيما حدث ويحدث .

• الفصل الخامس •

جورباتشوف فى جمهورية يلتسن :
٥ أسباب للسقوط

أين جورباتشوف ، هذا الرجل الذى لم يكن قد تجاوز الستين بعد ، حين صعد فجأة إلى الكرملين وفجر البريستورويكا فملأ الدنيا وشغل الناس ، وكان آخر سكرتير للحزب الشيوعى وآخر رئيس للاتحاد السوفيتى .. أين هو ، فى جمهورية يلتسن الروسية التى تنتقل ، بأثقالها ، من اشتراكية منهارة ساءت سمعتها ، إلى رأسمالية بدائية فاقعة الصرخات والصّرعات . السلطة فيها ثابتة بين أيدى مجموعة صغيرة من حول رئيس قوى ، لكنها عاجزة ، مع ذلك ، عن القيام حتى بدور « دولة الجندرمة » ، لحفظ الأمن العام ؟

غريب أمر هذا الرجل ، الآن ، فى بلاده .

ما زال جورباتشوف يعتبر نفسه شيوعيا ، بمنظور ديمقراطى إنسانى جديد ، لعله أقرب إلى المنطلقات اللينينية بشىء من التطوير . ومع ذلك ، فإن المكرمة الوحيدة – إذا صح التعبير – التى لا تزال غالبية الشعب تحفظها له ، أنه هو الذى بدأ عملية « تحريرها » من الشيوعية !

ظل جورباتشوف يحذر شعبه ، خاصة فى سنته الأخيرة بالكرملين ، من الاندفاع مع يلتسن وجماعته نحو « جنته الموعودة » لرأسمالية روسية تفيض باللبن والعسل ، حيث لن يحصد منها المواطن شيئا سوى الجوع والبطالة والفوضى . ورغم أن توقعاته صدقت خلال هذه السنوات الأربع لحكم يلتسن لجمهورية روسيا ، فإن الغالبية ما برحت تتأرجح بين تبرئة ساحة يلتسن ، وبين اتهام جورباتشوف بالمسئولية عن تعثر الوصول إلى الجنة الموعودة !

بقى جورباتشوف حتى اللحظة الأخيرة له فى السلطة ، يدافع ويعمل على الإبقاء على الاتحاد السوفيتى ولو من خلال اتحاد كونفدرالى بين دول مستقلة ، ويبشر بإمكانية تزويج الاشتراكية بالديمقراطية والسوق فى نظام جديد ، ضد انقلابات البيروقراطية الحزبية والعسكرية ومغامرات يلتسن وجماعاته . ومع ذلك فإن قطاعات متزايدة من مواطنيه ، تعتقد أنه هو الذى أضاع الاتحاد السوفيتى والاشتراكية وسمم أجواء الديمقراطية الوليدة !

تبحث عن الرجل فى موسكو ، فلا تجد له وجودا ، إلا فى مؤسسة الدراسات السياسية والاجتماعية – الاقتصادية التى تحمل اسمه ، وسط مجموعة محدودة من معاونيه ، معظمهم من الشباب . ذلك أن غالبية رجاله القدامى الذين شاركوه رحلة البريسترويكا والجلاسنوست ، بدرجات متفاوتة ، على امتداد سبع سنوات ، قد انفضوا من حوله . منهم من هجره وهاجر من روسيا كلها إلى مسقط رأسه فى إحدى الجمهوريات التى انفصلت عن الاتحاد السوفيتى ، مثل « إدوارد شيفرنادزه » الذى أصبح رئيسا لجمهورية جورجيا . وكان وزير خارجيته لما يقرب من ست سنوات ، ومن قبل زميله فى الدائرة السرية الضيقة التى كونها « أندروبوف » فى السبعينيات لقيادة حركة الإصلاح فى الاتحاد السوفيتى . ومنهم أيضا « ألكسندر ياكوفليف » ، رفيقه الفكرى والسياسى فى إطلاق وتوجيه البريسترويكا ، الذى غادره وانحاز إلى عدوه اللدود يلتسن . ومنهم « يفجينى بريماكوف » ، رجل المهمات الصعبة ، الذى آثر أن يستمر مسئولا عن الأمن الخارجى للدولة حتى ولو تقلصت إلى روسيا وتحت قيادة يلتسن ، باعتبار أن هذه المسئولية خدمة وطنية ، فى زمن عصيب ، لا ترتبط بشخص هذا الرئيس أو ذاك .

ثم هؤلاء الذين كانوا يمثلون أعمدة نظام حكم جورباتشوف نفسه فى عامه الأخير . تحولوا ضده فيما يسمى « بانقلاب القصر » ، فى أغسطس ١٩٩١ ، بزعامة نائبه « جينادى يانايف » وعضوية كل من رئيس الوزراء ووزراء الدفاع والداخلية ورئيس جهاز المخابرات ورئيس المجمع الصناعى العسكرى ورئيس البرلمان وبعض أعضاء المكتب السياسى للحزب الشيوعى . وعندما فشل الانقلاب فى إجبار جورباتشوف على الانصياع لمطالب لجنة الطوارىء التى كونها الانقلابيون ، حاولوا استخدام كل قوة الدولة من عسكرية ومدنية ، لإنهاء كل من جورباتشوف وجماعة البريسترويكا ، وأيضا ما سمى وقتها بجماعات الديمقراطية الراديكالية المعارضة التى تزعمها يلتسن ، فى وقت واحد وبضربة

واحدة . غير أن الاتحاد السوفيتى كان قد تهرأ وتفسخ . وانهارت قواه وشلت آلياته . وسقط الانقلاب منذ لحظة المواجهة الأولى مع الناس . ولأنه لم يعد هناك فى الواقع الحى ، كيان متماسك يمكن الانقلاب عليه . كان هناك الفراغ الفوضوى الموحش وحسب . وتزعزع مركز جورباتشوف أكثر من أى وقت مضى وشحبت قيادته . ونتج عن ذلك أزمة مهولة فى السلطة وفى الشارع معا . وبرز يلتسن بجماعاته الديمقراطية وشعبيته الكبيرة ، كمنقذ للبلاد من « العسكرية الشيوعية » من ناحية ، وضعف جورباتشوف وتردده بين الحزب الشيوعى وبين الشارع الذى تأجج غضبه ضد الشيوعية من ناحية أخرى . وبدعم واضح وملموس من الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة ، تحرك يلتسن لملء الفراغ وإحكام السيطرة على روسيا ، وإطلاق رصاصة الرحمة على الاتحاد السوفيتى والبريسترويكا وجورباتشوف ، فى أواخر عام ١٩٩١ .

الآن ، وبعد أن غرقت سفينة البريسترويكا ، يقبع جورباتشوف فى البناية رقم ٤٩ بشارع لينينجراد فى موسكو ، حيث تشغل مؤسسة الدراسات التى تحمل اسمه ، جانبا صغيرا منها . كان جورباتشوف قد اتفق مع يلتسن ، عند تسليمه السلطة مع حقيبة الأزرار السوداء للقوة النووية السوفيتية ، على قيام هذه المؤسسة وتوفير المكان المناسب لها ومدها بالدعم المالى والتقنى لممارسة مهامها ، باعتبارها مؤسسة علمية وطنية مستقلة فى خدمة الأمة ، لكن يلتسن لم يلتزم باتفاقه ، وشرع تدريجيا ، يقلص من الإمكانات المادية المقررة لها . ويحاصر ويطارد العاملين والمتصلين بها . وذلك منذ شرع جورباتشوف ، كمواطن روسى ، ينتقد سياسات يلتسن الاقتصادية والاجتماعية ونزعاته الدكتاتورية . ولولا أن مؤسسة جورباتشوف للدراسات ، باتت لها علاقات واسعة مع مراكز الدراسات والجامعات الكبيرة فى أغلب البلاد الغربية وخاصة الولايات المتحدة ، مما يوفر لها نوعا من الحماية الدولية ، لكان يلتسن قد أغلقها تماما ، وشتت باحثيها ، وحدد إقامة جورباتشوف فى بيته ومنعه من مزاولة أى نشاط ، فكرى أو سياسى . وهو على العموم فرض حصارا إعلاميا روسيا على جورباتشوف ودراسات مؤسسته . وحرم على أجهزة الدولة والجامعات ومراكز الدراسات الروسية التعامل معه . وخفض معاشه بحيث لم يعد يتجاوز ٨٠ ألف روبل شهريا ، أى ما يقرب من ٤٠ دولارا ، وفقا لأسعار أغسطس ١٩٩٤ ، و ١٦ دولارا بأسعار مايو ١٩٩٥ ، وسحب معظم ما كان يتمتع به من امتيازات كرئيس سابق بما فى ذلك السيارة الرسمية .

وقد ظل جورباتشوف – ولا يزال – يقاوم ضربات يلتسن ضده وضد المؤسسة . ويقول أصدقاؤه إنه اضطر ، فى سبيل توفير الضرورى لمعيشته العائلية ولنشاط المؤسسة ، أن يبيع ما كان قد تجمع لديه ولدى زوجته من هدايا شخصية ، مثل الساعات وربطات العنق وأزرار القمصان الذهبية والفضية الخ .. ، وينشط فى كتابة المقالات للصحف الأجنبية وتأليف الكتب وإجراء الأحاديث الصحفية والتليفزيونية وإلقاء المحاضرات فى الخارج . ولا يتحرج – فى سبيل الحصول على المال لمؤسسته ولمعيشته – من الظهور فى برامج إعلامية أقرب إلى الإعلانات ، حول مشاكل البيئة فى عدد من القنوات الفضائية العالمية .

ولعل هاجس تأمين الاستقلال المالى لنفسه ولمؤسسته ، كان الدافع الأساسى له ، ضمن دوافع أخرى ، إلى القبول برئاسة المؤسسة الدولية التى أنشئت حديثا ، بمبادرة يابانية ، تحت اسم « منظمة الصليب الأخضر » المعنية بشئون البيئة فى العالم .

ينقسم الناس فى روسيا ، وخاصة السياسيين والمفكرين وجماعات المثقفين ، حول تقييم ما تصدره مؤسسة جورباتشوف من دوريات ودراسات . البعض يرى فيها أهم نتاج فكرى حول قضايا ومشاكل الوطن ومستقبله فى الوقت المعاصر . وأنها تعمق وتطور وتصحح نظرية البريستورويكا ، على ضوء التجربة والواقع . والبعض الآخر ، ينزع عنها أى قيمة فكرية أو سياسية . ويصفها بأنها مجرد سفسطة لا معنى لها . وليس لها من هدف إلا محاولة جورباتشوف اليائسة إعادة الحياة إلى شخصه وأفكاره ، مع أن كل شىء ، فيه أو منه ، قد مات سياسيا وشعبيا .

يلفت الانتباه – إجمالا – أن من معه ، وهم الأقلية ، يتفقون – تقريبا – مع من يقف ضده ، وهم الأغلبية فى توصيف عدد من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى سقوط جورباتشوف وتجربة البريستورويكا . وبالتالى تحديد طبيعة ومدى مسئوليته عما حدث ويحدث .

ويمكن تلخيص هذه الأسباب فى النقاط الخمس التالية :

● **أولا :** أن جورباتشوف تسرع فى الإعلان عن البريستورويكا كطريق للإصلاح وإعادة البناء ، وذلك انطلاقا من مجموعة الأفكار العامة التى كان قد

اتفق حولها مع ياكوفليف فى لقاء كندا ، وشاركهما - بعد ذلك - عدد محدود من الشخصيات التى دفع بها جورباتشوف ، بعد أن تولى المسئولية ، إلى مراكز القيادة . وفى مقدمتهم إدوارد شيفرنادزه وليجاتشيف (الذى وصف خلال صراعات التطبيق بأنه يمثل الجناح اليمينى للبريسترويكا) ويلتسن نفسه (الذى صنف خلال صراعات التطبيق بأنه يمثل الجناح اليسارى للبريسترويكا) .

ولم يمنح جورباتشوف الوقت والجهد العقلى الكافيين للبريسترويكا كى تنضج كنظرية متكاملة للتغيير ، هادية للحركة فى جميع المجالات . ومن هنا اعتمد على الارتجال والحماس الشعبى العارم الذى قوبلت به البريسترويكا فى البداية كمحاولة شجاعة للإصلاح . ولكن التخبط فى الحركة وتغيير القرارات بين وقت وآخر ، والتناقضات التى اندلعت بين قيادات البريسترويكا خلال التطبيق ، وافتقاد أفق استراتيجى محدد .. كل هذا أخذ يطفىء من الحماس الشعبى . ويجعل المسألة تبدو كما لو كانت مجرد دوران حول شعارات براقة ، لا ترجمة لها فى الواقع الحى . وشيئا فشيئا انصرف الناس عنه وتركوه وحده - على حد تعبير أحد الأصدقاء القدامى - يكلم نفسه فى مرايا الكرملين .

● **ثانياً** : أن جورباتشوف ، وقع تحت وهم أن أسبقية الإصلاح السياسى ، الذى يحطم احتكار الحزب الشيوعى للعمل السياسى واستبداد السلطة السوفيتية ، من خلال إشاعة الديمقراطية على أوسع نطاق ، بما فى ذلك إطلاق حرية تعدد الأحزاب والصحافة وأجهزة الإعلام والاجتماعات السياسية والانتخابات الحرة للمجالس النيابية والمحلية والنقابية ، من شأنه أن يحشد قوى الشعب فى جبهة مساندة للبريسترويكا وإعادة البناء ضد البيروقراطية الحزبية واستبدادية السلطات وفساد الإدارة . وأن ذلك سوف يحرث الدولة والمجتمع حرثا عميقا تمهيدا لبذر بذور الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية . ولكن ما حدث كان عكس ذلك . الشعب فرح ورقص وهلل فى البداية لأجواء الحرية التى تتيحها البريسترويكا والجلاسنوست . ولكنه ظل ينتظر ، دون جدوى ، أن تمتلىء « أطباقه الفارغة » على المائدة بالطعام . وهو مسمر - بلا أمل - أمام أجهزة التليفزيون التى تعرض يوميا ولمدة ساعات طويلة ، المناقشات الحادة وتبادل الانتقادات بين الجميع دون ما قيود حقا ، ولكن أيضا دون فائدة أو خبز ، فى الاجتماعات البرلمانية والحزبية والحكومية والنقابية . ولأن الاندفاع إلى الديمقراطية جاء فجائيا ، ودون إعداد فكرى - اجتماعى ، وبعد عقود من

الديكتاتورية الثقيلة ، فى بلد لا يتمتع بتاريخ وتقاليد ديمقراطية ، حدث انفجار سياسى فوضوى ، أججه تراكم الأزمات الاقتصادية والاجتماعية دون حل .

فمن ناحية ، بعد ٧٢ عاما من سيادة الحزب الواحد المطلقة ، تحول المجتمع إلى غابة سياسية تضم ، فى أقل من ثلاث سنوات ، ما يقرب من ٣١ ألف حزب وتجمع وجماعة سياسية من كل لون وشكل . وفى نفس الوقت ، عمدت قوى البيروقراطية فى الحزب الشيوعى ، والفساد فى السلطة والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية ، من ناحية أخرى ، إلى تجميع صفوفها وإحكام سيطرتها على الآليات التقليدية القائمة فى الحزب والدولة والمؤسسات الإنتاجية ، والانطلاق فى حركة مضادة للبريسترويكا ذات أساليب مختلفة . ومنها تكوين واجهات حزبية مستقلة ، مستغلة المناخ الديمقراطى . ومن ناحية ثالثة ، ذاب وربما ضاع ، مشروع البريسترويكا الإصلاحى ، وخاصة فى المجالات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية ، فى خضم آلاف المشروعات الجادة والعبثية ، التى راحت تطرحها آلاف الأجسام السياسية الجديدة ، على الناس .

• **ثالثاً** : أن استمرار الاندفاع غير المحسوب فى الإصلاح السياسى أفقد جورباتشوف القدرة على التحكم فى معدل سرعته أو حتى ترشيده . وبالتالى سبق الإصلاح السياسى ، بمسافة شاسعة ، أى طاقات توافرت للبريسترويكا وسلطاتها وأجهزتها ، للقيام بالإصلاح الاقتصادى والاجتماعى والثقافى ، بنفس المعدل أو بمعدل قريب منه ، يقلل الفجوة التى أخذت تتسع وتغلى بالمشاكل والقضايا والمخاطر . وتدفع – تحت الضغوط التى لا قبل لأحد باستيعابها أو مقاومتها – إلى إجراءات متسرعة أو عشوائية ، وأحيانا وقتية وهامشية ، على حساب خطط وبرامج الإصلاح الأساسية . ومع تراكم الزمن فى طقس جديد « ملتهب » بالديمقراطية والحرية للأفراد والجماعات – ليس لها سابقة ولا تحكمه أعراف أو تقاليد – سيطرت ثقافة جماهيرية ممارسة للعنف المضاد الرافض للسلطة ، كل سلطة حتى ولو كانت ممثلة فى عسكرى المرور بالشارع ، أو رئيس وردية العمل بالمصنع صعودا إلى رئيس الدولة والوزراء ومديرى المؤسسات . وذلك انتقاما من ثقافة العنف والقهر التى مارستها الدولة والحزب تجاه حريات المواطنين على امتداد سبعة عقود سابقة .

هذا الخلل الذى وقع بين معدلات السرعة فى مسارات الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، أدى إلى أن المطلوب – شعبيا – من البريسترويكا ،

اقتصاديا واجتماعيا ، أخذ يتزايد يوميا ، كما ونوعا ، على نحو يستحيل تحقيق ولو ١٪ منه . وفى نفس الوقت جعل قوى الإصلاح والتغيير فى السلطة الجديدة – منذ السنة الثانية للبريستورويكا تقريبا – رهينة وأسيرة لقوى الجمود والبيروقراطية التى تسيطر على الآليات القديمة للإدارة والاقتصاد والحياة الاجتماعية فى طول البلاد وعرضها ، دون أن تتمكن البريستورويكا أن تحل محلها أو حتى تواجهها فى هذا الموقع أو ذاك من مواقع الإنتاج ، بآليات جديدة .

ومن المفارقات المثيرة ، أن السلطة التقليدية والقابضة واقعيا على الأمور ، والتى كمنت تحت جلد سلطة البريستورويكا الجديدة ، راحت تشجع الدعوات التى انتشرت فى صفوف العمال ، باسم الديمقراطية والحريات النقابية ، نحو الإضراب عن العمل للمطالبة برفع الأجور أو تخفيض ساعات العمل أو تحسين ظروفه ، كما حدث فى كثير من مجالات الإنتاج الصناعية والزراعية والخدمية . وعلى الأخص فى المناجم والصناعات التحويلية والاستهلاكية ، ووسائل النقل الثقيلة من سكك حديدية وغيرها . الأمر الذى أربك عجلة الإنتاج وخفض كمية السلع المطروحة فى الأسواق ، وأفسد الحاصلات الزراعية فى الحقول لامتناع العمال الزراعيين عن جنيها ، أو عمال السكك الحديدية عن نقلها وتوزيعها بين الجمهوريات . وبدت البريستورويكا ليست عاجزة – وحسب – عن الإصلاح . وإنما عن المحافظة على مستوى المعيشة « للنظام الراكد الفاسد » والتى تريد إصلاحه وتطويره .

● **رابعاً** : خلال الصراعات التى نشبت من حول مناهج ووسائل تطبيق البريستورويكا ومعدل سرعة هذا التطبيق ، فى الحزب الشيوعى والدولة والأجسام السياسية الجديدة والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والنقابية والثقافية ، راحت حركة جورباتشوف تتذبذب ، من اليمين إلى اليسار وبالعكس ، وذلك دونما قدرة على الثبات نسبيا على خط أو معدل سرعة مستقر . الأمر الذى كان يفقده ، مع كل ذبذبة ، عددا من أنصاره ومستشاريه . حتى إذا ما ضاقت عليه دائرة البريستورويكا ، راح ينشد الأنصار والمستشارين من خارج الدائرة . وأحيانا من المتحفظين أو ذوى الاتجاه السلبى إزاء البريستورويكا .

● **خامساً** : عندما أخذ يبرز داخل الحزب الشيوعى جبهات واضحة المعالم والمواقف ، سواء تلك التى أعلنت معارضتها بطريق أو بآخر للبريستورويكا ، أو ما سمى بجبهة يمين البريستورويكا التى تزعمها ليجاتشيف ،

أو جبهة يسار البريستورويكا التى قادها يلتسن ، أو جبهة الوسط التى كانت تتبلور من حول ألكسندر زاسوخوف تارة وروتسكوى تارة أخرى وغيرهما ، رفض جورباتشوف بشدة الاتجاه الذى راح يطالب بتحويل هذه الجبهات إلى أحزاب اشتراكية ، معارضة أو مؤيدة للبريستورويكا ، فى إطار تحالف تنظيمى جديد ، يحل محل الحزب الشيوعى . وذلك انطلاقا من أن هذا النهج فى الاعتراف بواقعية الانقسامات داخل الحزب وتقنينه رسميا ، من شأنه أن يحافظ على الاشتراكية كاختيار أساسى فى إطار تعدد ديمقراطى منظم ومسئول . يقطع الطريق على حركة المغامرين السياسيين ، لإشاعة الفوضى فى الشارع والدولة . لكن جورباتشوف ظل حتى اللحظة الأخيرة يقف ضد تقسيم الحزب ، ولو من خلال الحوار والوفاق . ويدافع عن وحدة الحزب ككيان موحد ، رغم كل التناقضات والصدامات التى اشتعلت داخله . وكان ينطلق فى هذا من مقولة إن الاتحاد السوفيتى حديث عهد بالديمقراطية . وأن على الجميع ، بمن فيهم هو شخصيا ، أن يتعلموا من التجربة كيف يكونون ديمقراطيين فى مجتمع اشتراكى . ويقبلون التعامل مع الصراعات والتناقضات بأسلوب ديمقراطى . وأن هذا يحتاج إلى صبر وشجاعة وممارسة ، تخطىء وتصيب ، فى الواقع الحى ، بكل مشاكله وتحدياته . ولا طريق آخر ، حتى « لو قرأنا ودرسنا وسرنا على خطى كل كتب الديمقراطية فى كل العصور وكل البلاد » .

جورباتشوف – الآن – يقبل بعض هذه النقاط النقدية . وبالذات فيما يتعلق بنقص بعض الجهد النظرى والفكرى فى بلورة نهج ووسائل البريستورويكا . وكذلك فيما يتصل بعدم التوازن الذى وقع بين مسارات الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وهو يرى أن كل ما حدث من صراعات واضطرابات خلال مسيرة البريستورويكا ، كان طبيعيا ومتوقعا . وأنه كان لدى سلطة المركز فى الاتحاد السوفيتى الإمكانيات للتعاون والتعايش معها ومعالجتها . بيد أن الكارثة جاءت من خلال ضربتين تدميريتين تحت الحزام غير مسئولتين وغير متوقعتين وغير أخلاقيتين . الضربة الأولى ، انقلاب أغسطس ١٩٩١ ، الذى قام به ما سميت لجنة الطوارىء بزعامة نائبه جينادى ياناييف . والضربة الثانية ، الاتفاق الانقلابى المعروف باسم « بيلافيجسكايا بوشا » الذى تم فى الثامن من ديسمبر ١٩٩١ ، بين « يلتسن » رئيس روسيا و « كرافتشوك » رئيس أوكرانيا

و «شوشكيفتش» رئيس روسيا البيضاء ، والذى بموجبه تم إلغاء المعاهدة الاتحادية التى أسست الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٢٢ .

وليس لدى جورباتشوف أوهام حول ما آلت إليه شعبيته من ضعف كبير ، ولكنه يقول عن نفسه إنه حيوان سياسى ديمقراطى ، يحمل مسئولية قضية تاريخية مفتوحة لم تحسم بعد . ويعنى بها قضية البريستورويكا وإعادة بناء الاتحاد السوفيتى . وأن عليه أن يواصل نضاله فى الساحة ديمقراطيا من أجل استعادة الثقة فى البريستورويكا . ويشجعه على ذلك أن بعض قطاعات من المثقفين ، لها وزنها ، بدأت تراجع موقفها المعارض منها . وتعود للحوار معه لبناء حزب اشتراكى ديمقراطى جديد . يخوض بزعامته ، الانتخابات التشريعية المقبلة للدوما (البرلمان) فى ديسمبر ١٩٩٥ والانتخابات الرئاسية القادمة فى يونيو ١٩٩٦ . وبالفعل أعلن جورباتشوف فى أواخر مارس ١٩٩٥ عن نيته ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة . وشرع يقوم بجولات لهذا الغرض فى الأقاليم الروسية .

يقول صديق ، حاول أن يلخص لى ظاهرة جورباتشوف بعد حديث طويل : لقد جاء مرة من فوق ، من المكتب السياسى للحزب الشيوعى عندما كان هناك الاتحاد السوفيتى . وهو اليوم ، يريد أن يأتى ديمقراطيا من تحت ، حين انحسر الوطن إلى روسيا .

• الفصل السادس •

يلتسن فى جمهورية جورباتشوف :
القديس والإبليس

فى العامين الأخيرين من عهد جورباتشوف (٩٠ – ١٩٩١) أخذ « بوريس يلتسن » ، ذلك الرجل الحاد الطباع المريض بالقلب وإدمان الخمر ، يتحول إلى معبود موسكو المدلل . انتخب رئيسا لمجلس السوفيت [البرلمان المحلى لروسيا فى إطار إصلاحات البريستورويكا] ، وانطلق يسير به نحو نوع من استقلال روسيا الذاتى – لأول مرة – عن السلطة المركزية للاتحاد السوفيتى . وذلك بإعلانه أولوية القوانين التى يصدرها البرلمان الروسى على القوانين الاتحادية ، اعتبارا من يونيو ١٩٩٠ . وفى يونيو من العام التالى (١٩٩١) أحدث هزة عنيفة فى الهيكل العام للنظام . وذلك عندما دفع البرلمان الروسى إلى استحداث منصب « الرئيس » لجمهورية روسيا الاتحادية ، وانتخابه لتولى هذا المنصب ، متحديا بذلك قوام الاتحاد السوفيتى والحزب الشيوعى ومجلس السوفيت الأعلى الاتحادى ورئاسة جورباتشوف .

ظل نفوذه السياسى وشعبيته يتصاعدان ، إلى مستويات لم يبلغها أحد فى تاريخ روسيا ، منذ قيصرها العظيم بطرس الأكبر ودكتاتورها الاشتراكى المهيب المهاب جوزيف ستالين ، حتى نيكيتا خروتشوف أول الإصلاحيين الاشتراكيين وميخائيل جورباتشوف أول رئيس ديمقراطى فى تاريخ الاتحاد السوفيتى .

ورغم المعارضات التى تكتلت ضده ، وشغلت غالبية القوى العاملة فى الساحة السياسية ، وربما بسببها أيضا ، بدا يلتسن فى عيون الجماهير الروسية المتعطشة لتغيير أوضاعها بأى طريق ، يرتسم فى صورة « السوبرمان الروسى » أو « المنقذ » الذى طال انتظاره . وخاصة عندما امتطى فى أغسطس ١٩٩١ ،

دبابة من دبابات الانقلاب « الحكومى السوفيتى » الفاشل ، والتى كان جنودها قد جمدوها عن الحركة . ووقفت خامدة أمام البيت الأبيض ، مركز برلمان ورئاسة روسيا . حيث نصب من نفسه ، قيادة « للمقاومة الشعبية الديمقراطية » ، على حد تعبيره ، ضد « حركة الشيوعيين العسكرية الفاشية » ، التى استهدفت فى الأساس الإطاحة بالبريستورويكا وبجورباتشوف الرئيس الديمقراطى الشرعى للبلاد . وذلك فى الوقت الذى كان الانقلاب - نفسه - يموت من داخله بالسكتة القلبية ، فى أقل من أسبوع .

يلتسن هو أكثر الشخصيات السياسية ضجيجا وإثارة ، فى موسكو . وذلك منذ ما يمكن أن يسمى بعواصف التغيير الاشتراكى فى ١٩٨٥ مع البريستورويكا ، وعواصف التغيير الرأسمالى المضاد مع بداية عام ١٩٩٢ .

ولعله الشخصية السياسية الوحيدة ، التى لم تغب أو تنتحر أو تنكسر ، خلال هذه العواصف المتلاطمة ، حتى هذه اللحظة . تلقى ضربات عاتية من خصومه ، دحرجته بين آن وآخر ، من القمة إلى ما يقرب من السفح . لكنه بقى دائما حيا واقفا على قدميه . دخل فى مغامرات وكمائن سياسية خطيرة ، وكان يمكن أن يقضى عليه خلالها ، أكثر من مرة . لكنه عرف دائما أن يفلت وينجو بنفسه ، وأحيانا يعيد تشكيل قوامه السياسى فى بنية جديدة ، تلقى هذه الدرجة أو تلك من القبول الشعبى بين بسطاء الناس . تهاجمه أزمات قلبية حادة ، يتوقع معها معاونوه فى أكثر من مرة أن تقضى عليه ، أو يدخل المستشفى على عجل لتغيير دمه بعد إصابته بتسمم كحولى ، ويظل أياما بين الحياة والموت . لكنه فجأة يصحو كما لو كان كائنا خرافيا « بسبعة أرواح » ، يستعصى على الموت البدنى والسياسى معا .

تواجهه أزمات عاتية متلاحقة . وفى كل أزمة يخرج للناس ، دون حرج ، بوجه جديد يتحدث لغة سياسية جديدة ، هى النقيض من كل وجوهه ولغاته السابقة . يعيش متأرجحا فى مناورات مستمرة بين التحدى الفظ العالى الصوت والتراجع المهذب الخفيض النبرة . وفى كل الأحوال ، تكون كلمته هى الأكثر قبولا وإقناعا لدى جمهرة الناس العاديين الذين باتوا سكرى الحلم بحياة قريبة من النموذج الأمريكى ، الذى أصبح يطل عليهم ، نهارا وليلا ، من شاشات التليفزيون .

صحيح أن شعبية يلتسن ، شرعت فى التآكل أخيرا بصورة ملحوظة ، بعد

أن أصدر أوامره للجيش ، فى أكتوبر ١٩٩٣ ، بقصف البيت الأبيض ، مركز البرلمان الروسى ، بالمدافع لإجبار الأغلبية المعارضة له ولسياساته على إنهاء اعتصامها بزعامة نائبه روتسكوى ورئيس البرلمان حسب اللاتوف ، وإخراجهم جميعا مقبوضا عليهم ، إلى السجون . وكذلك بعد أن لازم الفشل ، على امتداد ثلاثة أعوام ، برامجه المتعددة للإصلاح الإقتصادى - الاجتماعى ، والتى فاقمت من حالة الفقر فى البلاد إلى درجة رهيبة ، لم يسبق لها مثيل ، إلا فى أكثر عصور القياصرة ظلمة وتخلفا واستبدادا .

غير أنه من الصحيح أيضا ، أن يلتسن - رغم ذلك - لا يزال هو الأقوى نسبيا ، بالقياس إلى كل الشخصيات السياسية المعارضة له فى الساحة ، والتى حاولت - دون نجاح بعد - الاتفاق على مرشح منافس فى انتخابات الرئاسة القادمة فى ١٩٩٦ . أو أن تحظى برامجها الإصلاحية البديلة لبرامجه الخائبة ، بقبول شعبى مضاد .

كيف جاء ، أو بالأحرى كيف وثب هذا « الرجل - الظاهرة » إلى الساحة ، وألقى - ولا يزال - بظله الثقيل عليها ، وأنطلق فى حركته متنقلا من موقف الاشتراكى المتعصب إلى موقف الرأسمالى المتحمس ، ومن طاغية من طواغيت الحزب الشيوعى الأوحد ، إلى قيصر الديمقراطية فى نظام التعدد الحزبى الوليد ؟

حملت سؤالى ، ورحت أطرق به أبواب الجماعات السياسية المختلفة . أغرقتنى الإجابات فى طوفان من الكلام الغزير . المتوازن منه كان قليلا للغاية ، ولاحظت أنه فى الغالب يصدر عن شخصيات مستقلة . أما غالبية الكلام فقد شكل أمامى يلتسن فى صورتين متناقضتين تماما . صورة « القديس » أو صورة « الابليس » ولا وسط .

ذكرنى ذلك أكثر من مرة ، وأنا استمع إلى تحليل هذه الجماعات أو تلك ليلتسن ، الشخص والمواقف السياسية ، بتلك الشخصيات الروسية التى برع « ديستويفسكى » فى رسمها فى رواياته ، حيث يسكنها - دوما - فى تعايش مثير ، الملائكة والشياطين معا . ولكن إذا خرجنا من نطاق الجاذبية الأدبية إلى دائرة السياسة الواقعية ، ظل يستوقفنى بشدة ، هذا التمايز الحاد القاطع فى تحليل زعيم سياسى بعينه ، فى بلد بعينه ، فى ظروف بعينها ، وضمن وقائع بعينها ، فإذا هو عند جماعة « القديس المطلق » ، وعند جماعة أخرى « الشيطان المطلق » فى نفس الوقت .

إنك لا تجد هذا النوع من التحليل الكهنوتى الوحيد البعد ، فى الغرب مثلا ، عند الأوروبيين أو الأمريكان . ليس فى الغرب الرأسمالى وحسب ، وإنما - أيضا - فى بعض الغرب الاشتراكى ، عند الألمان والمجريين والبولنديين الخ .. بل إن المنهاج الماركسى فى التفكير نفسه ، يتميز برفض فكرة المطلق فى التاريخ والأشخاص والمجتمعات والأشياء . ولا يعترف به إلا فى حركة الصراع المستمرة فى الحياة . بمعنى أن الماركسى أو الشيوعى أو الاشتراكى العلمى ، مفروض نظريا ، أنه لا يرى إنسانا خيرّا تماما أو شريرا تماما ، وسياسة إيجابية تماما أو سلبية تماما . وإنما الواقع الحى عنده ، هو دائما ذلك المزيج المتفاعل بين الاثنين ، فى الأشخاص والسياسات والمجتمعات الخ ..

لماذا إذن هذا الاستقطاب المروع فى الفكر والحياة السياسية الراهنة فى روسيا ، التى سادها على امتداد سبعة عقود المذهب الماركسى ، وأنجبت ، ضمن من أنجبت فى تاريخها من الروائيين الفحول ، كاتبا مثل ديستويفسكى . ليس الأمر هنا ، متعلقا بيلتسن فقط ، الذى يحتل مركز السلطة - اليوم - فى روسيا ، ولكن أيضا بالنسبة لكل الشخصيات السياسية الأخرى فى الساحة . سواء تلك التى تدور فى فلكه ، أو تتحصن ضده فى خنادق المعارضة ، وفى مقدمتها جورباتشوف وروتسكوى وحسب اللاتوف وجيرينوفسكى رئيس الحزب الليبرالى الديمقراطى (أكبر كتلة معارضة فى البرلمان) . وزوغانوف رئيس الحزب الشيوعى الجديد (ثانى كتلة برلمانية معارضة) .. الخ القائمة الطويلة الحافلة بالأسماء القديمة والجديدة .

هل يعود هذا المنطق الأحادى الجانب ، فى التعامل مع الظواهر الإنسانية والاجتماعية ، الذى تلمسه فى روسيا [وبالمناسبة هو أيضا نفس المنطق السائد فى عوالم العالم الثالث غالبا ، ومن بينها عالمنا العربى] إلى تدنى المستوى الثقافى للعامة والخاصة معا . وأقصد هنا الثقافة الإنسانية المعرفية والثقافة الاشتراكية أيضا . والهروب من العقلانية ذات المقاييس النسبية فى الرؤية والتقييم ، إلى تلك الثنائيات المطلقة الجامعة المانعة ، كالحلال والحرام فى الفكر الدينى ، أو الوطنى والخائن ، الثورى والرجعى والمُرَاجِعْ فى دنيا السياسة والمجتمعات البشرية ؟ أو لعله يرجع إلى غياب الديمقراطية أو عدم إتاحة الفرصة لتراكم أعرافها وقواعد ممارستها . أو القفز المتلاحق بلا انقطاع من مرحلة انتقالية إلى مرحلة انتقالية أخرى دونما نهاية ، وبالتالى لا استقرار لشىء . ولا حياة طبيعية . ولا تداخل ونفاعل حضارى بين الأجيال والمراحل والسياسات والنجاحات والإخفاقات ؟

أو ربما لفقدان الإحساس العلمى ، وجدانيا وعقلانيا ، بروحية وآليات الجدل فى الحياة بين المتناقضات الواقعية والآراء المتعددة المختلفة ، بما يطرح للمشكلة أكثر من حل لا حلا وحيدا ، وبما يكشف للشخص أو للسياسة أكثر من وجه لا وجها واحدا . وتكون المحصلة الأقرب للصواب ، عند لحظة ما ، هى النقطة الوسط ، أو ما يسمى الحل الوسط ، حتى تجىء الحياة بالجديد أو تلمح إليه . فتقود إلى نقطة أخرى وحل آخر ، وهكذا دواليك ؟

كل هذه الأسئلة ، لا جواب لها ، عندى ، ارتاح إليه ، بعد . وأغلب الظن أن القضية كامنة فى جذور جميع علامات الاستفهام هذه ، وغيرها مما يغيب عن معرفتى فى هذه اللحظة .

على أية حال ، أسجل أسفى لهذا الاستطراد ، غير أنه – فى تقديرى – كان ضروريا لأوضح أننى سمحت لنفسى أن أغربل الكلام الكثير الذى سمعته عن يلتسن وأتحرر من أسر رؤيته قديسا أو ابليسا . وذلك فى محاولة لرسم صورة موضوعية لهذا « الرجل – الظاهرة » ، بأبعادها المختلفة . واعتمدت لتحديد ملامح هذه الصورة على ما التقطته من الكلام الكثير المتناقض الذى سمعته من الجهات السياسية المختلفة ، من بعض الوقائع أو الخطوط المشتركة . وكذلك مما قرأته فى تصريحات أو مذكرات جورباتشوف وليجاتشيف وروتسكوى (معارضيه) ويلتسن نفسه .

تبدأ قصة بوريس يلتسن ، بدعوته إلى العمل فى موسكو . وذلك بقرار من جورباتشوف بعد انتخابه أمينا عاما للحزب الشيوعى فى ١٩٨٥ ، وانطلاقة حركة البريسترويكا من أجل إعادة بناء الاتحاد السوفيتى ، بمنظور عصرى للماركسية اللينينية وفى إطار نظام ديمقراطى .

كان جورباتشوف الذى زرع عام ١٩٨٣ « ليجاتشيف » فى اللجنة المركزية للحزب ، مسئولا عن التنظيم الحزبى ، أيام « يورى أندروبوف » ، قد شارك معه فى إعداد قائمة بأسماء رفاق متميزين فى نشاطهم الحزبى ، يجرى – عندما تحين ساعة بدء عملية التغيير – تصعيدهم إلى مسئوليات قيادية محورية .

برز ضمن هذه القائمة اسم بوريس يلتسن الذى كان يتولى ، وقت ذاك ، مسئولية لجنة حزبية لمدينة سيربوسك بمنطقة الأورال . وذلك باعتباره يمثل « نموذجا صلبا للانضباط الحزبى » ، و « مدافعا صلبا عن الماركسية اللينينية » ،

و « مقاوما عنيدا للفساد والمفسدين » . ورغم أن تقارير ليجاتشيف (الذى ستتفجر الصراعات فيما بعد بينه وبين يلتسن داخل الحزب الشيوعى بشأن طبيعة واتجاهات حركة البريستورويكا الإصلاحية) حول يلتسن كانت إيجابية بصورة عامة ، إلا أنه أرفقها بتحفظات تتناول طابعه الفردى الديكتاتورى فى العمل ، وفظاظته المفرطة فى التعامل مع زملائه ، وضيقه الشديد بالآراء المخالفة لآرائه ، ورفضه للنقد الحزبى التنظيمى الذى يوجه إليه من رفاقه الإقليميين ، وشراسته فى تنفيذ قرارات الحزب أو توجيهاته الشخصية ، وإدمانه للخمر .

غير أن جورباتشوف أسقط تحفظات ليجاتشيف ، وقرر ترشيحه حزبيا لتولى مسئولية اللجنة الحزبية لموسكو العاصمة ، وتصعيده خلال وقت قصير من عضوية اللجنة المركزية ، إلى العضوية الاحتياطية للمكتب السياسى ، أعلى هيئة قيادية فى الهيكل التنظيمى للحزب الشيوعى السوفيتى . وكانت حجة جورباتشوف أن المرحلة تحتاج إلى قيادات من طراز يلتسن ، واضحة فى دفاعها عن طهارة الماركسية اللينينية من خارج البيروقراطية الحزبية . عنيدة فى مقاومتها للفساد ، حتى ولو اتسمت هذه المقاومة بالشراسة فى بعض الأحيان . ذلك أنها – من ناحية – ضرورية للضرب بيد من حديد على بؤر الفساد وتجارة السوق السوداء ، التى تحاول أن تقطع الطريق على حركة البريستورويكا . وتسمم الأجواء حولها فى العاصمة بالذات . وذلك من خلال سرقة المواد الغذائية وتسريبها للسوق السوداء ، وافتعال الأزمات حولها ، إنتاجا وتوزيعا . ومن ناحية أخرى ، هى ضرورية أيضا للتصدى بحزم لمناورات البيروقراطية الحزبية من خلال سيطرة أعضائها على المراكز الرئيسية فى إدارات المصالح الحكومية والمؤسسات الاقتصادية والخدمية . أما عن أسلوبه الفردى الدكتاتورى فى تعامله مع زملائه ، وضيقه بالنقد ، فقد كان جورباتشوف يرى أن ذلك يتجاوز طبيعة شخص يلتسن أو غير يلتسن ، إلى مسألة جوهرية وهى غياب ممارسة المركزية الديمقراطية فى الحزب ومشروعية النقد وضماناته . وكذلك أزمة الديمقراطية فى المجتمع ككل . وهو ما جاءت البريستورويكا والجلاسنوست لعلاجه حزبيا ومجتمعيا ، رفاقا ومواطنين على السواء . كذلك لم يتوقف جورباتشوف طويلا عند واقعة إدمان يلتسن للخمر . وذلك انطلاقا من أن الإدمان صار ظاهرة مرضية مجتمعية شاملة . تهدد قيم وحيوية ونشاط الدولة والمجتمع معا . وهو ما يتطلب معالجة جذرية ، أقدم عليها جورباتشوف – فيما بعد – بإجراءات تقنين الإنتاج والتوزيع

الاستهلاكى الفردى والجماعى للخمور ، وفى مقدمتها الفودكا . وهى إجراءات سحبت من رصيده الشعبى القدر غير اليسير .

وهكذا جاء يلتسن إلى العاصمة ، فى ظل عباءة جورباتشوف لخدمة البريسترويكا ، فأقام موسكو ولم يقعدها ، إلا بعد أن صار رئيسها المتوج بأكاليل الغار ، إثر الهزيمة التى أنزلها بالاتحاد السوفيتى والبريسترويكا وجورباتشوف ، فى ديسمبر ١٩٩١ .

فى موقعه الحزبى الجديد بموسكو ، نشط يلتسن ، كواحد من أبرز جنود البريسترويكا ، تحت قيادة جورباتشوف . حاصر العديد من بؤر الفساد فى الإدارات الحكومية والمؤسسات الاقتصادية والخدمية وكسر شوكتها . طارد أباطرة السوق السوداء ، وحد بدرجة كبيرة من نشاطهم . داهم العاملين فى المراكز الحكومية وقطاعات الإنتاج والخدمات ، وخاصة شبكات توزيع المواد الغذائية الرئيسية للشعب ، بعمليات تفتيش ومراقبة ، نهارية وليلية ، كان يقود معظمها بنفسه . وأنزل العقاب الصارم بالمتلاعبين منهم . ولم يتورع فى كثير من الأحيان عن استخدام لطمات يده وركلات قدمه ضد الكبار منهم على مرأى من جماهير موسكو ، التى انبهرت بشجاعته البدنية والسياسية ، فراحت تهتف له . وتتناقل حكاياته وأقواله وأفعاله ، وتضيف إليها من حماستها . الأمر الذى تحول معه يلتسن فى وقت قصير إلى « أسطورة شعبية » .

ربما كانت هذه الشعبية الجامحة التى حققها ، هى التى ظلت تؤجج فى نفسه أنه متميز عن غيره من القادة الحزبيين والسياسيين ، وأنه المسيح الاشتراكى المنتظر . ويروى عنه فى تلك الفترة أنه كان فى الدائرة الخاصة الضيقة من معاونيه الذين استقدمهم من لجنته الحزبية السابقة بالأورال . يتحدث عما أسماه بثالوث البناة العظام للاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى . ويعنى به ثالوث لينين وجورباتشوف ويلتسن . ويتحدث باستفاضة عن دوره الخاص فى تطهير الحزب والدولة من مدعى الاشتراكية والمنتفعين بالسلطة السوفيتية .

ومع عام ١٩٨٨ ، لم يعد أحد من القادة السوفيت بمن فيهم جورباتشوف فى بعض الأحيان ، ينافس شعبية يلتسن فى موسكو . فى حين كان مركزه داخل الحزب يتضاءل ويحاصر بقوة . وخاصة عندما أقدم فى ثورة غضب ، على طرد وتجميد ثلثى الأعضاء القياديين فى اللجنة الحزبية بموسكو ، بتهم تتراوح بين الفساد وخيانة القيم الاشتراكية والعفونة البيروقراطية . وذلك دون المرور بقنوات

التحقيق التنظيمية للحزب . وتراكمت على مكتب جورباتشوف مئات التقارير والشكاوى ضد يلتسن ورعونته ، وعدم التزامه بقواعد اللائحة الحزبية .

بيد أن جورباتشوف ظل يسبغ حمايته عليه . ويعتبره « الولد الشقى » للبريسترويكا الذى لا بد منه فى المرحلة الأولى لإعادة البناء . ويحاول استيعاب أخطائه وترشيد حركته . وذلك من خلال اجتماعات منفردة معه غالبا ، وجماعية بين آن وآخر ، تضم عددا من رجال البريستورويكا فى ذلك الوقت مثل ليجاتشيف الذى كان يلتسن يصنفه فى عداد البيروقراطيين الحزبيين ، وشيفارنادزه الذى كان يمثل بالنسبة له الوسط الجالس بين مقعدين ، وياكوفليف الذى كان يرتاح إليه كثيرا .

ظل يلتسن يعمل ويتحرك فى إطار قيادة واستراتيجيات وتكتيكات جورباتشوف ، حتى إذا جاء عام ١٩٨٩ فاجأ الجميع ، وفى مقدمتهم جورباتشوف نفسه ، بهجوم حاد – خلال اجتماع للجنة المركزية – على البيروقراطية الحزبية وحركتها المعادية للبريستورويكا . وخص بالذكر ليجاتشيف على نحو مكثف ، منطلقا من اتهامه بأنه يدير حربا خفية ضد إعادة بناء الحزب والدولة والمجتمع . وتفجر الجحيم داخل الحزب . ورأى جورباتشوف أن يلتسن ، الذى كان ملحوظا للجميع أنه يحظى بحمايته ، قد أشعل معركة قبل أوانها أو التحضير لها جيدا ضد بيروقراطية الحزب التى ما برحت مسيطرة على مواقع رئيسية ومؤثرة . كما أنه شن هجوما غير مبرر ضد ليجاتشيف ، الذى كان يعد وقتذاك من رجال البريستورويكا ، وإن تحفظ على بعض اتجاهات إعادة البناء ، إلا أنه كان يستخدم نفوذه الحزبى فى لجم حركة البيروقراطية . ولم يجد جورباتشوف مفرا ، أمام هذا الوضع ، إلا أن يوافق على قرار اللجنة المركزية بالتحقيق فى « إدعاءات يلتسن » . وهو التحقيق الذى انتهى بمحاكمته والتوصية بعزله من عضوية اللجنة المركزية . وبالتالى من عضوية الاحتياط فى المكتب السياسى التى كان قد صعد إليها حديثا .

واستطاع جورباتشوف أن يحتوى الموقف نسبيا ، وذلك بإلغاء تصعيد يلتسن لعضوية الاحتياط فى المكتب السياسى ، وتنحيته عن مسئولية قيادة اللجنة الحزبية لموسكو ، مع الإبقاء على عضويته باللجنة المركزية . وتعيينه وزيرا للإسكان . وانطلق جورباتشوف ، فى حل أول أزمة حادة بين الحزب ويلتسن ، من واقع أنه خلال حركة البريستورويكا ، تشكلت جبهتان رئيسيتان فى إطارها ،

جبهة اليمين بقيادة ليجاتشيف وجبهة اليسار بقيادة « الولد الشقى » يلتسن . وأنه من الخطر على مستقبل البريسترويكا ، تسييد جبهتها اليمينية من خلال تصفية جبهتها اليسارية . وخاصة قيادتها التى بات لها شعبية ملحوظة فى موسكو وبعض الأقاليم الروسية .

ويمكن القول ، إنه عند هذه النقطة العاصفة ، بدأت مسيرة تحول يلتسن عن الحزب الشيوعى والبريسترويكا .. وأخيرا الاشتراكية نفسها . واعتبر أن جورباتشوف فى النهاية قد خذله . وأنه بات سجين بيروقراطية الحزب ، ليس فى مقدوره الخلاص من قيودها . وأن البريسترويكا طريقها مسدود . وصار معاونو يلتسن الذين استقدمهم من الأورال حيث كانوا يعملون معه أو الذين انضموا إليه من أمثال جينادى بوربوليس وجالينا ستاروفويتوفا وأناتولى تشوبايس وجافريل بوبوف وحسب اللاتوف وايجور جيدار وغيرهم .. يضخمون له دوره الذاتى التاريخى لقيادة البلاد نحو شاطىء الأمان بعيدا عن الحزب والبريسترويكا .. وحتى جورباتشوف نفسه . وأن ما أصبح يحظى به من شعبية ، يلزمه بأن يقطع تماما مع الماضى . ويفتح طريقا جديدا للخلاص الديمقراطى .

وكانت المجموعات السياسية التى بدأت تتكون وتتحرك فى الساحة تحت راية « الديمقراطيين الراديكاليين » بقيادات ، تصفهم القوى القومية الروسية المعارضة ، بأن غالبيتها من أصول يهودية ، مثل قسطنطين بوروفوى ، وزولو تاروف ، وشبيجل ، والسيدة خكامادا الخ .. قد أخذت تسيّر المظاهرات الجماهيرية فى موسكو لصالح يلتسن . وتنادى به زعيما لحركة إصلاحية ديمقراطية ، فى السياسة والاقتصاد معا . ترتبط به وتراهن عليه ضد جورباتشوف ، قيادة لها ، دون أن يكون له وضع تنظيمى فى أى منها .

وبعد عودته من أول زيارة له إلى الولايات المتحدة ، التى لم يخف يلتسن انبهاره بنظامها السياسى الديمقراطى ونظامها الاقتصادى الحر معا ، تعاظم ارتباطه الحركى مع جماعات الديمقراطية الراديكالية . وتبنيه لمطالبها فى إنهاء احتكار الحزب الشيوعى للعمل السياسى ، والدعوة لنظام تعدد الأحزاب ، والاتجاه إلى نظام اقتصاديات السوق . وراحت المسافة بينه وبين البريسترويكا والحزب وجورباتشوف تتباعد باطراد . وأقدم فى ١٩٩٠ فى خطوة دراماتيكية ، بعد خطاب ملتهب داخل اللجنة المركزية ، على إعلان استقالته من عضوية

الحزب « لأن الحزب انفصل تماما عن الشعب ، ولم يعد أمامى من خيار إلا أن أكون مع الشعب » .

وتحول الولد الشقى للبريستورويكا تحت عباءة جورباتشوف إلى عدو لدود له وللبريستورويكا . وانغمس فى العمل بدعم من جماعات الديمقراطيين الراديكاليين واستنادا إلى شعبيته الكبيرة فى روسيا ، فى خضم الصراع على السلطة ، بهدف إحداث القطيعة مع الحزب والاتحاد السوفيتى والاشتراكية .

رشح نفسه ضد مرشحى الحزب لرئاسة برلمان روسيا . وسقط خمس مرات . ولكنه نجح فى المرة السادسة بفارق ثلاثة أصوات . واستعر الصراع أكثر فأكثر . وخلاله تمكن من إدخال ٣٢٠ تعديلا على الدستور لصالح ترسيخ سلطته ضد المركز الاتحادى الذى يحتله جورباتشوف . وانتخب رئيسا لجمهورية روسيا التى أعلن « استقلالها وبعثها من جديد » . وأنشأ أجهزة جديدة مستقلة لروسيا فى جميع المجالات ، قام على إدارتها أنصاره من الحركات الديمقراطية الراديكالية .

واستغل انقلاب أغسطس ١٩٩١ الفاشل ، الذى قامت به قيادات نظام جورباتشوف ، فى إحكام قبضته على كل مناحى السلطة . ولقى دعما شعبيا هائلا ومناصرة علنية من الولايات المتحدة والغرب عامة لدوره « البطولى » فى إسقاط الانقلاب . وأقدم على حل الحزب الشيوعى واعتباره هيئة خارج القانون فى روسيا . واستولى على مقاره وأدواته وأمواله وطارد قياداته وكوادره ، باعتبارهم مطلوبين أمام العدالة التاريخية لروسيا . وحاصر إدارات ومراكز المخابرات الـ "K.G.B." . واستطاع السيطرة عليها تماما بقوة الفرقة العسكرية المعروفة باسم « تامانسكيا » التى انحازت إليه خلال انقلاب أغسطس ١٩٩١ . وذلك بفضل « بافل جراتشيف » الذى عينه جورباتشوف ، بضغط من يلتسن ، وزيرا للدفاع بعد الانقلاب . ويتردد فى بعض أوساط المعارضة أنه « عديل يلتسن » . وإن كان آخرون فى المعارضة نفوا أو أبدوا عدم معرفتهم بهذه القرابة .

فى الشهور الأربعة الأخيرة من عام ١٩٩١ ، كان يلتسن قد نجح فى سجن جورباتشوف ، رئيسا صوريا ، داخل الكرملين . وامتلك هو كل السلطة وراح يعد لساعة الحسم الأخيرة فى تاريخ الاتحاد السوفيتى والاشتراكية . وفى الثامن من ديسمبر ١٩٩١ وجه ضربته القاضية باتفاقه مع كرافتشوك رئيس أوكرانيا وشوشكيفتش رئيس روسيا البيضاء ، على إلغاء المعاهدة الاتحادية التى كانت قد

وقعت بين الجمهوريات فى ١٩٢٢ ، وتأسس بموجبها الاتحاد السوفيتى . وهو الاتفاق الذى عرف باسم المدينة التى وقع فيها وهى « بيلافيجسكايا بوشا » فى روسيا البيضاء ، التى كشف رئيسها فى تصريح علنى بأن التوقيع تم بعد استشارة جورج بوش رئيس الولايات المتحدة ، تليفونيا .

وعقب جورباتشوف من سجنه الرئاسى فى الكرملين ، بأسى ومرارة ، على ذلك بقوله : « استشاروا الرئيس الأمريكى وتجاهلوا الرئيس السوفيتى » .

ومع نهاية عام ١٩٩١ ، انهار الاتحاد السوفيتى والاشتراكية وانسحب جورباتشوف والبريستورويكا من الكرملين ، إلى الظل . وبدأ تاريخ جديد ليلتسن مع تاريخ جديد لروسيا الرأسمالية ، بصراعات جديدة أيضا .

• الفصل السابع •

صبيـان يلتسـن

مع الأول من يناير ١٩٩٢ ، بزغت دولة روسيا المستقلة تحت رئاسة بوريس يلتسن . وغربت شمس دولة الاتحاد السوفيتى ذات الجمهوريات المتعددة ، والتى كان ميخائيل جورباتشوف آخر رئيس لها .

بتعبير آخر ، يمكن القول إن هذا التاريخ هو التوقيت الرسمى الدولى لميلاد روسيا الرأسمالية ، ووفاة الاتحاد السوفيتى الاشتراكى .

ويلفت الانتباه أن كلا من زعيمى أو رئيسى الدولتين ، الصاعدة والغاربة ، بوريس يلتسن وميخائيل جورباتشوف ، لا ينتميان ، وحسب ، إلى قومية واحدة هى القومية الروسية . وإنما ، أيضا ، أمضيا الشطر الأكبر من حياتهما الزمنية والسياسية ، زميلين فى جماعة فكرية سياسية واحدة ، هى الحزب الشيوعى السوفيتى ، الذى تفكك وانهار بدوره .

وانتهى الصراع بينهما ، فى إطار الفوضى السياسية التى واكبت حركة الإصلاح ، إلى انتقال يلتسن من « دكتاتورية الاشتراكية للطبقة العاملة » إلى « ليبرالية الرأسمالية والسوق الحرة » ، وشد معه روسيا ، التى تكون كتلة بشرية يبلغ تعدادها ١٤٨,٤ مليون نسمة ، وفقا لإحصاء الدولة الجديدة فى يناير ١٩٩٤ . فى حين أن جورباتشوف الذى حاول الانتقال من « اشتراكية بيروقراطية تسلطية » إلى ما أسماه بـ « اشتراكية إنسانية ديمقراطية » ، فشل فى مواصلة حركته . أو فى أن يشد إلى طريقه ، ولو قرية صغيرة تعدادها ألف نسمة ، من

أراضى الاتحاد السوفيتى ، التى كانت تعج بمائتين وست وثمانين مليون نسمة ، ينتسبون إلى أكثر من مائة قومية .

بدا يلتسن على رأس جمهورية روسيا ، فى صورة الفارس الديمقراطى الذى هزم كل الأعداء وحطم كل الأصنام . زعيما محبوبا قويا ، لا يقدر أحد على تحدى شعبيته الكاسحة أو سلطاته المادية والمعنوية .

الشيوعيون الذين كانوا ملء السمع والبصر على امتداد سبعة عقود من الزمن ، وظلوا يحركون المكان والزمان والناس والأشياء ، اختفوا كأن الأرض انشقت فجأة وابتلعتهم فى غمضة عين ، رغم أنهم كانوا قد تجاوزوا التسعة عشر مليون مواطن حزبى . من بقى منهم ظاهرا على السطح ، أخذ يغير من جلده ويحرق بطاقته الحزبية جهارا . ويعلن ولاءه للسيد الجديد . يصطحب أسرته للصلاة فى الكنيسة ، يبصق على قبر لينين الرخامى فى الميدان الأحمر ، ويروى فى الصحف وعلى شاشات التليفزيون قصصا عن بطولاته فى الكفاح ضد الطغاة الحزبيين . وما أصابه على أيديهم من قهر وعذاب ، وما قدمه من تضحيات . بعضهم تواضع ، واعترف بأن عضويته للحزب كانت مجرد ضمان « لأكل العيش » . قلة منهم ، يتراوح تقديرها بين ثلاثة أرباع المليون والمليون عضو ، بقيت على مبادئها ، وتحملت الطرد والتشريد والسجن ،وربما دفعها للانتحار أحيانا . نزلت تحت الأرض ، بعد أن افتقدت شرعية الوجود فى الساحة بقانون يلتسن الذى أصدره بعد انقلاب أغسطس ١٩٩١ ، تحاول أن تنظم نفسها بأساليب جديدة ، وربما بأفكار وبرامج جديدة أيضا .

ومع ضربة النظام « الديمقراطى » فى روسيا الجديدة ، للحزب الشيوعى ، خفتت كل أصوات المعارضة ، رغم وجود أحزاب لها . ولم تعد تسمع – تقريبا – إلا أصوات جماعات الديمقراطيين الراديكاليين ، ذات القواعد الشعبية المحدودة ، ولكنها الأكثر فاعلية وحركة وضجيجا بما امتلكته من إمكانيات مادية وشبكات اتصالات واسعة فى الداخل والخارج معا . وهى الجماعات ، التى تبادلت المنافع مع يلتسن حول هدف التحول من النظام الاشتراكى واقتصاد الدولة إلى النظام الليبرالى واقتصاد السوق . ونصبت يلتسن ، منذ البداية ، زعيما روحيا وسياسيا لها ، دون أن يورط هو نفسه فى عضوية أى منها . بقى – ولا يزال – فوقها جميعا ، مستقلا حر الحركة إلى حد غير قليل . وفى مقابل ذلك دفع بقيادتهم إلى تولى المناصب السياسية والإدارية الأساسية فى السلطة ، وفتح أمامهم مسالك

العمل فى السوق الوليدة ، دون قيود تقريبا . وذلك جنبا إلى جنب مع ما بات يسمى « بالفريق الخاص للرئيس » أو « صبيان يلتسن » . وذلك كناية عن العناصر الشابة موضع الثقة الشخصية ليلتسن والتى استقدم معظمها من لجنته الحزبية الشيوعية السابقة بمدينة سيربوسك عاصمة الأورال الصناعية . وكان من أبرزها « جينادى بوربوليس » ، الذى تطلق عليه بعض القوى المعارضة لقب « راسبوتين الحديث » ، أو « راسبوتين روسيا الليبرالية » . وذلك نسبة إلى الراهب راسبوتين الشهير بنفوذه الطاغى لدى بلاط وعائلة آخر القياصرة الروس ، قبل ثورة ١٩١٧ ، نيقولا الثانى .

باختصار ، استقر يلتسن فى ١٩٩٢ على رأس نظام يمتاز بأوضاع مريحة له نسبيا ، بعد أعاصير وعواصف البريستورويكا وانقلاباتها .

☐ فمن ناحية ، رحبت غالبية الشعب فى روسيا ، « باستقلال بلادها وبعثها من جديد » ، على حد تعبير يلتسن . وبالبرنامج الذى أعلنه الرئيس عن إقامة جمهورية ديمقراطية متعددة الأحزاب ، تحترم حقوق الإنسان تقوم على أساس اقتصاديات السوق . وتنفتح على كل دول العالم وأسواقها . وفى مقدمتها ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص .

☐ ومن ناحية ثانية ، استقطب ثقة القوات المسلحة ، كقائد أعلى لها . وذلك من خلال بعض الامتيازات الجديدة التى قررها فور مباشرته لصلاحياته ، سواء رفع الأجور ، أو توفير مزيد من المساكن للجنود والضباط ، أو منح العفو عمن عارضه ووقف ضده ، قبل قيام جمهورية روسيا . وكذلك من خلال الولاء المجرب « لبافل جراتشيف » قائد الجيش ووزير الدفاع الذى خلف « الماريشال يازوف » الذى شارك فى انقلاب أغسطس ١٩٩١ .

☐ ومن ناحية ثالثة ، نظم قدرا معقولا من التعاون ، وربما يكون من الأدق القول قدرا معقولا من التحالف فى تلك المرحلة المبكرة من جمهوريته ، بينه وبين الشخصيات القيادية للمؤسسات السياسية فى هيكل النظام الجديد . وأعتُبر انتصاره ، انتصارا فى نفس الوقت وبنفس القدر ، لرسلان حسب اللاتوف رئيس مجلس السوفيت الأعلى (البرلمان) ، صديقه وحليفه الأساسى ، منذ شرع يلتسن يستقل عن الحزب الشيوعى وجورباتشوف والبريستورويكا والاتحاد السوفيتى . ولعل غالبية القوى السياسية الراهنة فى روسيا ، ترى أن حسب اللاتوف هو الذى ساهم بأكبر نصيب فى صناعة زعامة يلتسن ورسم الخطط لحركته . وذلك بهدف

أن يحكم من خلاله . حيث إنه ، وهو أستاذ الاقتصاد اللامع السابق بجامعة موسكو والحيوان السياسى الذى اشتهر بالحنكة والدهاء ، لا يستطيع بسبب أصوله الإسلامية الشيشانية أن يقفز إلى واجهة الدولة ، ويصبح رئيسها .

وتمكن يلتسن أيضا ، بمساعدة حسب اللاتوف ، من أن يحيد معارضة الجنرال ألكسندر روتسكوى ، وهو رجل نزيه ومن القلائل الذين كانوا يتمتعون ، فى المناخ السياسى المحموم ، بثقة الجيش والشعب معا . وكان قد انتخب ، على عكس إرادة يلتسن وجماعته ، نائبا للرئيس . مدعوما من جماعة « الشيوعيين الديمقراطيين » التى كان قد أنشأها فى بداية عام ١٩٩١ فى محاولة لتخطى أزمة الحزب الشيوعى وبيروقراطيته المتحكمة . وهى الجماعة التى تحولت فيما بعد إلى « الحزب الشعبى الروسى الديمقراطى » .

كذلك رتب يلتسن علاقات طيبة ومرنة مع السلطة القضائية ممثلة فى « فاليرى زوركين » رئيس المحكمة الدستورية . وهو الشخصية المستقلة المعترف لها بكفاءتها ونزاهتها القانونية .

□ ومن ناحية رابعة ، استطاع يلتسن ، مستخدما وزن روسيا ، فى إقناع زميليه السلافيين ، رئيسى أوكرانيا وروسيا البيضاء ، بالاستجابة لفتح الرابطة التى انعقدت بين دولهم الثلاث فى ٨ ديسمبر ١٩٩١ على أنقاض الاتحاد السوفيتى ، أمام من يشاء من الجمهوريات السوفيتية السابقة بناء على مبادرة من « نور سلطان نزار باييف » رئيس كازاخستان ، فيما سمى « برابطة دول الكومنولث المستقلة » . وبذلك حقق لروسيا وضعا متميزا فيما كان يعرف سابقا بجمهوريات الاتحاد السوفيتى ، وضمان حقوق المواطنين الروس فى هذه الجمهوريات (حوالى ٢٥ مليون مواطن) ، والتى كانت مشاكل وجودهم واستمرار حياتهم فيها ، هى إحدى القضايا الرئيسية التى شرعت تدق بعنف ملحوظ باب رئاسة يلتسن . ويستغلها ضده الشيوعيون فى منشورات تصدر من تحت الأرض ، أو من السجون حيث كان يقبع قادة انقلاب أغسطس وغالبية الكوادر الشيوعية الديناميكية . أو مما يثيره الأعضاء الشيوعيون بالبرلمان الذين ظلوا يشكلون – عدديا – كتلة لها وزنها . تتحرك بين آن وآخر ، فى حذر وحيطة .

□ ومن ناحية خامسة وأخيرة ، نجح يلتسن فى اكتساب ثقة الغرب الأوروبى والأمريكى باعتباره رجل الواقع والمستقبل المنظور ، الأقوى ، فى

روسيا . والقادر على إحداث التحول نحو الديمقراطية واقتصاد السوق معا . وذلك فى مقابل جورباتشوف ، الذى وإن كان هو الذى فتح باب التغيير الديمقراطى ، إلا أنه ظل يصر على اتمام ذلك فى إطار ما أسماه بصيغة عصرية للاشتراكية والاتحاد السوفيتى فى وقت واحد .

وهكذا استطاع يلتسن ، من خلال هذا التمهيد الخماسى الأبعاد للساحة السياسية فى روسيا ، أن يقيم سلطته الرئاسية وحكومته التنفيذية التى أسند مهامها عمليا إلى أحد أبرز معاونيه وهو « جينادى بوربوليس » ، الذى لقب « براسبوتين » الجمهورية الشاب .

ولم يلق - بالتالى - صعوبة تذكر فى أن يوافق البرلمان ، على قرارات الرئيس والمصادقة على مراسيمه بتعيين الأشخاص الذين يختارهم لشغل المناصب الرئيسية . بل وأقدم البرلمان ، تحت رئاسة حسب اللاتوف ، على منحه ما طلبه من سلطات استثنائية . وذلك لاتخاذ ما يراه من قرارات ضرورية لبناء الدولة الجديدة والتصدى للمشاكل المثارة ، دون رجوع مسبق للسلطة التشريعية . التى كان رئيسها (حسب اللاتوف) فى هذه المرحلة ، لا يزال عضوا بالدائرة الضيقة من حول يلتسن . ويعد واحدا من أبرز مستشاريه ومعاونيه .

وفى الخارج كان الترحيب ملحوظا بدرجة كبيرة ، من الغرب ، بيلتسن وجمهوريته الروسية . وقامت الولايات المتحدة الأمريكية ، على وجه الخصوص ، من مركزها المتفرد والمتميز دوليا الذى صعدت إليه واحتكرته فى التسعينيات ، بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وغياب جورباتشوف ، وقيادتها للتحالف الدولى فى حرب الخليج الثانية ، بالتسويق السياسى لنظام يلتسن الروسى ، فى المجتمع الدولى ، كوريث شرعى للاتحاد السوفيتى ، فى كل ما كان يتمتع به ، كقوة عظمى . سواء بالنسبة للعضوية الدائمة فى مجلس الأمن أو غيره من المنظمات الدولية الأخرى . بل وفتحت أمامه الأبواب التى كانت مغلقة من قبل فى وجه الاتحاد السوفيتى ، لعدد من المؤسسات الدولية مثل منظمة التجارة الدولية (الجات) والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى وغيرها .

وبدا الأمر كما لو كان يلتسن قد حقق معجزة . وذلك عندما نجح فى أن يحشد داخل نظامه كل القوى العاملة فى الساحة على اختلاف اتجاهاتها ، باستثناء الشيوعيين والقوميين ، داخل وخارج البرلمان .

فى هذا الحشد ، التأم « صبيان يلتسن » أو ما اصطلح على تسميته « بفريق الرئيس » ، وفى مقدمتهم بوربوليس وكوزاريف وجيدار وفيدوروف وبتروف وبالترانين الخ .. وذلك جنبا إلى جنب مع جماعات الديمقراطيين الراديكاليين من أمثال اناتولى تشوبايس نائب رئيس الوزراء ومسئول بيع وتحويل القطاع العام إلى القطاع الخاص ، وقسطنطين بوروفوى الذى صار رئيسا لبورصة السلع والمواد الخام فى روسيا ، وواحد من المائة الأكثر ثراء ، وايرانيا خكامادا والراهب جليب ياكونين وليف بونماريوف ويلينا بونر أرملة العالم أندريه سخاروف الملقب بأبى القنبلة النووية السوفيتية الخ .. وأيضا مجموعات من الوسط المعتدل ، بدرجات مختلفة ، وعلى رأسها حسب اللاتوف وروتسكوى واركادى فولسكى رئيس اتحاد الصناعيين المستثمرين الروس وفاسيلى ليبتسكى نائب رئيس الحزب الشعبى الديمقراطى وسيرجى شخراى الذى شغل منصب نائب رئيس الوزراء الخ ... وتشير نوميردين الذى أصبح فيما بعد - ولا يزال - رئيسا للوزراء الخ ..

كان هذا الحشد أقرب ما يكون إلى صورة « الأخوة الأعداء » التى برع ديستويفسكى فى رسمها فى رائعته الشهيرة « الإخوة كرامازوف » . حيث يشتعل العداء ، لدوافع مختلفة ، بين الإخوة بعضهم وبعض وبين كل واحد منهم وبين الأب ، الذى جسده - سياسيا - يلتسن فى التراجيديا الروسية المعاصرة . بمعنى أن الجميع ظهر مع قيام الجمهورية الروسية على أنقاض الاتحاد السوفيتى ، أخا للجميع . بيد أنه تحت عباءة الأب كان الكل ، فى الحقيقة ، عدوا للكل .

لم يكن خافيا على أحد ، فى هذا الحشد ، أنه لن يمضى وقت طويل حتى تتمزق عباءة الأب وينفرط العقد . وذلك حين تضطر الظروف المعقدة المتسارعة فى حركتها ، هذا الأب ، أن يختار بين الاتجاهات والمصالح المتضاربة ، بين « الإخوة الأعداء » .

تبلورت حالة العداء بين « إخوة نظام يلتسن » ، مع نهاية الأشهر الثلاثة الأولى من قيام الجمهورية ، بين اتجاهين رئيسيين ، لكل منهما إجابته الخاصة عن السؤال المركزى الملح : إلى أين تسير روسيا ؟

● الاتجاه الأول ، يمثل القاسم المشترك الذى توصلت إليه أجنحة الوسط المعتدل بزعامة روتسكوى وحسب اللاتوف وفولسكى . ويذهب إلى أن البديل الممكن والآمن ، هو التحول من المجتمع الاشتراكى الذى تتحكم فيه بيروقراطية

ثقيلة وتخطيط مركزى أعمى عن احتياجات السوق والمستهلكين والذى يقيد نفسه فى نوع وحيد من الملكية هى الملكية العامة ، إلى مجتمع مختلط الاقتصاد ينفتح على صور متعددة ومرنة من الملكية ، وعلى آليات السوق . وذلك فى إطار من التوازن بين قطاع الدولة العام والقطاع الخاص . ويحذر هذا الاتجاه من النزعات الفوضوية لتصفية كامل القطاع العام أو التسريع فى تحويله إلى القطاع الخاص . الأمر الذى يؤدى إلى انهيارات اقتصادية واجتماعية عاتية ، تنشأ معها أمراض الرأسمالية الطفيلية والفقر المتنامى والجريمة والمافيا .

● أما الاتجاه الثانى ، فقد تكون من تحالف فريق الرئيس مع الجماعات الديمقراطية الراديكالية ، وهو يذهب إلى أنه كلما كان التحول سريعا وحاسما وشاملا من الاقتصاد الاشتراكى البيروقراطى إلى اقتصاد السوق الحر بلا قيود ، كان فى ذلك الانقاذ الجذرى لروسيا وللشعب الروسى من الأزمة الاقتصادية الاجتماعية الهيكلية . وأنه لا إنقاذ حقيقيا دون آلام حقيقية . وأنه بقدر ما تكثف إجراءات التحول فى أقصر زمن ممكن ، بقدر ما يحدث اختصار لفترة الآلام التى لا مفر منها ، إلى أقصى حد ممكن . وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا « العلاج بأسلوب الصدمات السريعة المتلاحقة » ، التى تبدأ بإطلاق حرية الأسعار والإصلاح النقدى ، وتحويل القطاع العام البيروقراطى إلى قطاع خاص ديناميكى ، بهدف خلق طبقة واسعة من الملاك ، تغدو صاحبة مصلحة فى دعم النظام واستقراره .

حاول يلتسن أن يؤجل لحظة الاختيار ، وأن يبقى الجميع لأطول فترة ممكنة تحت عباءته . غير أن تفاقم مشاكل الحياة فى الداخل وظهور بوادر تحرك مشترك معارض من الشيوعيين والقوميين من ناحية ، وضغوط الغرب وتلويحه بإغراءات المساعدات الاقتصادية من ناحية أخرى ، أجبرت يلتسن على ضرورة الاختيار مع مطلع ربيع عام ١٩٩٢ . وكان اختياره إلى جانب اتجاه العلاج بالصدمات .

ومع هذا الاختيار ، بدأت عمليات الفرز لقوى النظام بين « الإخوة الأعداء » . وأحدث الفرز خلخلة وهزات متلاحقة فى المجتمع والنظام ، وحتى داخل كل قوة من القوى التى كانت قد تآلفت تحت عباءة يلتسن . لم يسلم من ذلك حزب أو حتى فريق الرئيس نفسه . حدثنى أحد السياسيين الشبان ، فقال إنه فى غضون ٢٤ ساعة وجد نفسه ينتقل ثلاث مرات من موقع حزبى إلى موقع حزبى آخر . وذلك نتيجة الانقسامات التى عصفت بالحزب الذى كان قد انضم إليه فى

ظهيرة أحد الأيام . وعند مساء نفس اليوم كان الحزب قد انقسم . ولم يأت صباح اليوم التالى حتى كان الانقسام قد ولد انقساما جديدا .

جاء الفرز ، ضمن ما جاء به إلى السلطة ، بمجموعة من الاقتصاديين السياسيين الشباب ، الذين تأثروا – أساسا – بما أصبح يسمى بمدرستى جامعتى هارفارد وشيكاغو الأمريكيتين حول نظريات النظام الرأسمالى الحديث عامة وسيناريوهات التحول السلمى من الاشتراكية إلى الرأسمالية على وجه الخصوص . وكان على رأس هذه المجموعة « ايجور جيدار » ، مدرس الاقتصاد الذى كان أحد القادة البارزين لمنظمة الشباب الشيوعى (الكومسومول) فى جامعة موسكو . وفاجأ يلتسن الجميع بتعيينه رئيسا للوزراء . وكذلك بوريس فيدوروف الذى أصبح وزيرا للمالية وأناتولى تشوبايس الذى صار نائبا لرئيس الوزراء لشئون تحويل وخصخصة القطاع العام .

على الجانب الآخر ، قاد الفرز ، ضمن ما قاد نحو المعارضة ، معظم قوى الوسط وفى مقدمتها روتسكوى نائب الرئيس الذى كان قد شرع يهتم بملاحقة وقائع الفساد والمفسدين وحالات الإثراء الفاحش بطريق غير مشروع . ورسلان حسب اللاتوف رئيس البرلمان . وكذلك تشيرنوميردين ، الذى سيستدعيه يلتسن فى خريف ١٩٩٢ ليتولى رئاسة الحكومة ، بعد اضطراره لإقالة جيدار تحت ضغط المعارضة البرلمانية ومظاهرات الجوع الجماهيرية التى اجتاحت موسكو وعددا من المدن الروسية ، بعد تطبيق سياسة العلاج بأسلوب الصدمات .

أدت هذه السياسة إلى تهاوى القوة الشرائية للروبل إلى درك سحيق ، نتيجة ما حدث من تضخم صاروخى . وارتفاع الأسعار إلى أرقام فلكية ، تعجز عن مجاراتها دخول الغالبية الساحقة من المواطنين . فى الوقت الذى بدأت تظهر فيه ، باستفزاز ، جماعات من الأثرياء الشرهين ، أطلق عليهم « الروس الجدد » ، تكالبوا على نهش القطاع العام بدعم وتواطؤ عدد من المسئولين الكبار . وتدنت خدمات الصحة والإسكان والتعليم والثقافة إلى درجة تقترب من الصفر . وشرعت الاضرابات والمظاهرات الشعبية فى قطاعات الموظفين وأساتذة وطلاب الجامعات والمعاهد والبحوث العلمية ، تكتسح الشوارع بشكل شبه يومى .

وفى محاولة لامتصاص الغضب الجماهيرى ، إزاء التدنى الرهيب فى مستوى المعيشة مع ابتلاع الروس الجدد لكل ما يستطيعونه من القطاع العام ، الذى حجب عنه تمويل الدولة وتعثرت بالتالى آلياته الإنتاجية ، أقدمت حكومة

يلتسن – جيدار على إصدار ما أسمته بالصكوك الاجتماعية . بواقع صك لكل مواطن قيمته ٢٧ ألف روبل (٤٠ دولارا وقتها) وذلك مقابل نصيبه فى الملكية الاجتماعية للقطاع العام ، وتعويضا له عن عملية الخصخصة . لكن المحاولة لم تحقق نجاحا .ووصفتها المعارضة بأنها نوع من إضفاء الشرعية الكاذبة على سرقة الأموال والممتلكات العامة للشعب . وازداد الصراع السياسى الاجتماعى تأججا . وأقدم البرلمان على سحب السلطات الاستثنائية التى كان قد منحها من قبل للرئيس يلتسن ، وصار عليه أن يلجأ إلى السلطة التشريعية فى كل مرة يسعى فيها إلى تعيين وزير أو مسئول كبير فى السلطة التنفيذية . أو اتخاذ إجراء جذرى فى عملية الإصلاح بأسلوب الصدمات أو المفاوضات مع البنك الدولى وصندوق النقد الدولى الخ ..

وكانت المعارضة ليلتسن وحكومته قد أصبحت ، بعد خروج قوى الوسط من عباءته ، تملك غالبية حاسمة فى البرلمان بتحالف الشيوعيين والقوميين . ولها ، لأول مرة ، كلمة مسموعة منافسة لكلمة يلتسن فى الشارع المطحون الساخط . وأيضا لدى غالبية جمهوريات الحكم الذاتى والمقاطعات فى روسيا الاتحادية .

وبات يلتسن ، لأول مرة ، نمرا حبيسا داخل سلطة تنفيذية ، مع صبيانه ، وجماعات الديمقراطيين الراديكاليين ، تضيق ويتآكل وزنها إزاء تصاعد سلطة البرلمان . وفى الوقت الذى اتحدت فيه قوى الشيوعيين مع الوسط والقوميين فيما عرف باسم « المعارضة اليمينية – اليسارية » ، كان الصراع يشتعل داخل معسكر يلتسن على مناصب السلطة والنفوذ والثراء الشخصى . الأمر الذى حدا بيلتسن أن يستجيب لمطالب البرلمان فى إقالة جيدار وبوربوليس وبالترانين وزير الإعلام وغيرهم ، فى خطوة تكتيكية لاستيعاب المعارضة . ودعمها بإسناد رئاسة الوزراء لأحد أقطاب الوسط وهو تشيرنوميردين . لكن ذلك لم يخفف من حدة المعارضة التى غدت تطرح سحب الثقة من الرئيس وإقالته . ومحاكمة الفاسدين من صبيانه ومعاونيه .

ظل الوضع متأرجحا ، وإن كان يميل باستمرار لصالح البرلمان فى معركته مع يلتسن . وفجأة فى ربيع ١٩٩٣ يقوم يلتسن بحركة من حركاته الدراماتيكية . ويعلن أن الأزمة ليست اقتصادية اجتماعية . وإنما هى فى الأساس أزمة دستورية . ذلك أن البرلمان الذى يسيطر عليه الشيوعيون والرجعيون أصبح عقبة

فى طريق الإصلاح ويعوق قيام الرئيس بمهامه (هو نفس البرلمان الذى انتخب يلتسن رئيسا ومنحه سلطات استثنائية) . وأن ذلك راجع إلى أن الدستور القائم يعتبر مؤتمر نواب الشعب (البرلمان الموسع) هو أعلى سلطة فى الدولة دون ضمان أى توازن مع سلطات الرئيس . وطالب بإقرار دستور جديد ، ولو أدى هذا إلى حل البرلمان . ذلك أن كلا من هذا البرلمان وذاك الدستور ، ميراث من العهد السوفيتى الذى جاء العهد الروسى مناقضا له . وحاول فى ذلك أن يلجأ إلى المحكمة الدستورية فى دعواه ضد البرلمان . لكن المحكمة برئاسة فاليرى زوركين ، خذلته .

وإزاء هذا الجمود فى الموقف ، غامر يلتسن باستخدام حقه فى إجراء استفتاء شعبى على قضية إعداد دستور جديد لروسيا ، وعما إذا كان من الأفضل الدعوة إلى انتخابات تشريعية جديدة لبرلمان جديد . وأجرى الاستفتاء بالفعل فى ابريل ١٩٩٣ ، بعد أن فشل الحل الوسط الذى طرح ويقضى بإجراء انتخابات متزامنة لكل من الرئيس والبرلمان معا . وجاءت نتائج الاستفتاء متوازنة ، فقد منحت الرئيس ، وإن كان بأغلبية أقل من المعتاد ، الحق فى الإعداد لدستور جديد . ولكنها فى نفس الوقت ، انتصرت ، وإن كان بأغلبية محدودة أيضا ، لاستمرار البرلمان حتى نهاية مدته الدستورية ومشاركته فى الإعداد للدستور الجديد .

استحكمت الأزمة . ولم يعد لها مخرج منظور ، سواء من خلال مباحثات مباشرة بين الرئيس وقادة البرلمان ، أو من خلال وسيط ثالث مثل رئيس المحكمة الدستورية أو رئيس أساقفة الكنيسة . وأصبح كل طرف متربصا بالطرف الآخر . وذلك فى جو مشحون بالتوتر الاجتماعى والسياسى إلى درجة خطيرة . الكل فيه ضد الكل ، داخل معسكر الرئيس أو حتى داخل معسكر البرلمان الذى بدأت بعض الشروخ تظهر فى وحدته ، حول المسلك الديمقراطى الأفضل للخروج من الأزمة .

وفى لحظة مباغتة أقدم يلتسن على الهجوم . أقال روتسكوى من منصب نائب الرئيس . واتبع ذلك فى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٩٣ ، بإصدار مرسومه الرئاسى الشهير رقم ١٤٠٠ بحل البرلمان وإجراء انتخابات جديدة . وذلك تحت اسم تنقية الديمقراطية الروسية من الفوضى والعقم . وكان قبل ذلك قد زار قيادة القوات المسلحة واطلعها على خطورة الموقف . وردت قيادة

البرلمان وغالبية أعضائه على هذا « الانتهاك الصارخ للدستور » بالاعتصام داخل البيت الأبيض . وانقسمت البلاد طولا وعرضا . وجرت صدامات مسلحة فى شوارع موسكو والأقاليم . وكان من أهمها ما حدث من صدام بين مجموعات مناصرة للبرلمان ومجموعات الحرس التابعة للحكومة أمام مبنى التليفزيون . سقط خلاله عدد من القتلى العسكريين والمدنيين ، يتراوح تقديره بين ألف وخمسمائة وألفى قتيل .

و« حتى لا يجرى المزيد من سفك الدماء ، ويتم إنقاذ روسيا والديمقراطية من الخراب والفوضى » ، أمر يلتسن القوات المسلحة بالتدخل لإنهاء الاعتصام فى البرلمان . وفى يومى الثالث والرابع من أكتوبر ١٩٩٣ ، عمدت بعض القوات بقيادة الماريشال بافل جراتشيف وزير الدفاع ، الذى كان قد أعلن من قبل عن حياد الجيش فى الأزمة بين الرئيس والبرلمان وحرصه على عدم التدخل فى الصراعات السياسية ، إلى قصف البرلمان بمدافع الدبابات . وانتهى الأمر بإنهاء الاعتصام . واستسلام قادة المعارضة وسوقهم مع حسب اللاتوف وروتسكوى إلى السجن . وفى اليوم الخامس من أكتوبر صعد يلتسن إلى كرملين القياصرة ، بوجه جديد ولغة سياسية جديدة ، بعد أن أدى – حسب تعبيره – واجبه نحو الأم روسيا والديمقراطية .

ولكن التراجيديا الروسية ، مع ذلك ، لم تنته .

• الفصل الثامن •

صراع كسر العظم بين الرئاسة والبرلمان

فى الخامس من أكتوبر ١٩٩٣ ، غداة قصف البرلمان بمدافع الدبابات ، دفاعا عن « استمرار واستقامة النظام الروسى الديمقراطى ، وتحصينه ضد أمراض الاعوجاج الشيوعى والفاشى » ، تنفس يلتسن الصعداء . وداخله اليقين بأنه قد تم له القضاء على آخر معارضيه « الأشرار » . وذلك بعد أن القى برسلان حسب اللاتوف رئيس البرلمان ، « الحليف الذى خان العهد » ، وروتسكوى نائب رئيس الجمهورية ، « الشيوعى الذى تخفى فى أردية ديمقراطية » ، وعشرات من النواب ، فى السجون .

صحيح أن ثمن الخلاص من « المعارضة الشريرة » كان داميا وباهظا . لكن الرئيس « الديمقراطى » ، لم يكن أمامه إلا « الخيار العسكرى » لإنقاذ الديمقراطية ، بعد أن استحكمت المعارضة بالبرلمان واعتصمت به ، وراحت تدعو المواطنين للعمل معها من أجل إسقاط « ديكتاتورية » الرئيس « الديمقراطى » .

وصحيح أن « عملية الدبابات الديمقراطية » ، قد هشمت – ضمن ما هشمت – صورة يلتسن المنقذ الديمقراطى لروسيا من الاستبداد الشيوعى وعجز البريستورويكا وفوضى الجلاسنوست ، فى عيون غالبية الروس التى كانت قد افتتنت به ، حتى أن استطلاعات الرأى التى أعقبت العملية ، هبطت بشعبيته – دفعة واحدة – إلى ١٥٪ وحسب . إلا أن جماعة يلتسن ممن بقى حوله من حاشيته ، بالإضافة إلى زعماء حركات الديمقراطيين الراديكاليين ودعاتهم ، من

أمثال فاليريا نوفود فورسكايا وألكسى كيفا وديمترى كيسيلوف وغيرهم ، اعتبروا أن ذلك الانحسار فى شعبية يلتسن ليس إلا مجرد رد فعل عاطفى آنى لن يستمر طويلا .

وكان هؤلاء الديمقراطيون الراديكاليون ، قد انطلقوا قبيل عملية قصف البرلمان بمدافع الدبابات يتحدثون عن الضرورة الأخلاقية لإنقاذ الديمقراطية من براثن البرلمانيين العصاة بالقوة المسلحة .

على سبيل المثال ، كتبت « نوفود فورسكايا » زعيمة حزب الاتحاد الديمقراطى فى صحيفة « موسكوفيسكى كومسومولتس » فى التاسع والعشرين من سبتمبر ١٩٩٣ ، قبل عملية الدبابات بأربعة أيام فقط ، تقول : « .. إننا لم نقضى تماما على الشيوعيين فى أغسطس ١٩٩١ . هؤلاء الذين يستحيل التعايش السلمى معهم .. لقد انبعثوا من جديد وتكاثروا .. وإذا لم نبادر الآن بالقضاء على مجالس السوفيتيات (البرلمانات) ، فإنها الكارثة . ولو أننا وطدنا أنفسنا على التعامل مع آكلى لحوم البشر ذوى الأعلام الحمراء بالعصا ، لما كانوا قد عادوا يسممون حياتنا اليوم . يجب القضاء على ما يسمى بالمجالس الشعبية فى كل المستويات . ويجب أن تنطلق فصائل القوزاق فى الشوارع ترد بالنار على كل علم أحمر يرفع .. »

وراحت هذه الجماعات الديمقراطية الراديكالية ، بعد قصف البرلمان واعتقال زعمائه ، تعزف على نغمة أن الروس شعب طيب ، ملتهب العواطف . تتأجج مشاعره مع كل حدث عنيف من النقيض إلى النقيض . ينتقل من العشق حتى الموت ، إلى الكراهية حتى الموت أيضا ، إلى العشق مرة أخرى ، فى لحظة واحدة . غير أنه يبقى هو نفس الشعب الذى أضناه البحث عن ذلك المخلّص له من العذابات ، حتى عثر عليه فى شخص يلتسن وسياساته . ويظل هو ، ولا أحد غيره ، « المسيح المخلّص » الذى هبط ذات يوم من الأورال إلى موسكو . وكان هو ، ولا أحد غيره ، الذى اقتحم منذ عام ١٩٨٨ ، معبد الحزب وقلب موائده على الشيوعيين الذين عاثوا فى روسيا ، قهرا وظلما وفسادا . وخرج إلى الشارع ، هرقلا ، يصارع أعداء الديمقراطية والسوق وتحرير روسيا ، فيهزمهم جماعة وفرادى . من ليجاتشيف و « كرادلة المكتب السياسى » ، إلى ياناناييف وعصبة انقلاب أغسطس ١٩٩١ ، إلى جورباتشوف وجوقة البريستورويكا وأخيرا حسب اللاتوف وروتسكوى وجماعة البرلمانيين العصاة فى خريف ١٩٩٣ .

ولم يكن صدفة أن يسارع الغرب الديمقراطي في أمريكا وأوروبا ، باستثناء مجموعات محدودة في برلمانات عدد من البلاد الأوروبية ، إلى مساندة الرئيس الديمقراطي لروسيا في اضطراره إلى استخدام القوة ضد المتمردين من البرلمانيين ، دفاعا عن الدستور والديمقراطية الوليدة ، وقطعا للطريق على مخاطر الحرب الأهلية التي أخذت تتراكم داخل مجتمع أكبر بلد نووي في العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية .

باختصار ، على امتداد زمني لا يزيد على خمسة أعوام وحسب من « النضال » (١٩٨٨ - ١٩٩٣) اخترق يلتسن كل الحواجز ، في صلابة السهم الذهبي ، تباركه العناية الإلهية والديمقراطيون في العالم . تشحنه روح روسيا المقدسة . وتحتضنه الجماهير العطشى للحرية والحياة . يدك طواغيت الشيوعية ويخلص روسيا من براثين الاتحاد السوفيتي . إنها المعجزة إذن ! وما كان لها أن تتحقق إلا بقدر حتمي من استخدام « القوة الخيّرة » ، حتى ولو سقط من حولها بعض الأبرياء . ذلك أن الديمقراطية لا تبنى من خلال دستور وبرلمان في المطلق . وإنما بدستور وبرلمان روسيين في الشكل والمضمون ، جنبا إلى جنب مع زعيم أسطوري ملهم ، قوي الشكيمة تتجسد فيه روح الأمة ، ابنا حانيا بارا ، وأبا عظيم المراس ، في نفس الوقت .

وهكذا ، أخذ الخطاب السياسي والإعلامي لجماعة يلتسن ، بعد حركة الدبابات الديمقراطية ، يستعير مفرداته من خطاب تأليه القيصر ومن خطاب عبادة الفرد الستالينية ، معا .

ومع ارتفاع نغمة هذا الخطاب ، راحت تتردد ، لأول مرة في الساحة المسكوفية ، أوصاف ساخرة ليلتسن ، تتحدث عن « قيصر الديمقراطية » ، « وستالين الجديد على الطريقة الليبرالية » . وبدأ الشارع الروسي يمتلىء بعلامات الاستفهام حول ديمقراطية يلتسن وقدراته على الإصلاح والإنقاذ .

بيد أن يلتسن وجماعته لم ينزعجوا كثيرا . كانت لهم تدبيرات ومخططات أخرى ، حول ترميم ما انكسر واستعادة الثقة من جديد . وذلك من خلال انفرادهم بإعادة ترتيب البيت ، بعد أن تم تغييب ، أو على الأقل ، تحجيم كل المعارضات إلى أقصى حد .. وحتى « زوركين » رئيس المحكمة الدستورية ، المحصن ضد العزل ، جرى التخلص منه بالحصار الإداري والمالي وبالضغوط المرئية وغير المرئية ، التي انتهت باستقالته . وحرص النظام على أن يظهر الاستقالة في شكل

العقاب الرادع لرئيس المحكمة الدستورية الذى امتنع عن إضفاء الشرعية على ما أسماه « تعديات الرئيس على الدستور » .

وكانت المقولة الأساسية التى تحكم حركة جماعة يلتسن منذ بدأ صراع كسر العظم بين مؤسسة الرئاسة وبين البرلمان ، تتمثل فى أن الشعب فوض يلتسن تفويضا تاريخيا – غير مشروط – بإنقاذه ، أيا كان الثمن وبأسرع وقت ممكن ، من الاستبداد الشيوعى . وإقامة نظام ديمقراطى قوى ومستقر يفتح الطريق أمام الحرية والإصلاح الاقتصادى . وأنه مادام التفويض هو على هذا النحو الشامل والعميق ، فلم يعد من حق يلتسن أن يسمح بإغراق البلاد فى « الثرثرات البرلمانية الفارغة » . أو يتوقف هنا أو يتردد هناك ، أمام شكليات القانون وشروطه . ذلك أن القضية الحقيقية ليست أن تكون ، فى هذه اللحظة التاريخية المعقدة ، مع القانون أو ضده . وإنما هى فى التحرك بمنظور أن « إرادة الشعب أعلى من كل قانون » . خاصة إذا كان هذا القانون قد سن على أيام الاتحاد السوفيتى والبريسترويكا . وليس هناك غير « الرئيس المفوض » الذى يحق له تفسير رأى الشعب فى تجاوز القانون ، من أجل بناء النظام الجديد .

نشطت جماعة يلتسن ، فى ضوء هذه المقولة ، لإعادة تنظيم البيت الروسى بعد عملية الدبابات الديمقراطية ، من حول سلطات الرئيس المفوض تاريخيا . وذلك ببناء نظام ديمقراطى متعدد السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، لكنه فى نفس الوقت ، لا يقيد أو يحد من دور الفرد التاريخى المفوض من الشعب ، رئيسا وزعيما .

استخدمت جماعة يلتسن فى حركتها لإعادة بناء النظام ، أربع أدوات رئيسية . وكان فى مقدمة هذه الأدوات ، **الدستور الجديد** ، الذى صاغ مشروعه الجمعية الدستورية التى أنشأها يلتسن ، ووافق عليه الشعب – بأغلبية ضئيلة – فى استفتاء أبريل ١٩٩٣ ، والذى ركز يلتسن فى خطابه إلى الشعب فى السادس من مايو ١٩٩٣ على أن التوجه الرئيسى لهذا الدستور الجديد هو « أن النظام الرئاسى وحده هو القادر على إقامة سلطة فعالة فى دولة متعددة القوميات مثل روسيا » .

غير أن الديمقراطية المتعددة الأحزاب ، ولو كانت فى إطار نظام رئاسى ، تستلزم إجراءات انتخابية تشريعية . وفى هذا الصدد بلورت جماعة يلتسن أداتها

الثانية فى بناء النظام على مقاسها . وذلك **بسن قانون جديد للانتخابات** بمرسوم صادر عن الرئيس نفسه . وفى هذا القانون نص على شرعية الانتخابات بمشاركة ربع عدد الناخبين المقيدين بالجداول . وذلك بعد أن كانت النسبة فى القانون القديم تشترط ٥٠٪ على الأقل . واشترط القانون الجديد أيضا على الحزب الذى يشارك فى الانتخابات أن يقدم قوائم بتوقيعات مائة ألف مواطن تزكية لذلك . وتخضع هذه القوائم لتحقيق « لجنة تنظيم الانتخابات » التى عينها الرئيس نفسه . وذلك بهدف تضييق الخناق على الأحزاب والعناصر المعارضة ، حتى ولو كانت من قبل منضوية فى فريق الرئيس أو تحت عباءته .

أما الأداة الثالثة ، فكانت **تكوين تكتل سياسى جديد** ، يضم ائتلافا للأحزاب والقوى التى ساندت سياسة ومواقف الرئيس يلتسن فى استفتاء الخامس والعشرين من أبريل ١٩٩٣ ، ضد معارضيه فى البرلمان والمجتمع . وهو التكتل الذى أنشىء فى الأول من يونيو ١٩٩٣ بزعامة « ايجور جيدار » ، رئيس رابطة المؤسسات الخاصة . ومهندس الإصلاح الاقتصادى بالتحول عن الاشتراكية إلى الرأسمالية بأسلوب الصدمات والذى تولى رئاسة الحكومة فترة ، قبل أن يضطر يلتسن تحت ضغط المعارضة ومظاهرات الجوع إلى إقالته فى ديسمبر ١٩٩٢ . ثم إعادته فى سبتمبر ١٩٩٣ ، نائبا لرئيس الوزراء فى حكومة تشيرنوميردين ، عند ذروة احتدام أزمة يلتسن مع البرلمان منذ الربع الأول من عام ١٩٩٣ . وضم التكتل الذى مثل فى الحقيقة مصالح ما لا يزيد على ٣٪ من الشعب الذين باتوا يحصلون على ما لم يقل عن ٣٠٪ من مجموع الدخل الوطنى ، حركة روسيا الديمقراطية بزعامة ليف بونوماريوف ، وحزب الحرية الاقتصادية بزعامة قسطنطين بوروفوى ، ورابطة المشاريع والتعاونيات الزراعية بزعامة باشما تشينكوف ، ورابطة التعاونيين ورجال الأعمال بزعامة فيتشلاف تيخونوف ، وجماعات الديمقراطيين الراديكاليين بزعامة سيرجى يوشينكوف ، وحركة العسكريين من أجل الديمقراطية بزعامة سميرنوف ، واتحاد المدافعين عن روسيا الحرة ، بالإضافة إلى عدد من الشخصيات التى عرفت باسم « صبيان يلتسن » وتولت مناصب رئيسية فى ديوانه وحكومته من أمثال كاسباروف وبيوتر فيليبوف وشوميكو .

ولد « خيار روسيا » عملاقا كما يقال فى أدبيات الدعاية الساخنة . وضخت فيه أموال وإمكانات مادية ضخمة . بعضها معروف المصادر من « الروس

الجدد » ، وبعضها غير معروف المصدر . وأصبح التكتل يسيطر على جريدتى « روسكايا جازيت » و « روسيسكيه فيستى » وعدد من البرامج التليفزيونية . وبات له ، فى مدة وجيزة ، أكثر من عشرين فرعا فى الأقاليم . وكان معروفا للجميع أن « خيار روسيا » هو حزب الرئيس الذى نال بركته . وقرر أن يخوض به معركة الانتخابات التى تقرر إجراؤها فى الثانى عشر من ديسمبر ١٩٩٣ . وقد تسلح بالقدرات التى تمكنه من اكتساحها وضمان أغلبية ساحقة أو على الأقل مريحة جدا للرئيس ، مع انكماش المعارضة فى حيز ضيق لا وزن له .

تبقى الأداة الرابعة ، الأهم والأخطر ، التى عنيت جماعة يلتسن باستخدامها . وهى **العمل المبكر على ترجمة ما نص عليه الدستور من صلاحيات واسعة للرئيس ومؤسسة الرئاسة** ، حتى من قبل إجراء الانتخابات ، بما يضع بقية المؤسسات أمام الأمر الواقع .

فى هذا الإطار تورمت مؤسسة الرئاسة على نحو غير طبيعى فى نظام ديمقراطى ، بما ضم إليها من مؤسسات وأجهزة وإمكانيات ، أصبحت رهن التصرف الفردى المطلق من الرئيس ، دون أدنى مساءلة أو رقابة من أحد .

وتتجسد مؤسسة الرئاسة فى أكثر من محور . فى مقدمة هذه المحاور « ديوان الرئيس » الذى يضم إدارات متعددة خاصة بالتفتيش والرقابة والعلاقات مع الجمهوريات والمناطق الداخلة فى الاتحاد الروسى والشئون القانونية . وقد صممت هذه الإدارات بحيث لا يكون هناك مؤسسة أو كيان أو مكان ما فى روسيا ، لا تصل إليه يد الرئيس القوية ، عندما يشاء . وبجانب هذا أصبح ديوان الرئاسة يتحكم فى ، ويدير وحده ، ثروة ضخمة تتمثل فى جميع ممتلكات الحزب الشيوعى المصادرة من مقار ومؤسسات ومطابع ومساكن ومستشفيات ومصحات وأماكن للراحة والاستجمام الخ .. أنشىء من أجلها ، داخل الديوان ، هيئة تحت اسم « إدارة شئون الأعمال » ، يصب ريعها فى يد الرئيس ، يتصرف فيه كما يشاء .

والمحور الثانى فى مؤسسة الرئاسة هو « مكتب الرئيس » . وقد ألحق به غالبية أجهزة المخابرات التى كانت تعرف سابقا باسم الـ « ك .ج . ب » (K.G.B.) . وتضم المخابرات الخارجية والأمن الداخلى ، وما كان يسمى بالقسم التاسع من المخابرات . وهو القسم الذى كان يعنى بحراسة وأمن قيادات الحزب والدولة . وتحول القسم إلى « الإدارة العامة للحراسات » . وأصبح يضم قوات

عسكرية متميزة ، مثل الفرقة ٢٧ مشاه الية للمهمات الخاصة ، والفرقة ١١٩ مظلات ، وقوات « ألفا » لمكافحة العمليات الإرهابية ، والوكالة الاتحادية للاتصالات الحكومية والمعلومات . وأخيرا ما صار يسمى « بفوج الرئيس » . ويقصد به المجموعة العسكرية المدربة تدريبا عاليا ، وتهتم بحراسة الرئيس وأمنه . وتتكون من أربعة آلاف جندى وضابط بقيادة « ألكسندر كورجاكوف » الذى كان رائدا فى القسم التاسع للمخابرات وعين حارسا لبوريس يلتسن عندما صعد لعضوية الاحتياط فى المكتب السياسى للحزب الشيوعى . وعندما سحبت هذه العضوية من يلتسن عام ١٩٨٨ ، استقال كورجاكوف من المخابرات ، وبقى مسئولا عن حراسة يلتسن بصورة شخصية . وتوطدت الصداقة بينهما لدرجة عميقة ، ووصفه يلتسن فى مذكراته بأنه صار أقرب الأصدقاء إليه وأكثرهم وفاء له وفهما لسياسته وفكره ، وأنه يتمتع بعقل منظم وجسارة منقطعة النظير . وبقى « كورجاكوف » ملازما ليلتسن كظله منذ ذلك الوقت . وجليسه ونديمه فى الجلسات الخاصة الحميمية ، وموضع سره . واكتسب كورجاكوف بذلك نفوذا هائلا . كل من اصطدم به ، حتى ولو كان من الدائرة الضيقة المقربة من يلتسن ، سقط . ورقّاه يلتسن إلى رتبة الجنرال . وصار يتحدث باسم الرئيس إلى جميع المسئولين . ويعبر عن فكره وإرادته . ويكون لنفسه مركز قوة خاصا داخل النظام . وبات يلقب ، نتيجة ما عرف له من تأثير كبير على يلتسن ، باسم « الجنرال راسبوتين » .

ومن المحاور الأخرى التى يقوم عليها هيكل مؤسسة الرئاسة ، أجهزة متخصصة ذات وزن فى توجيه السياسات وتنفيذها ومراقبتها فى جميع المجالات ، مثل « المجلس الرئاسى لمستشارى الرئيس » . و« مجلس الأمن القومى » . ومجموعة مراكز الأبحاث وتحليل السياسات والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية . و« المكتب العسكرى » ، الذى يعنى مركزيا بالشئون الرئيسية للقوات المسلحة ، ويتولى إدارة أجهزة الاتصال المباشرة بين الرئيس كقائد أعلى وبين قادة القوات ، دون المرور بوزارة الدفاع .

والدستور الجديد ، بعد هذا كله ، حرص على أن يوفر للرئيس صلاحيات وسلطات خارقة للعادة ، إزاء السلطات التشريعية : البرلمان الذى استعاد اسم « الدوما » القيصرى ، ومجلس الاتحاد الفيدرالى ، والقضائية . وذلك بحيث لا يحتاج الرئيس ، فى أى وقت وعند نشوب أىِ أزمة ، أن يلجأ إلى البرلمان

فى طلب منحه سلطات استثنائية . والمفتاح الجوهرى لذلك هو كما نصت عليه المادة الثمانون من الدستور بأن الرئيس هو وحده « الضامن لدستور الاتحاد الروسى ولحقوق وحريات المواطنين » . و« الحامى لسيادة الاتحاد الروسى واستقلاله ووحدته كدولة » . و « الكفيل بالأداء المتسق وعلاقات التفاعل بين هيئات سلطة الدولة » . وهو الذى « يحدد الاتجاهات الأساسية لسياسة الدولة الداخلية والخارجية » .

بعد كل هذه التمهيدات والاستعدادات والضمانات ، جاءت الانتخابات فى الثانى عشر من ديسمبر ١٩٩٣ ، لتمنح النظام الذى جرى بناء أسسه وملامحه بأيدى « صبيان يلتسن » ، اللمسة الديمقراطية .

ولكن تقديرات جماعة يلتسن كانت على عكس النتائج الواقعية الصاعقة ، التى أسفرت عنها الانتخابات .

وكانت ذروة الصاعقة فى أن « خيار روسيا » - حزب الرئيس - الذى تزعمه ايجور جيدار ، والذى كان مخططا له أن يعود رئيسا للحكومة بعد الانتخابات ليواصل سياسة الإصلاح بالصدمات ، لم يستطع أن يفوز بأغلبية كاسحة أو حتى مريحة ، وحسب ، وإنما حصل - كما أعلن فى البداية - على ١٥٪ فقط من أصوات الناخبين . وجاء بالتالى فى المرتبة الثانية ، بالنسبة لحزب « المفاجأة » القومى اليمينى المعروف باسم « الحزب الليبرالى الديمقراطى » بزعامة فلاديمير جيرينوفسكى . وقد صعد هذا الحزب وزعيمه الغريب الأطوار والأقرب فى سلوكه إلى البهلوان السياسى من مخزون السخط والعبثية فى أعماق الجماهير المطحونة الجائعة ، ليحصل على ما يقرب من ٢٤ ٪ من الأصوات ، ويصير بذلك الكتلة الأولى فى برلمان « الدوما » .

وتتوالى مفاجآت الدوما باحتلال « الحزب الشيوعى الروسى » بزعامة جينادى زوغانوف المرتبة الثالثة بين الكتل البرلمانية . وذلك بفوزه بما يزيد على ١٢٪ من الأصوات . ويتعزز مركزه ، كمعارضة يسارية ، بحصول الحزب القريب منه وهو « الحزب الزراعى الروسى » تحت زعامة ميخائيل لابشين ، على ٨٪ من الأصوات .

وخسرت حركات وأحزاب ديمقراطية راديكالية أخرى موالية للرئيس ، إمكانية أن تتمثل فى البرلمان ، حيث إن أيا منها فشل فى الحصول على نسبة الـ ٥٪ من أصوات الناخبين ، كحد أدنى .

ثم حدثت المفاجأة المزعجة بعد اكتمال حساب كسور الأصوات . وذلك بصعود الحزب الشيوعى الجديد إلى المرتبة الثانية بين الكتل النيابية بنسبة ١٥٪ من الأصوات . وهبوط حزب « خيار روسيا » إلى المرتبة الثالثة بعد أن تأكد أن نسبته من الأصوات لا تتجاوز ١٤٪ وحسب .

وهكذا دارت الدائرة . وعادت المعارضة فى ديسمبر ١٩٩٣ بالدوما ، البرلمان الجديد ، أقوى مما كانت عليه فى برلمان مجلس السوفيت بالبيت الأبيض ، الذى قصف بمدافع الدبابات فى أكتوبر ١٩٩٣ . واشتعل الصراع مرة أخرى فى ظروف جديدة . صار معها يلتسن ، رئيسا ، هو « الأقوى » بسلطاته وصلاحياته ، ولكنه « الأضعف » ، عن أى وقت فى تاريخه السياسى ، شعبيا وبرلمانيا . ويعود السؤال ملحا بقوة : يا روسيا المعذبة ، إلى أين ؟ .

• الفصل التاسع •

الرئيــس الامبـراطــور

مع حلول عام ١٩٩٤ ، غير النظام الروسى جلده السياسى . أصبح له برلمان جديد باسم « الدوما » [عودة إلى ذات الاسم فى العهد القيصرى] بدلا من البرلمان الذى دكته مدافع الدبابات فى أكتوبر ١٩٩٣ ، وكان يعرف باسم مجلس السوفيت ومؤتمر نواب الشعب [وهو مزيج من تقاليد الاتحاد السوفيتى وإصلاحات البريستورويكا] . وصار له ، أيضا ، دستور جديد كرّس النظام الرئاسى للدولة . ومنح الرئيس سلطات واسعة بلا حدود تقريبا ، حتى يستطيع أن ينقذ البلاد من محنتها دون معارضات « وثرثرات برلمانية فارغة » .

لكن روسيا باتت – فى الواقع – أكثر عذابا وتعاسة . وأكثر بعدا عن الاستقرار والديمقراطية . شاخ مبكرا ذلك الأمل فى مستقبل أفضل من كل الماضى البعيد والقريب ، القيصرى والشيوعى والبريستورويكى ، الذى ظل يلتسن بشعبيته الجارفة ، ينفخ فيه مع جماعاته التى انقسمت على نفسها وتصارعت حول النفوذ والمصالح . ويلونه بين آن وآخر بألوان قوس قزح . غير أن الأمل ذبل وتكوم تحت جدران الكرملين ، يعانى سكرات الموت ، بالرغم من التعهدات الغربية بتسهيلات كبيرة وعون سخى .

ارتفعت ديون روسيا ، رغم ثراء البلد غير العادى بالموارد الطبيعية والبشرية والصناعية والتكنولوجية ، إلى ما يزيد على ثمانين مليار دولار .

فى ختام السنوات الثلاث الأولى من حكم يلتسن (١٩٩٢ – ١٩٩٤) جرى استنزاف ما قيمته مائة مليار دولار من الثروة الوطنية إلى الخارج . وأصبح معدل

تهريب الأموال إلى أمريكا وأوروبا ، يتراوح بين مليار ومليار ونصف المليار من الدولارات شهريا .

تدنت الطاقات الإنتاجية ، فى مختلف المجالات بنسبة تقدر بين ٤٠٪ و٤٥٪ عما كانت عليه عام ١٩٩١ ، آخر سنة فى عمر الاتحاد السوفيتى .

عملية الخصخصة العشوائية لمؤسسات القطاع العام ، التى قادها أناتولى تشوبايس ، الديمقراطى الراديكالى ، فى ظل أسلوب الإصلاح الاقتصادى بالصدمات ، أنهكت الاقتصاد الوطنى وأربكته . وفتحت الأبواب واسعة لاحتلابه ، وتعاظم إفقار الشعب والإلقاء بآلاف العمال ، كل شهر ، فى هوة البطالة .

اتفقت كتابات وتعليقات عدد من الاقتصاديين والسياسيين من مختلف الاتجاهات القومية اليمينية والشيوعية اليسارية والوسط الديمقراطى على أن « .. نهب ملكية الشعب أدى إلى فرز اجتماعى متزايد فى بشاعته . وخسارة اقتصادية هائلة تعادل خمسة أضعاف خسائر الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية مع ألمانيا النازية » . وسلط عدد من الاقتصاديين والتكنوقراط الأضواء على نموذج صارخ لمثل هذه الخصخصة ، يتمثل فى أحد المصانع الكبيرة الخاصة بانتاج الآلات الميكانيكية من جرارات زراعية وغيرها . إذ تم بيعه لمجموعة من الروس الجدد والأجانب ، على أساس التقويم الدفترى له بقيمة عشرة ملايين دولار فى حين أن التقويم الواقعى له لا يقل عن مليارى دولار . وذلك بشهادة خبراء مجموعة مستثمرين منافسة ، ولكنها أقل نفوذا فى دوائر السلطة . داخت الحقيقة وتاهت بين الملايين وبين المليارات . فى حين أن أقصى حلم للمواطن العادى أن يصحو فجأة فيجد دخله الشهرى قد ارتفع من ثلاثة إلى عشرة دولارات .

تضافر إطلاق سياسة الخصخصة العشوائية ، والمضاربة ، وإيقاف الدعم المالى لمعظم مؤسسات القطاع العام ، وانفلات الأسعار دون أية رقابة أو قيود ، والارتفاع المتوالى فى نسبة التضخم ، ضمن إطار سياسة العلاج بالصدمات ، إلى جانب شيوع الفساد ، رأسيا وأفقيا على السواء . لكى يشترى المواطن العادى تذكرة قطار أو طائرة عليه أن يدفع « أتاوة ضمان » فوق السعر المقرر لموظفى حجز التذاكر الصغار . أما صفقات الاستيراد أو شراء مؤسسة عن طريق الخصخصة ، أو الحصول على قطعة أرض لبناء مشروع أو فندق ، فإن هناك نسبة معينة تتراوح بين ١٥٪ و٢٠٪ على الأقل ، تضاف إلى قيمة الصفقة ، تدفع

إلى كبار المسئولين مقابل إتمام الصفقة . وكل كبير له بالضرورة سماسرته ومفاتيحه . والمثال الذى يجسد هذه النوعية من الكبار ، هو « جفريل بوبوف » الذى تمكن من خلال احتلاله لمنصب عمدة موسكو لفترة قصيرة لا تزيد على السنتين ، من أن يصبح فجأة واحدا من أغنى أغنياء « روسيا الديمقراطية » . ويترك منصبه ليغدو رجل أعمال كبيرا ، بعد أن خاض بجانب يلتسن معاركه ضد جورباتشوف وضد معارضيه فى البرلمان ، الذى حل وضرب بالمدافع بقرار من الرئيس فى أكتوبر ١٩٩٣ .

وبوبوف هو أحد أبرز ممثلى طبقة الروس الجدد ، التى أفرزتها سياسة الإصلاح بالصدمات . وترجح التقديرات أنها تمثل ٣٪ على الأكثر من الشعب ، تستولى على ما لا يقل عن ٣٠٪ من الدخل الوطنى ، وتسيطر على حركة ٧٠٪ من أموال البنوك . وتحتل مراكز رئيسية فى السلطة ، سواء كوزراء أو مسئولين ومستشارين فى ديوان الرئاسة .

فى مقابل هذا تتسع باطراد دوائر الفقر لتشمل بجانب العمال ، الموظفين الإداريين والمهنيين فى المصالح الحكومية ومؤسسات القطاع العام . وتنهار شبكة الخدمات . وتسجل إحصاءات الدولة الرسمية انخفاض متوسط عمر المواطن بمقدار ثلاث سنوات عما كان عليه فى زمن الاتحاد السوفيتى . وكذلك زيادة نسبة وفيات الأطفال بنسبة ١٧٪ وذلك نتيجة سوء التغذية العام من ناحية ، وافتقاد الحدى الأدنى من الخدمة الصحية المجانية من ناحية أخرى .

ويتفاقم حجم الأزمة الاقتصادية والاجتماعية نتيجة نزوح ما يربو على خمسة ملايين روسى إلى روسيا ، من جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابقة التى كانوا يعملون ويعيشون فيها ، والكثير منهم ولد على أراضيها . وذلك كرد فعل للمشاكل السياسية - الأمنية التى ثارت بين هذه الجمهوريات التى استقلت وبين روسيا التى تلوح بقبضتها بين وقت وآخر . والمتوقع أن ترتفع هذه الهجرة إلى حوالى عشرين مليون روسى فى غضون السنوات الثلاث القادمة ، يطلبون أعمالا ومساكن ومدارس ومستشفيات الخ .. ويؤججون بالتالى من حركات السخط والمعارضة فى المجتمع .

تصاعدت ظاهرة الجريمة المنظمة فى روسيا إلى درجة مذهلة ، وأصبح لها أمراء يتحكمون فى مافيات منظمة مسلحة بأحدث الأسلحة ، تغلغلت فى دوائر

الأمن والقضاء والجمارك . تتغذى من رصيد الـ ٨٠٠ ألف ضابط وجندى الذين يجرى تسريحهم من القوات المسلحة ، التى يقلص عددها ، وفقا لمتطلبات الاصلاح الاقتصادى ، إلى مليون ومائتى ألف مقاتل ، بعد أن كانت تربو على مليونين من الجنود والضباط . وتتمتع المافيات بغطاء واسع من كبار رجال الدولة . وحسب تقديرات مرجحة ، فإن هذه المافيات سخية فى عطائها إلى حماتها وعملائها ، لدرجة أنها تخصص لهم ما يقرب من ٤٠٪ من إيراداتها . وكان روتسكوى نائب الرئيس ، قبل أن يعزله يلتسن قد حذر من هذه الظاهرة فى بداياتها . وضبط وحقق ، باعتباره المكلف بملف الفساد والجريمة عددا من القضايا ، وكان بعض المتهمين فيها ينتسبون إلى حاشية يلتسن أو المتصلين به عن قرب . والواقع أن تحرك روتسكوى فى هذا الاتجاه ، كان واحدا من أهم الدوافع التى دفعت بالحاشية أن تؤلب يلتسن على نائبه ، وتصوير حركته بأنها لا تعنى تنظيف النظام من الفساد والجريمة كما يدعى ، وإنما تستهدف الإساءة إلى سمعة يلتسن الشخصية أمام الشعب لصالح المعارضة . وهكذا أوقفت التحقيقات والمطاردات بأمر رئاسى .

استشرت المافيا فى البلاد ، حتى طالت كل ميدان ، من البنوك والشركات ورجال الأعمال الكبار والصغار ، وحتى الأفراد ، روسا وأجانب على السواء . وحسب تقديرات رسمية صادرة عن وزارة الداخلية فإنه خلال عام ١٩٩٣ ، تعرض للاعتداء المباشر ٦٨٧ أجنبيا فى موسكو وحدها ، بينهم سفراء ورجال أعمال . وقدر عدد المنظمات الإجرامية بـ ٧٥٠٠ منظمة ، بينها منظمات قوية ذات شبكات دولية تمتد إلى ٢٩ دولة ، منها الولايات المتحدة الأمريكية وبلدان أوروبا الغربية وخاصة ألمانيا وفرنسا وبريطانيا . وعقدت المافيا الروسية اتفاقات تعاون مع مافيا المخدرات فى كولومبيا بأمريكا اللاتينية ، والمافيا الإيطالية العتيدة . وذلك من خلال مؤتمرين سريين ، رصدتهما المخابرات الأمريكية وأخطرت بهما السلطات الروسية ، الأول خلال عام ١٩٩٣ فى براغ ، والثانى فى عام ١٩٩٤ فى وارسو . وتميزت المافيا الروسية بأسلوبها الدموى الكاسح ، الذى تبدو معه دموية المافيا الإيطالية ، على حد تعبير « الكسى بيلدوف » نائب رئيس التحقيقات الجنائية الروسية ، مجرد مدرسة حضانة لأطفال صغار . وأدخلت المافيا الروسية فى نشاطاتها ، لأول مرة فى التاريخ ، الإتجار بالمواد النووية من يورانيوم وزئبق وماء ثقيل الخ .. مع استعدادها لتوريد خبراء فى تشغيل هذه المواد ، لمن يرغب من الدول أو الجماعات الإرهابية . الأمر الذى

أنزل الرعب بالعالم وخاصة الولايات المتحدة وأوروبا . وتكثفت الضغوط الدولية على يلتسن ، الذى بدأ يرتاع من تحول المافيا إلى أخطبوط يمسك بمراكز أساسية فى الدولة والمجتمع ، لكى يقبل المشاركة فى خطة دولية لمكافحة المافيا الروسية . واستجاب ، فى هذا الصدد ، لطلب واشنطون فتح مكتب فرعى لجهاز التحقيقات الفيدرالية الأمريكى فى موسكو . وفى الثالث من يونيو ١٩٩٤ ، اضطر يلتسن ، تبريرا لفتح المكتب الأمريكى ، إلى الإعلان فى صحيفة « موسكو تريبيون » بأن « روسيا أصبحت دولة عظمى للجريمة » .

لكن لا شىء ، فت من عضد المافيا أو حد من نشاطها المحلى والدولى ، ذلك أنها أحد الإفرازات الموضوعية للنظام السياسى والاجتماعى المشوه لروسيا الليبرالية بقيادة فردية دكتاتورية ، فهى صارت مصدر رزق إضافى وضرورى لملايين من الموظفين الصغار والكبار فى كل روسيا ، ومظلة حماية لآلاف من المؤسسات الخاصة ورجال الأعمال ، لا تستطيع الدولة أن توفرها . وتلجأ إليها بعض العناصر النافذة فى أجهزة السلطة لترويع وتأديب وعقاب منافسيها أو معارضيها أو أصحاب الأقلام الناقدين لها والكاشفين لعوراتها . وفى النهاية أصبح لها ممثلون لهم صوت عال فى الساحة السياسية داخل السلطة وخارجها من أحزاب وصحافة وتليفزيون . وباتت – بالتالى – جزءا لا يتجزأ من النسيج السياسى والاجتماعى للنظام . ولعله هنا فقط ، حول خطر المافيا ، تتبلور نقطة التقاء بين المعارضة الروسية وبين القوى الغربية ، المساندة تقليديا لنظام يلتسن . وهو ما ظهر فى حرص الرئيس الأمريكى الراحل ريتشارد نيكسون خلال آخر زيارة له إلى موسكو على لقاء ألكسندر روتسكوى ومناقشة قضايا الفساد والجريمة والمافيا معه ، مما أثار غضب يلتسن الشديد واحتجاجه .

ظل الخطاب السياسى والإعلامى لجماعة يلتسن ، يلح على أذهان الناس فى روسيا بأن البلاد فى تحولها من النظام الاشتراكى الاستبدادى إلى النظام الرأسمالى الديمقراطى تحتاج بشدة إلى المساعدة المادية من الغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية . وأن الغرب قرر بحسم أن لا سبيل إلى تقديم العون إلا لنظام يرأسه يلتسن « المضمون فى ديمقراطيته وفى التحول نحو اقتصاديات السوق » . والدليل على ذلك أن الغرب لم يقدم أى معونة لها وزن لنظام جورباتشوف ، رغم وعوده المتكررة . ولكن بمجرد أن تولى يلتسن السلطة فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى وسقوط جورباتشوف ، سارعت مؤسسات

الغرب ، ابتداء من مجموعة الدول السبع الأغنى فى العالم ، وحتى البنك الدولى وصندوق النقد الدولى ، إلى الاعلان عن دعم كبير لنظام يلتسن قيمته أربعة وعشرون مليار دولار .

بقى الروس ينتظرون هذا العون ، بيد أنه لم يأت منه إلى موسكو حتى نهاية عام ١٩٩٤ ، غير ٨٠٠ مليون دولار ، وحسب . وتعلل الغرب بأن عدم الاستقرار السياسى وشيوع الفساد والجريمة ، وسيطرة البيروقراطية ، والإخلال بنصائح واقتراحات البنك الدولى وصندوق النقد الدولى ، هى الأسباب الحقيقية وراء عدم ضخ العون المقرر إلى روسيا . وليس من المحتمل أن يفى الغرب بوعوده ، على الأقل ، فى المدى المنظور . ذلك أن بعض التصريحات الغربية المسئولة أصبحت تتحدث عن أن المشكلة فى عون روسيا لا تتأتى وحسب من عدم تجاوب النظام مع ما هو مطلوب من المؤسسات الدولية ، وإنما أيضا من المشاكل الاقتصادية التى باتت تعانيها مجموعة الدول السبع الغنية نفسها ، وتحد من قدراتها على الوفاء بقيمة هذه المعونة الكبيرة .

يجرى هذا ، فى الوقت الذى راح يلتسن يركز على معزوفة أن روسيا الديمقراطية غدت شريكا للغرب فى السراء والضراء . وتبدو معه سياسة روسيا الخارجية ظلا تابعا للسياسة الغربية عامة والأمريكية خاصة . تلتزم بخطوطها الرئيسية . وعندما حاولت ، أن تبدو على شىء من الاستقلال النسبى فى بعض الجزئيات ذات الصلة المباشرة بالمصالح الروسية ، مثل الموقف من العقوبات المفروضة على العراق أو ليبيا ، أو محادثات السلام الإسرائيلية – الفلسطينية ، أو الاستمرار فى تسليح سوريا إزاء استمرار تسليح الولايات المتحدة لإسرائيل ، أو وضع شروط لصالح روسيا إزاء انضمام الجمهوريات السابقة فى الاتحاد السوفيتى إلى حلف الناتو تحت اسم المشاركة فى تأمين السلام الخ .. فإنه جرى محاصرة هذه المحاولات الاستقلالية وإجهاضها عمليا .

وتتهم المعارضة « اليمينية – اليسارية » التى تضم فى الأساس القوميين والشيوعيين الجدد ، النظام بأنه يعطى الغرب كل ما يطلبه من روسيا مقابل وعود سرابية . ويدللون على ذلك بأن روسيا تكاد تفقد السوق الرئيسية لسلاحها وهى سوق الشرق الأوسط . فقد انخفضت مبيعات السلاح الروسى فيه من ٣٤٪ إلى ٥,٥٪ من مجموع احتياجات المنطقة . فى حين ارتفعت مبيعات السلاح الأمريكى لتصبح ٥٧٪ . كذلك فإن روسيا تنازلت طوعيا عن ورقة ضغط هامة على الغرب

عامة وأمريكا خاصة . وذلك باستجابتها للطلب الأمريكي بالتغيير المتبادل فى اتجاهات الصواريخ النووية المصوبة من أحدهما ضد الآخر ، ابتداء من أول يونيو ١٩٩٤ ، بحيث تزداد مدة وصول الصاروخ إلى هدفه من خمس أو سبع دقائق على الأكثر إلى نصف ساعة كاملة .

وتلقى اتهامات المعارضة للنظام فى هذا الصدد ، تجاوبا متزايدا بصورة ملحوظة من الشعب الروسى ، الذى تؤجج تعاسته وجوعه ، كرامته ومشاعره الوطنية إلى أقصى حد .

ولعل دغدغة الشعور القومى بالكرامة والاحتجاج على عدم وفاء الغرب بوعود المعونة ، كانا الدافع وراء إحدى الحركات الدراماتيكية التى أقدم عليها يلتسن أمام كاميرات التليفزيون فى مؤتمر القمة للأمن والتعاون الأوروبى الذى انعقد بالمجر خلال النصف الثانى من عام ١٩٩٤ ، عندما خبط بيده المائدة بعنف عدة مرات ، مذكرا بأن روسيا مازالت دولة نووية عظمى . وهدد بأن العلاقات الدولية يمكن أن تحكمها حالة جديدة خطيرة ، هى « السلام البارد » . ولكنه لم يلبث أن تراجع فى نهاية المؤتمر عندما واجهه الغرب بعين حمراء متقدة بالغضب ، عبر عنها الرئيس الأمريكى كلينتون بقوله إن واشنطون لن تقف مكتوفة الأيدى أمام أية دولة تهدد أمن العلاقات الدولية . وعاد يلتسن إلى موسكو بخفى حنين . وذلك فى ظروف أكثر تأزما وتعقيدا .

لم يحل الدستور الجديد وانتخابات البرلمان الجديد (الدوما) شيئا من المعضلات التى كانت تحاصر نظام يلتسن ، وحاول أن يقضى عليها بضربة واحدة عندما قصف البرلمان ومعارضيه بمدافع الدبابات فى خريف ١٩٩٣ .

جاءت الانتخابات بمعارضة أوسع وأقوى فى الدوما . وفى المجتمع ، خرجت أفواج المعارضة السابقة من السجون ، وعادت لممارسة نشاطها فى الساحة السياسية رغم إرادة يلتسن ورغم القيود الثقيلة التى فرضها الدستور الجديد والقوانين المنفذة أو المكملة له ، والتى صدرت بمراسيم رئاسية .

المعارضة التى كانت تتمثل فى أعضاء لجنة الطوارىء التى قامت بانقلاب أغسطس ١٩٩١ الفاشل ، أقدمت دائرة القضاء العسكرى بالمحكمة العليا ، على إصدار قرار بإيقاف المحاكمة والإفراج عنهم قبيل انتخابات ١٩٩٣ . وذلك رغم المعارضة الشديدة من جانب يلتسن وطلبه إلى النائب العام الفيدرالى باستخدام

صلاحياته بإيقاف تنفيذ القرار . وشارك أحدهم وهو « لوكيانوف » الذى كان يشغل منصب رئيس مجلس السوفيت الأعلى ، فى انتخابات ديسمبر ١٩٩٣ عن الحزب الشيوعى الجديد . وفاز بمقعد فى الدوما .

المعارضة الأخرى ، التى قادت البرلمان السابق ضد سياسات يلتسن بزعامة روتسكوى وحسب اللاتوف ، وزج بعناصرها فى السجون بعد قصف البيت الأبيض بمدافع الدبابات ، أصدر الدوما ، البرلمان الجديد ، قرارا بالعفو العام والإفراج عنهم فى أوائل عام ١٩٩٤ . ولم تفلح معارضة يلتسن أيضا ، فى إيقاف تنفيذ القرار .

يبدو أن هذا النظام الفريد الذى صاغته جماعات يلتسن ، حيث سلطة الرئيس الفردية باطشة ذات مزاج عنيف متقلب ، وحيث برلمان يستقطب المعارضات المتعددة والمتباينة ولكنها تسعى دائما إلى وحدة موقف يقوى من دور وإمكانات البرلمان ، على الرغم من تقييدها دستوريا ، فى التصدى لقوة الرئيس وتحجيم فاعليتها .. نقول ، يبدو أن مثل هذا النظام ، فى ظروف تراكم الأزمات الاقتصادية والاجتماعية دون حلول وتفشى الفساد وتحالف الرأسمالية الطفيلية الشرهة المتوحشة مع عصابات المافيا ، صار مفرخة دائمة لتوليد المعارضات ضده . ليس فقط فى المجتمع ، بل ومن داخل النظام نفسه والقوى التى ارتبطت به .

عقب قصف البرلمان فى أكتوبر ١٩٩٣ مباشرة ، أعربت بعض القوى الديمقراطية التى ظلت تساند يلتسن عن صدمتها من تصرف الرئيس السياسى الدموى . وأخذت تتحول نحو المعارضة ، مثل جمعية « ميموريال » المهتمة بالدفاع عن حقوق الإنسان . وجماعة الدفاع عن « الانتخابات الحرة » .

فى نظام حكم الفرد ، تظل قواعد لعبة الكراسى الموسيقية من حول شخص الرئيس واكتساب ثقته ، هى التكنيك الذى يحكم حركة لعبة الكراسى السياسية بين أعضاء دائرة حاشيته ، قربا أو ابتعادا داخل الدائرة ، أو الخروج منها والانقلاب عليها . والنظام الروسى نموذجى فى هذه اللعبة ، حيث تفككت الروابط بين أعضاء فريق الرئيس « وصبيانه » فى صراعهم على النفوذ والمصالح واحتكار الهمس فى أذن الرئيس . ومع دوران اللعبة ، أصبح جيدار رئيس الوزراء وفيدروف وزير المالية السابقان مطوحين فى جانب ، وبوربوليس وبوناماريوف

وبكونين ، وهم من الأعمدة الرئيسية لنظام يلتسن فى بداياته ، منزويين فى جانب ثان . وكوزيريف وزير الخارجية فى جانب ثالث . وألكسى كازنيك النائب العام السابق فى جانب رابع . ولوجكوف عمدة موسكو ، وشوميكو رئيس مجلس الفيدرالية فى جانب خامس . ويورى بتروف رئيس ديوان الرئيس السابق فى جانب سادس . وفيكتور ايلوشين كبير مستشارى الرئيس فى جانب سابع . وكورجاكوف قائد فوج حراسة الرئيس فى جانب ثامن . وبالترانين وزير الإعلام السابق فى جانب تاسع .. ومع استمرار الدوران فى لعبة الكراسى السياسية وزيادة معدل سرعتها وحدة صراعاتها ، خرج من الدائرة عدد كبير بالتوالى . وكان أهم وأخطر خروج من قلب الدائرة إلى المعارضة هو الذى أقدم عليه ايجور جيدار مهندس الإصلاح الاقتصادى بالصدمات والذى تزعم « خيار روسيا » ، الذى كان يعرف بأنه حزب الرئيس ولم يستطع أن يفوز إلا بـ ١٤٪ من الأصوات . ويرى كثير من المراقبين السياسيين فى موسكو أن هذا الخروج علامة على أن سفينة يلتسن باتت على وشك الغرق فى يم الصراعات المتلاطمة .

فى هذا المناخ الذى اشتدت أعاصيره ، بدلا من أن تهدأ كما كان يتوقع يلتسن بعد تأديب المعارضة وقصف البرلمان بمدافع الدبابات ، أقدم الرئيس على مغامرة جديدة من مغامراته . وهى حملة تأديب الحكم الانفصالى لجمهورية الشيشان التى تتمتع بالحكم الذاتى فى اطار الاتحاد الروسى . واستهدف يلتسن بهذه المغامرة أن يستقطب تأييد المعارضة القومية المهمومة بوحدة أراضى روسيا والتى تخشى إذا نجح الجنرال دوداييف رئيس شيشنيا فى تحقيق انفصاله عن روسيا الذى أعلنه اثر انتخابه فى عام ١٩٩١ ، أن تكون سابقة فى انفصال جمهوريات ومقاطعات قومية أخرى مما يؤدى الى تفكك روسيا وانهيارها ، كما حدث للاتحاد السوفيتى من قبل . وفى نفس الوقت يقيد حركة المعارضات الأخرى من شيوعية وديمقراطية وسطية أمام فعل الدفاع عن وحدة روسيا الأم . بيد أن المغامرة لم تنجح إلا فى استقطاب بعض التيارات القومية دون بقية تياراتها الأخرى ، فضلا عن مجمل حركات المعارضة . وأمام بسالة الشيشانيين فى مقاومة الغزو ، وضعف الأداء العسكرى المخزى للقوات المسلحة الروسية ، وسقوط عشرات الآلاف من القتلى على الجانبين ، والتدمير الوحشى للمنشآت البترولية والمؤسسات الاقتصادية فى شيشنيا ، والإفراط الذى تعدى الحدود فى استخدام القوة بصورة فوضوية وخاصة من جانب سلاح الطيران الروسى .. كل ذلك فجر المظاهرات الشعبية العارمة فى موسكو وغيرها من المدن الروسية ضد

ما بات يسمى « بمزاج يلتسن الدموى وحكمه الفردى » ، وثورة غضبه الباطشة التى لا رادع لها . اليوم ضد الشيشان ، وبالأمس ضد الروس فى البرلمان ، وغدا لا يعلم الله أين وضد من . وبعد أن كان الغرب يتفهم دوافع يلتسن فى الحفاظ على وحدة التراب الروسى ، انقلب عليه وبات يندد « بالحرب القذرة » وغير المتعادلة ، وتهديدها للأمن الأوروبى فى مجموعه ، وانتهاكها الصارخ لحقوق الإنسان . وأن يلتسن الذى حاول ، صدقا أو مناورة ، الاستجابة إلى ضغوط الرأى العام الروسى والعالمى ، بإصدار أوامره بإيقاف القصف الجوى لشيشنيا ولكن دون جدوى ، يبدو أنه فقد سيطرته على القوات المسلحة وبات سجينا لها وقد تآكلت مصداقيته . وحامت الشكوك القوية حول قدرته على الاستمرار فى الحكم . وكشفت المعارضة عن أن القرار السياسى بغزو شيشنيا اتخذه يلتسن خلال جلسة شراب حميمية مع صديقه ونديمه وحارسه الخاص الجنرال كورجاكوف ، الذى يبدو أنه احتل المقعد الأخير الذى بقى بجانب الرئيس ، فى لعبة الكراسى السياسية الروسية . وأن الماريشال « بافل جراتشيف » وزير الدفاع أصدر أوامره بتنفيذ القرار الرئاسى بالغزو فورا خلال احتفال صاخب مع زملائه وأصدقائه بعيد رأس السنة وعيد ميلاده معا . ورفض الاستماع لاعتراضات نوابه من العسكريين ، الذين قدموا استقالتهم . كما أن يلتسن رفض بدوره ، من قبل ومن بعد الغزو ، اقتراحات حسب اللاتوف رئيس البرلمان السابق والشيشانى الأصل والمعارض للانفصال ، لتسوية الأزمة سلميا . وكان قد اقترح قبل الصدام ، على الحكومة الفيدرالية فى موسكو القيام بشراء الأسلحة من الشيشان بدلا من الطلب المهين لكرامتهم الوطنية والشخصية بالإذعان والتسليم دون قيد أو شرط . وظل يلح على عقد اتفاقية سياسية اقتصادية ، تراعى ضمان الجزء الأكبر من إيرادات البترول الشيشانى فى التنمية المحلية وتوسيع دائرة الحكم الذاتى فى الشئون الداخلية . كذلك امتنع يلتسن عن الحديث مع رئيس وزرائه السابق ايجور جيدار الذى هاتفه أربع مرات دون جدوى . وذلك عقابا له على تحوله إلى المعارضة .

ويكاد يجمع المراقبون ، وخاصة القوميين منهم ، أن يلتسن بسياساته الفردية المغامرة من أجل احتكار السلطة ، هو الذى مهد الأجواء للحركات الانفصالية فى روسيا . وذلك حينما عمد ، فى سبيل شراء تأييد حكام وممثلى ٤٥ من مجموع ٦٨ جمهورية ومقاطعة أبدوا دعمهم لروتسكوى وحسب اللاتوف ، فى صراعه الضارى مع المعارضة عام ١٩٩٣ من أجل حل البرلمان واستبدال الدستور القائم وقتذاك بدستور جديد ، إلى إصدار قرارات بتوسيع وتعميق ممارسة

الاستقلال الذاتى السياسى والاقتصادى للأطراف عن المركز الفيدرالى فى موسكو . لكنه ما لبث أن عدل عن هذه القرارات بعد الخلاص من البرلمان ومعارضيه ، وقد صار - على حد تعبير السياسيين والمثقفين فى الأطراف - « الرئيس الإمبراطورى » .

وحاول يلتسن ، ضمن ما حاوله من أجل استعادة شعبيته ، أن يكسب إلى صفه الكاتب الروسى الشهير « الكسندر سولجنستين » الذى انشق على النظام السوفيتى ، وعاد أخيرا من منفاه إلى روسيا ، واستقبله الشعب استقبالا حافلا وأطلق عليه ضمير روسيا . وباتت كلمته مسلحة بنفوذ معنوى كبير لدى رجل الشارع عامة ولدى القوميين والديمقراطيين وأنصار التسريع فى التحول إلى اقتصاديات السوق وخصخصة القطاع العام . استقبله يلتسن بعد جولته الواسعة فى أرجاء روسيا . ولكن سولجنستين خرج من المقابلة ليصرح بأن « عذابات روسيا ما برحت هائلة وأليمة ، وأن الخصخصة ليست إلا خدعة ونهبا غير مشروع ولا رقابة عليه . وأن نهج يلتسن لا يختلف فى جوهره الفردى القسرى ، رغم اختلافه الشكلى ، عن نهج البلاشفة الشيوعيين . وأن ديمقراطيته موظفة لتكريس الحكم فى أيدى فئة محدودة للغاية شرهة للمال وجائعة للسلطة المطلقة » .

وهكذا انضم سولجنستين إلى الطابور الطويل من السياسيين والمفكرين الروس ، بدءا من جورباتشوف وليجاتشيف وروتسكوى وحسب اللاتوف إلى زوغانوف رئيس الحزب الشيوعى الجديد وايجور جيدار نفسه ، يصرخ فى وجه يلتسن على مسمع من الشعب المطحون : يا روسيا المعذبة إلى أين ؟ وصارت تتصدر جدول أعمال الأحزاب والقوى فى الساحتين السياسية - الاقتصادية والثقافية ، بإلحاح فى حوارها بعضها مع بعض بطريق مباشر أو غير مباشر ، قضية البديل للنظام ، بعد أن لم يبق فى دائرته ، عندما كفت لعبة الكراسى السياسية عن الدوران ، غير يلتسن « الرئيس الإمبراطورى » ، وكرسى وحيد يحتله نديمه وصفيه « الجنرال كورجاكوف » .

• الفصل العاشر •

البحث عن ستالين « ديمقراطى » !

هل يكون عام ١٩٩٦ عام الانتخابات الرئاسية المقبلة إذا حدثت ، هو بداية النهاية لبوريس يلتسن ؟

هذه الشخصية التى ظلت مجهولة ، حتى هبطت فى يوم خريفى من أيام ١٩٨٧ من جبال الأورال إلى موسكو . وخلال ما لا يزيد على خمس سنوات ، كسف ضوؤها كل النجوم الساطعة اللامعة فى سماء الاتحاد السوفيتى . افتتن الناس بها فى وله العاشق ، عندما يقع فى الحب لأول مرة ، ومن أول نظرة .

ألقوا عليها واستأمنوها كل ما اختزنوه فى نفوسهم من آمال وأحلام بقيت خفية مكبوتة بعنف « الاستبداد الشيوعى » ، عقودا من السنين . وحين آن لهذه الآمال وتلك الأحلام أن تتفجر مع شرارات « البريستورويكا » فى ١٩٨٥ ، تاهت فى ضجيج « الجلاسنوست » . وداخت السبع دوخات بين دهاليز الحوارات الديمقراطية التى راحت تطرق أبوابهم بكلام جميل ساخن ، لكنه حاف جاف بلا طعام أو كساء . بدا لهم الزعماء القدامى والجدد ، يتبيسون فى مقولاتهم الفضفاضة . يدورون حول أنفسهم فى مواقع تنهار أو تتزلزل .

لم يبق للناس ، الذين أكل الصبر المتنمر الشىء الكثير من لحم أعمارهم الحية ، وأجج إلى حد الغليان مشاعرهم العطشى للتغيير السريع والخلاص من الدوامة بأى ثمن ، غير هذا الأورالى الحاد اللسان ، الذى يبشر بجنة السوق الحرة التى عششت فى أحلام يقظتهم . وآمنوا بأنه – وحده – يملك مفتاحها السحرى . انتصب بعناده فى الساحة ، فبدا لهم عملاقا بين أقزام ، بقامته الروسية الفارعة

وشعره الأبيض الغزير ، « المسيح المخلّص » الذى طال انتظاره ، على رأس جماعات تسبح بمجده ، منظمة ، دائبة الحركة ، عالية الصوت . تجيد أسرار الإعلام الغربى فى صناعة النجم السياسى الساطع بالنور فى ليل حالك العتمة ، تثقله الكلالة وتنهشه الفوضى . آثروه على الجميع ، أخيارا كانوا أم أشرارا . اختاروه بعواطفهم المشبوبة فى ١٩٩١ ، رئيسا يصنع الغد الديمقراطى لروسيا . ويجسد فى الواقع ، تلك الحياة المزروعة منذ أزمان فى الوجدان ، تتوهج من آن لآخر بومضات من صور الحياة الأمريكية التى راحت تدغدغ أعصابهم وتزغلل عيونهم . تطل عليهم وهم مشدودون إلى التليفزيون ، الذى بات متحررا من سطوة الرقيب الحكومى وحكمة الثورى الحزبى .

سد الناس آذانهم عن كل الانتقادات والتحذيرات التى أخذت تنطلق من هنا وهناك ، عن ديماجوجية المسيح الهابط من الأورال ، عن أوهام الجنة التى يتغنى بها ، أبالسة السوق الذين يحركون جماعته ، عن الحمق فى تصرفاته ، عن شراسته التى تعكس بعضا من جلافة ستالين الذى تربى فى حزبه على امتداد أربعين عاما من عمره ، وعن .. وعن ..

لكن الناس كانوا قد سكروا بالحب حتى الثمالة ورشقت سهامه قلوبهم . غفروا له كل نزواته وخطاياه ، ما تقدم وما تأخر من ذنبه .. وحتى تضحيته بالاتحاد السوفيتى فى سعيه المحموم إلى السلطة . وقالوا ، وأصروا على القول : كفانا أنه ينقذ روسيا وشعبها من أمس الحزب الشيوعى الغابر ، وحياة السوفيت الكالحة .

ما هذا الهوس الجماعى الذى عصف برؤوس الروس ؟ ماذا وراءه ؟ من أين نبع وفاض حتى صار أقرب إلى البشارة الدينية بنبى يحمل فى أعطافه المعجزات والأعاجيب ؟ هل بات الشعب الروسى ، فى أواخر القرن العشرين ، على هذا القدر الرهيب من الغفلة ؟ .

● إذا كان الجواب بنعم ، كيف يستقيم ذلك مع تاريخه النضالى القاسى الطويل ضد القيصرية والإقطاع والقنانة ، ومن أجل الحرية والديمقراطية والتقدم ، فى حركاته وثوراته المتعاقبة منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى بلغ ثورة ١٩٠٥ الليبرالية ، التى أفرزت بدايات النظام الديمقراطى من حول برلمان منتخب باسم « الدوما » ، وإفساح الفرص الاقتصادية والاجتماعية والثقافية أمام نمو طبقة وسطى ، وتراكم رأسمال وطنى روسى راح يقتحم ميدان الصناعة ؟

كيف يستقيم الأمر ، أيضا ، مع تاريخ هذا الشعب ، الذى على الرغم من آلام ومحن ومهانات الحرب العالمية الأولى ، فجر فى ١٩١٧ أول ثورة اشتراكية فى التاريخ الإنسانى . ومن خلال هذه الثورة انطلق بعقوله وسواعده ، يحول بلاده التى كانت تقبع فى ذيل قائمة الدول الأوروبية ، فى العقد الثانى من القرن العشرين ، إلى إحدى الدولتين العظميين فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، مع مشارف الخمسينيات ؟ كيف يستقيم الوضع ، كذلك ، مع هذا التواصل الذى لم ينقطع للإبداع العلمى والأدبى والفنى والفكرى فى جميع المجالات ، من علوم الوراثة والنووية والفضاء إلى فنون الموسيقى والعمارة وأدب الرواية والشعر ، بدءا من مندل وبوشكين وتشياكوفسكى وتولوستوى وجوجول ودوستيوفسكى حتى سخاروف ومايكوفسكى وخانشاتودريان وجوركى وشولوخوف وسولجنستين ؟

● وإذا كان الجواب بلا ، كيف ، نفسر ، إذن ، أن شعبا بهذا التاريخ الحافل والخبرة الجماعية الثرية ، يسلم مصيره ومستقبله إلى شخص واحد ، نزل إليه من الأورال . ويعمده مسيحا مخلّصا ، فيما يشبه الإيمان بأسطورة ، غير قابلة للنقاش أو النقد والتحليل ؟

ظللت – ومازلت – أطرح هذه التساؤلات على عقلى ؟ وأزرعها مع كل خطوة أخطوها ، أو لقاء أعقده ، أو حوار مع هذه الشخصية أو تلك من المفكرين والأدباء والسياسيين والصحفيين ، فى زيارتى الأخيرة لموسكو . وأحاول أن أحصد الإجابات .

أعترف أن ما أمكننى الوصول إليه من إجابات مازال قليلا لا يشفى الغليل . وأعتقد أن الأمر يتطلب الكثير من الزيارات الميدانية وتعميق الاحتكاك بعقل ووجدان الروسى المعاصر على مختلف المستويات . وإعمال مزيد من الفكر والتأمل فيما حدث ويحدث ، نظريا وعمليا ، معنويا وماديا .

فى هذا الإطار ، أخاطر بتقديم بعض الإجابات التى أطمئن إليها بقدر ما ، تتيح لى أن أنسج منها رؤية أولية .

فى تقديرى أن الجانب الروحى من التكوين التاريخى للإنسان الروسى وثقافته بصورة عامة ، حتى عندما غلبت عليهما النزعة المادية فى التفكير خلال العهد الاشتراكى ، ظل عميقا ومتجذرا . ربما مع تعاليم الاشتراكية وأدبيات الحزب الشيوعى ، كان ، هذا الجانب الروحى ، يختفى من فوق السطح ويغوص

فى العمق مكبوتا . لكنه بقى أحد المفاتيح الرئيسية للشخصية الروسية فى كل وقت .

يعيش حياة العمل والحزب والسياسة والاقتصاد بفكر المادية الجدلية ، غير أنه فى بيته ، بين أولاده ، مع أمه وأبيه ، فى علاقاته مع الزوجة أو الحبيبة أو الأصدقاء المقربين ، كان يفرج عن ميتافيزيقيته وغيبياته الموروثة ، من سجن النفس .

لا يصلى فى الكنيسة أو المسجد . وربما لا يعترض على تحويلهما إلى متاحف أو أماكن للمحاضرات وسماع الموسيقى الكلاسيك . لكنه فى بيته ، يعلق على الجدار أيقونة لمريم العذراء والمسيح أو آية من القرآن الكريم مكتوبة بخط ذهبى . فى وجدانه ينشد دائما المخلّص ، ابتداء من الأنبياء حتى الرهبان النساك وأولياء الله الصالحين . ويظل يسبغ هذه القداسة للمخلّص على زعمائه الدنيويين ابتداء من القيصر بطرس الأكبر حتى لينين وستالين . يذهب يوم إجازته ، الأحد ، إلى الميدان الأحمر ، ويقف ساعات فى طابور طويل ، ليدخل إلى ضريح لينين لحظة ، يطل على جثمانه المحنط خاشعا ، وفى بعض الأحيان يرسم على صدره علامة الصليب . لعل هذه الروحانية الكامنة فى أعماق الروس ، كانت وراء فكرة إنشاء مزار لينين المهيب ، وكأنه ولى من الأولياء ، رغم أن هذه الفكرة تناقض الفلسفة الاشتراكية فى الأساس .

عندما عمد ستالين إلى حشد وتعبئة الشعب الروسى فى مقاومة الغزو النازى خلال الحرب العالمية الثانية ، أطلق على المعركة اسم « الحرب الوطنية الكبرى » . ودعا كل الشعب إلى المشاركة فيها تحت رايات ما يؤمنون به ، سواء أكانت رايات اشتراكية أو مسيحية أو إسلامية .

حدث فى الستينيات أن اشتركت فى ندوة عقدت فى « آلما آتا » عاصمة جمهورية كازاخستان السوفيتية . وتعرفت خلالها إلى الزعيم الشيوعى البارز « دين محمد بن كونابيف » . كان وقتها يشغل عضوية الاحتياط فى المكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفيتى وأمين عام الحزب فى الجمهورية . أثار انتباهى اسمه غير المألوف ، سألته عنه . فأجابنى ضاحكا ، أن والده أطلق عليه هذا الاسم « دين محمد » ، إمعانا منه فى تنشئته نشأة إسلامية ونكاية بالشيوعية التى كانت ثورتها قد انتصرت واستتب نظامها . ظل « دين محمد » بعيدا عن الانخراط فى الحزب الشيوعى حتى مات والده ، احتراماً لرغبته . واستطرد

« دين محمد » قائلا : « طاعة الوالدين واجبة فى الإسلام كالعبادة . أليس كذلك ؟» وفجأة باغتنى بسؤال : هل يمكن أن تؤدى لى خدمة ؟ وكانت الخدمة أن أصاحبه فى زيارة إلى والدته العجوز التى كانت قد تجاوزت التسعين من عمرها ، وأن أقدم لها « مصحفا » هدية لها من مصر ، بلد الأزهر الشريف . أحضر هو المصحف ، وذهبنا إلى والدته فقدمته لها . بكت فرحا وهى تتلمسنى تباركا بمسلم جاء من رحاب الأزهر . ولمحت الزعيم الشيوعى متهلل الوجه ، حانيا دامعا أمام صوفية أمه .

بعد وفاة لينين عام ١٩٢٤ ، تولى ستالين مقاليد الأمور فى الحزب والدولة . أطاح بالديمقراطية الداخلية للحزب . ونصب من نفسه « أميرا لجماعة الاشتراكية » . وأشعل فى الثلاثينيات محاكم التطهير الدامية ضد كل الخارجين على جماعته وتعاليمه وطاعته . وحصد حياة ما لا يقل عن عشرين مليونا من قادة وأعضاء الحزب والشعب أيضا .

لم يكن للأمر علاقة بجوهر الاشتراكية الذى يتجسد فى أن الإنسان أثمن رأسمال . أو بالأسس التى قام عليها الحزب ، وهى المركزية الديمقراطية والقيادة الجماعية والتزام الأقلية برأى ومواقف الأغلبية . وإنما تعلق ، فى الحقيقة ، بالتكوين اللاهوتى المتعصب الضيق الأفق لستالين ، والذى استغرق الثمانى عشرة سنة الأولى من حياته . وذلك من خلال التحاقه – تحت ضغط والدته القاسية الطباع – بالكنيسة الأرثوذكسية الجورجانية المعروفة بتزمتها ، تمهيدا لأن يغدو راهبا . وما إن ماتت أمه حتى هرب من الكنيسة إلى الحزب الشيوعى السرى ، وقتذاك . وحمل معه نفسية الراهب المتقشف وذهنيته الجامدة ومعايير الحلال والحرام التى طبقها فى تعامله مع الاشتراكية والاشتراكيين . وصار « الحلال الاشتراكى » عنده ، هو ما يراه ويتصوره ويطبقه بحكم مسئولياته القيادية . خاصة أن ترجمة الفكر الاشتراكى إلى الواقع كانت ميدانا بكرا غير مطروق ، وليس له سوابق يستنار بها . وأصبح « الحرام الاشتراكى » ، هو آراء ومواقف المعارضين له من رفاقه . ينزل بهم العقاب الصارم الذى يصل إلى حد الموت باعتبارهم زنادقة ، مخربين ، مرتدين عن « العقيدة » الاشتراكية . كان ستالين فى ذلك ، يصدر عن « إيمان » راسخ تملكه بأنه ، كفرد مسئول تاريخيا عن بناء الاشتراكية لأول مرة فى تاريخ الإنسانية ، بات صاحب مهمة مقدسة . يهون فى سبيلها التضحية بقليل أو كثير من « المرتدين » من أجل إقامة دولة اشتراكية قوية ، تسابق فى التطور والمنعة كل الدول الرأسمالية المتقدمة .

وهكذا منذ منتصف الثلاثينيات عرفت التجربة السوفيتية ظاهرة « عبادة الفرد » فى شخص ستالين راهب الاشتراكية وقديسها . ونشطت أجهزة التثقيف والإعلام بالحزب والدولة والمجتمع ، فى غرس « عبادة الفرد » الملهم ، المخلّص ، الذى لا يخطىء ولا يخاف ، ويعلم ما تظهره السرائر وما تبطنه بأعمق دفائنها ، فى نفسية الروسى ، لتمتزج بروحانياته الميتافيزيقية المتجذرة . وإن كان هذا المزج قد أحدث بين آن وآخر ، نوعا من الانفصام المقلق والحاد فى شخصيته . فهو يبنى ، مع الجماعة ، الاشتراكية بفلسفة المادية الجدلية ، التى لا تؤمن إلا بعمل الإنسان وإبداعاته وتحرير وإطلاق مبادراته . لكنه فى نفس الوقت ، يحتاج مباركة المرشد الملهم وينتظر تعليماته . ويرنو بإخلاص إلى الذوبان فى إرادة الفرد القائد المعبود .

انطلقت حركة خروتشوف الإصلاحية ، مع المؤتمر العشرين الشهير للحزب ، فى منتصف الخمسينيات ، تركز على ما أحدثته ظاهرة « عبادة الفرد » المرضية من تجميد لحيوية الفكر الاشتراكى وتحويل الحزب من أداة ديمقراطية طبيعية لتثوير الواقع وتربية كوادر واعية جسور ، إلى أداة للقمع والقهر وتفريخ أجيال من الموظفين البيروقراطيين . ورغم أنها كشفت تناقض هذا كله فى الأساس ، مع الفكر والروح الاشتراكيين ومتطلبات الدولة والمجتمع والمواطن لحياة أكثر إبداعا وإنتاجا وحرية ، إلا أن قطع الطريق على الحركة الإصلاحية بإسقاط خروتشوف لم يقض على ظاهرة عبادة الفرد . واستمرت ، بشكل أو بآخر ، طوال عهد بريجينيف ، الذى تحول إلى ستالين جديد صغير . وحين فجر جورباتشوف البريسترويكا ، بذلت البيروقراطية الحزبية جهودا خارقة لسجنه وسجن الشعب معه فى دورة جديدة من « عبادة الفرد » . لكن جورباتشوف ثار على السجن بإصلاحاته الديمقراطية فى الحزب والدولة والمجتمع . وترددت الجماهير الشعبية فى البداية فى الخروج من سجن عبادة الفرد ، بعد تجاربها إثر انهيار تجربة خروتشوف . لكنها ما لبثت أن اندفعت مع جورباتشوف فى إلحاحه على الديمقراطية وممارستها ، من خلال البريسترويكا والجلاسنوست . غير أنها – مع ذلك – ظلت تطالبه بنقيضين : أن يتمسك بديمقراطيته . وأن يستخدم قوته المهولة الموروثة كأمين عام للحزب ، فى البطش بالبيروقراطيين والمنتفعين بسلطة الاشتراكية وهدم مؤسساتهم على رؤوسهم وتعليقهم على أعواد المشانق فى الميادين . كانوا ينادون فيه ديكتاتورية ستالين وجبروته ، ولكن فى اتجاه ديمقراطى ! وكان هذا مستحيلا . حاول الرجل وجماعات البريسترويكا أن

يوضحوا أن التغيير الديمقراطى لا ينجح إلا بوسائل ديمقراطية . وأن ذلك يستلزم وقتا ويتطلب أوسع مشاركة شعبية ممكنة ، تواجه بجسارة البيروقراطيين والطغاة والمنتفعين بسلطة الاشتراكية فى كل مكان . بيد أن غالبية الجماهير اعتبرت ذلك ضعفا وترددا ، فى أداء القائد الفرد الملهم لمهامه المقدسة . تفاقمت الأزمة الاقتصادية خلال مرحلة محاولة التغيير الديمقراطى بأساليب ديمقراطية ، بالإضافة إلى التخريب المتعمد من جانب البيروقراطية الشيوعية المعادية للتغيير ، دفاعا عن مصالحها وامتيازاتها من ناحية ، كذلك من جانب قوى جديدة ، رغم محدودية ما تمثله من فئات اجتماعية ، تطالب تحت رايات الديمقراطية الراديكالية بإزاحة الحزب والشيوعيين والاشتراكية نفسها بالقوة ودون إبطاء ، من ناحية أخرى . فى النهاية انصرفت الجماهير عن جورباتشوف الديمقراطى ، الذى يناقش ويحاور ولا يتحرج - أحيانا - من أن يعلن عن خطأ رأيه أو موقفه . ويعدل عنه أو يعدله ، كأنه فرد عادى فى القاع . وليس سيدا مهابا منقذا ، ينفرد بالقرار على القمة ، ويلزم الجميع بطاعته عندما يلوح فقط بعصاه .

انطلقت الجماهير ، فى أتون الفوضى السياسية والأزمة الاقتصادية الاجتماعية ، تبحث عن معبود جديد . عن منقذ . عن « مسيح مخلّص » . عن ستالين فى صياغة أخرى : قوى ، آمر ، ناه ، ولكن ديمقراطى أيضا . ينتشلها مما هى فيه ، بدءا من الفوضى والصحاف الفارغة على مائدة الطعام وانتهاء بالحزب الشيوعى .

وكانت الجماعات الديمقراطية الراديكالية التى تتحرك بفاعلية ونشاط من حول تجمعات الروس الجدد برأسماليتها الطفيلية الفجة التى نمت فى حجر البيروقراطية الشيوعية وفساد الإدارة فى مؤسسات الدولة والقطاع العام ، جاهزة ، بالمسيح المخلص وستالين الديمقراطى ، فى شخص بوريس يلتسن ، وجها وقامة وحدة وجرأة . وراحت تتغزل بوسائلها الإعلامية الحديثة ، التى استوردتها من الغرب ، فى روسيته النقية وفى قطيعته الحازمة مع الحزب والشيوعية ، وفى بطولة تصديه للانقلاب ، وفى سياسته المعلنة للانتقال من النظام الشمولى الديكتاتورى إلى النظام الرأسمالى الديمقراطى ، وفى صداقاته مع الغرب « وأبطاله الديمقراطيين » من جورج بوش وبيل كلينتون إلى هلموت كول وفرنسوا ميتران .

ولم يكن هناك بديل للجماهير التواقة للتغيير والعثور على الفرد القائد

القديس ، معا . كانت الساحة قد خلت من كل الكبار وأنصاف الكبار ، بعد انقلاب أغسطس ١٩٩١ وسقوط جورباتشوف والتمزق الذى هوى بكل زعماء البريستورويكا والجلاسنوست .

وصعد يلتسن الرئيس ، ليحتل فى وجدان الجماهير مكانه فى عبادة الفرد ، ستالينيا قويا ولكن بوجه ديمقراطى ، قادر على الإصلاح وإعادة القانون ، وملء الصحاف الفارغة بكل ما لذ وطاب من طعام .

بيد أن إصلاحات يلتسن بأسلوب الصدمات « الجيدارية » ، جاءت بجوع موحش لم تعرفه روسيا ، فى أكثر أوقات الاتحاد السوفيتى صعوبة مثل أيام الحرب الأهلية فى بداية السلطة الاشتراكية ، أو خلال الحرب العالمية الثانية . وجاءت أيضا بالروس الجدد الذين أنشبوا مخالبهم فى القطاع العام ونهبوه وراحوا يختالون فى شوارع موسكو بأزيائهم الباريسية وسيارات الرولزرويس والمرسيدس . ولم يأت الغرب بدولاراته ومعوناته الموعودة . وستالين الديمقراطى اغتاله ستالين الديكتاتورى الفظ ، تحت جلد يلتسن ، بمجرد أن استقر رئيسا فى الكرملين . قصف البرلمان المعارض لسياسته والمتجاوب مع مطالب الشعب الجائع ، بمدافع الدبابات . وأحكم قبضته على الصحافة ووسائل الإعلام . وأخيرا دفع روسيا إلى حافة الكارثة والتمزق بمغامرته فى غزو شيشنيا التى أودت بحياة الآلاف من الشباب .

تراكمت الصدمات ، موجعة ومهلكة . وراح الشعور بالخديعة فى يلتسن « المسيح المخلّص » ، المنقذ ، المعبود ، يهاجم بشدة وجدان الروس ويقرع رؤوسهم بمطارق ثقيلة . وشرع الناس وسط أجواء تراجيدياتهم العنيفة ، يبحثون عن مسيح جديد ، يكون فيه شيئا من مواصفات ستالين ، المستبد العادل الديمقراطى ، الذى توهموه يوما فى قوام بوريس يلتسن .

فى انتخابات الدوما التى أجريت فى ديسمبر ١٩٩٣ بعد قصف البرلمان وحله ، انتهزت بعض الجماهير الروسية المثقلة بالأسى واليأس ، الفرصة وبكرت فى البحث عن منقذ بديل ليلتسن . وجدوا ضالتهم فى رجل قانون ، يتحدث لغتهم فى قوة وفصاحة . مازال على مشارف الخمسين من عمره . صنع نفسه بنفسه فى معزل عن الحزب الشيوعى ، خلال رحلة حياة مضنية بالشقاء ، اسمه « فلاديمير جيرينوفسكى » . قفز فجأة من المجهول إلى خضم المعترك السياسى

فى أبريل ١٩٩٠ . وذلك عندما قام فى عصر البريستورويكا ، بتأسيس الحزب الليبرالى الديمقراطى وتسجيله قانونيا فى وزارة العدل . وكان بذلك ثانى حزب يجرى تسجيله طبقا لنظام تعدد الأحزاب فى الاتحاد السوفيتى ، بعد الحزب الشيوعى الحاكم وقتذاك . وكانت لديه الشجاعة أن يخاطر بمناطحة يلتسن فى انتخابات رئاسة روسيا عام ١٩٩١ قبيل سقوط الاتحاد السوفيتى ، ويستقطب ستة ملايين صوت .

رأى رجل الشارع الروسى العادى نفسه وأحلامه الخاصة والعامة ، فى سيرة حياة جيرينوفسكى . وخاصة ذلك الذى ينتمى منه إلى القطاعات الهامشية فى المجتمع ، وإلى العمال والموظفين الصغار والجنود المحدودى الدخل ، الذين باتوا ، مع عمليات التحول والتغيير وأزماتها الاقتصادية والاجتماعية ، يتساقطون بأعداد متزايدة كل يوم فى هوة الجوع والبطالة .

فى كتابه الذى أصدره عام ١٩٩٤ ، تحت عنوان « آخر قفزة نحو الجنوب » عرض مجموعة من أفكاره الاستراتيجية حول « بعث روسيا العظيمة » من جديد . ويطلق عليه العديد من المثقفين فى موسكو ، اسم الطبعة الروسية من كتاب « كفاحى » الذى أصدره هتلر فى الثلاثينيات حول استراتيجيات النازية لبعث ألمانيا العظيمة . روى جيرينوفسكى عن حياته ، فى هذا الكتاب ، أنه واجه قسوة الدنيا وحيدا وهو ، بعد ، صبى صغير مع أمه إثر وفاة والده فى حادث سيارة . لا طعام له غير الفتات الذى كانت تجمعه أمه من بقايا المطعم الذى كانت تعمل به خادمة . كتب يقول : « .. لم استطع أبدا أن أقهر الجوع يوما . لم يحدث قط أنى أحسست بالشبع يوما . لم ارتد يوما ملابس جديدة أو حتى لائقة نوعا ما . السكن الذى كنا نعيش فيه عبارة عن شقة مشتركة تسكنها عدة عائلات ، كل عائلة فى غرفة . لم يكن لى يوما سرير خاص . كنت أنام أحيانا على صندوق نحتفظ فيه بأشيائنا الصغيرة ، وأحيانا أخرى على كنبة فى صالة يجلس عليها الجميع . ولم أكن أستطيع النوم بهدوء وسط ضجيج العائلات التى تشاركنا المسكن . وفى كل صباح كنت أقف فى نهاية طابور يتكون من عشرة أفراد على الأقل حتى تواتينى الفرصة لدخول المرحاض الوحيد لدقائق معدودة .. وعندما كانت أمى على فراش الموت نادتنى ذات ليلة وهمست لى : أسمع يا فالوديا . سأتركك وليس لدى شىء أتذكره لأسر به لك ، سوى أنه لم يمر فى حياتى يوم مفرح واحد . وماتت وهى فى الثالثة والسبعين من عمرها .. »

ملايين من الروس ، شعروا بأن جيرينوفسكى يحكى بمرارة وشجن ، آلام وعذابات حياتهم ، عندما يقص عليهم حياته . إنه واحد من صلبهم . هذا ، إذن ، المنقذ الأصيل الذى لن يخونهم أو يستبد بهم كما يفعل يلتسن .

يتحدث فى كتابه وفى خطبه الملتهبة بصوته النحاسى الجهورى ، عن أن خلاص روسيا ، التى « أغرقها الزعماء الأغبياء العجزة الفاسدون في بحر العذاب والفقر والجوع والمهانة أمام الغرب » ، يكمن فى القيام بما يسمى « آخر قفزة إلى الجنوب الدافىء » . ويعنى به استعادة قوة الجيش ، ومجمع الصناعات العسكرية ، والزحف بالمجال الحيوى والنفوذ الروسيين إلى سواحل المحيط الهندى والبحر المتوسط ، بحيث يشمل القوام الروسى الجغرافى – السياسى ، كل ما كان ضمن الحدود السابقة للاتحاد السوفيتى ، ربما باستثناء جورجيا التى يتعالى عليها ويمقتها ، مع الامتداد إلى تركيا وإيران وأفغانستان . ويقترح لذلك ، بقوة التوازن السياسى الاقتصادى العسكرى الذى تملك روسيا توفيره ، إبرام معاهدة دولية فى إطار بناء النظام العالمى الجديد ، تكون « آخر عملية لإعادة تقسيم العالم » ، وتنظيم آمن للعلاقات بين الشمال والجنوب ، يحقق السلام العالمى النهائى مع الديمقراطية والرخاء للبشرية كلها . وتتضمن المعاهدة تقسيم العالم إلى أربع مناطق للنفوذ . الأولى من نصيب اليابانيين والصينيين ومجالها جنوب شرق آسيا والفلبين وماليزيا وأندونيسيا واستراليا . والثانية ، للاتحاد الأوروبى ومجالها القارة الأفريقية . والثالثة للولايات المتحدة ومجالها أمريكا اللاتينية . والرابعة روسية ومجالها فضلا عن بلدان الاتحاد السوفيتى السابقة ، أفغانستان وإيران وتركيا والعراق وبلاد العرب الآسيوية .

بمثل هذا الحديث يغازل جيرينوفسكى بعمق الوازع القومى المنكسر الجريح لدى جمهرة الفئات الدنيا والهامشية فى الشعب الروسى . وينعش فى مناخ الإحباط الذى يعيشونه ، رياح الإمبراطورية الروسية العظمى . ويطلق العنان لأحلام اليقظة .

ويقدم جيرينوفسكى برنامجا صارخا بالشعارات الساخنة لانتشال روسيا السريع من أزماتها المتفاقمة . فيتحدث – على سبيل المثال – عن عودة رنين أجراس الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إلى قلوب الناس لتطهيرها . وتجنيد أجهزة الجيش والبوليس فى حملة مكثفة لا تستغرق أكثر من أسبوع واحد ، للقبض على اللصوص والمجرمين والفاسدين الذين يعتدون على حقوق وأقوات وحياة الناس

فى الحكومة والمؤسسات العامة والخاصة ، وإيداعهم السجون ومحاكمتهم علنا ، وإنزال أقصى العقاب بهم دون رحمة . كبت جماح المتطرفين اليساريين واليمينيين على السواء ، الذين يريدون تبديل الطبيعة الإنسانية بصورة حادة ، الأمر الذى يؤدى إلى بعثرة قوى الأمة وإفسادها معنويا وماديا ، ولو استوجب الوضع سلوك إجراءات خشنة . إعادة تشغيل القطاع العام بكل مؤسساته الزراعية والصناعية بجماع قوته ، لأنه لا يجوز فى حالة روسيا الراهنة تدمير كل ما لديها والبداية من الصفر . لماذا لا تنظم الأمور بأن يكون للقطاع الخاص ٢٠٪ من النشاط الاقتصادى ، ويبقى للقطاع العام الـ ٨٠٪ الأخرى ، مع منحه قدرا أكبر من استقلالية الإدارة واستعادة العمالة العاطلة . إن الطريق إلى الحرية هو فى تطبيق الأفكار عبر انتصار الحزب وزعيمه ، وتحويل قوته السياسية إلى أدوات محددة وأجهزة سلطة . إن كل حزب يشبه من ناحية معينة مجموعة خيِّرة لمافيا تتبع قائدها وتلتزم بقوانينه .

حول هذه الشعارات ، التفت بحماس قطاعات الهامشيين والعاطلين والجنود المسرحين بالإضافة إلى كثيرين ممن خاب أملهم فى يلتسن وسياساته . وصار جيرينوفسكى – لديها – هو المنقذ – الأول من نوعه – الذى ولد فقيرا شقيا يتيما فى أحشاء روسيا المعذبة . وصعد إلى الساحة من القاع السحيق ، مبعوثا ممن لا حقوق ولا صوت لهم ، تباركه عناية الرب ، وفى يمينه كتاب الخلاص .

فى الوقت الذى كانت فيه جماعات السياسيين والمثقفين من جميع الاتجاهات تسخر من هذا البهلوان الذى يقفز هنا وهناك فى الساحة السياسية « بألاعيبه الأكروباتية » وأحاديثه وخطبه التى تفجر السخرية والضحك ، جاءت الصدمة المهولة التى ألجمت الجميع وعلى رأسهم يلتسن . وذلك عندما أسفرت انتخابات الدوما فى ديسمبر ١٩٩٣ عن تفوق حزب جيرينوفسكى المهلهل التنظيم ، على جميع الأحزاب المشاركة وفى مقدمتها حزب الرئيس نفسه « خيار روسيا » ، والحزب الشيوعى الجديد ، أكبر الأحزاب أعضاء وأكثرها تنظيما . ويفوز ، وحده ، بحوالى ٢٤ ٪ من الأصوات .

هل يستطيع حقا جيرينوفسكى ، هذا « السياسى – الظاهرة غير المتوقعة » ، أن يتحدى يلتسن أو غيره من الشخصيات السياسية الأخرى ذات الوزن النسبى ، ويكون هو البديل المنتظر ؟

يدخل الإنتخابات الرئاسية فى عام ١٩٩٦ ، مثلا ، ويفوز برئاسة روسيا ؟ .

السؤال تساقط عنه – بعد ما حدث فى انتخابات الدوما – ما كان يعلق به – فى العادة – من الغمز الساخر واللمز الذى يثير القهقهة العالية ، وأصبح يطرح بشىء كثير من الجدية والرهبة .

يبدو أن التراجيديا الروسية فى الحياة ، كالتراجيديا الإغريقية فى المسرح اليونانى ، ما زال يصول فيها ذلك القدر الأعمى الوحشى الطباع ، الذى لا يمسك به أحد بعد ، حتى ولو كان ذلك الـ « ستالين الخرافى » فى استبداده العادل وديمقراطيته الوارفة ، الذى يبحث عنه –. دون جدوى – روس ما بعد الاتحاد السوفيتى فى الحلم والواقع معا .

ولكن إذا لم يكن جيرينوفسكى ، جوابا عن السؤال ، ماذا تكون الاحتمالات الأخرى ؟

• الفصل الحادى عشر •

غابـة الأحـزاب

جاء الهم الشيشانى الدامى ، فعرى - أكثر من أى وقت مضى - الطابع المغامر لحكم الرئيس يلتسن الفردى ، وعجز الدوما (البرلمان) تحت ثقل قيود الدستور الجديد عن الحركة المؤثرة . وتفكك وضعف أداء المؤسسة العسكرية التى زجت بها قيادتها فى أتون الصراعات السياسية - الاجتماعية أكثر من مرة ، وشراسة مجلس الأمن القومى الذى سيطر عليه « الجنرال كورجاكوف » صفى الرئيس يلتسن وحارسه الشخصى ، وتآكل وزن الحكومة برئاسة « تشيرنوميردين » فى توجيه وإدارة سير حركة الأحداث ، وهشاشة العلاقات بين المركز فى موسكو وبين الأطراف الداخلة فى إطار الاتحاد الروسى من الجمهوريات والمقاطعات المتعددة القوميات . وأخيرا ، عبثية انتظار المسيح المخلّص ، أو ستالين الديمقراطى .

وكان طبيعيا أن تزداد اشتعالا ، قضية إنقاذ روسيا من المجاعة والفساد والمافيا ، والتخبط - دون جدوى - بين برامج الإصلاح الاقتصادى المتضاربة ، والديكتاتورية ذات الثوب الديمقراطى المهلهل . ومع بداية عام ١٩٩٥ ، عام الحرب الأولى بين المركز وأحد الأطراف (شيشنيا) ، بلغت القضية درجة المأزق الذى استحكمت مغاليقه على الجميع ومن كل الجهات . وبات مفتاحه مفقودا .

ثارت علامات الاستفهام ، تطرق الرؤوس بعنف ، والدماء الغزيرة تسيل من حولها : هل صحيح أن مفتاح « القضية - المأزق » ، ما زال معلقا بذلك « المنقذ - الفرد » الذى ظلت صورته وأوصافه المثالية مختزنة فى الوجدان

الروسى ؟ هذا الوجدان ، الذى تنقل خلال ما لا يزيد على قرن واحد ، ثلاث نقلات روحية فكرية سياسية كبرى ، من التدين السماوى الغيبى ، إلى التدين الشيوعى الأرضى المادى ، إلى التدين السماوى الغيبى مرة أخرى ؟

جرب الناس الذين حسبوا أنهم نالوا حريتهم أخيرا ، بعد أن صادرها طويلا وبصورة مختلفة ، قياصرة العهد الإمبراطورى وقياصرة العهد الشيوعى ، هذا الفارس المغوار الذى هبط إليهم من الأورال ، رافعا رايات الديمقراطية والسوق الحرة ودولة الرفاهية والنموذج الأمريكى . زحفوا وراءه ، فإذا به يقودهم إلى جحيم الفقر ، ومملكة فى صورة جمهورية يتسلط عليها مجموعة من حوارييه المحدودى الخبرة . لا هم لهم إلا استغلال النفوذ من أجل الإثراء غير المشروع . وبين آن وآخر يركب رأسه ، ويمتطى بديكتاتوريته الفظة ، أعنة المغامرات المهلكة الدامية .

وحين بدا لهم ، فى ضوء انتخابات الدوما فى ديسمبر ١٩٩٣ ، منقذا آخرا فى صورة « جيرينوفسكى » ، الذى صعد فجأة من قاع التعاسة المعتم إلى أنوار الحلبة السياسية ، ما لبثوا أن رأوه أقرب إلى بهلوان فى سيرك . يقفز بين حبال يلتسن وحبال المعارضة دون توقف أو منطق مقنع . ينقد النظام وباروناته الأثرياء الذين ينهبون الشعب ويتاجرون فى أقواته وكرامته ، نعم . لكنه فى نفس الوقت ينقد أيضا ضعف النظام وتردده فى الإحجام عن تسوية شيشنيا وأهلها بالأرض بضربة واحدة قاضية لا تبقى ولا تذر . ليس فى جعبته لخلاص روسيا غير كلمات نحاسية صاخبة جوفاء ، ومغامرة « القفزة الأخيرة إلى الجنوب » التى تكسر الرأس والظهر معا .

هل من « منقذ – فرد » آخر ، على مرأى البصر أو حتى فى طى المجهول ؟

ظلت استطلاعات الرأى التى تنظمها جماعات مختلفة ، تشغل هذا السؤال . وتقدم إجابات بين آن وآخر ، ينشغل بها الناس فى محاولاتهم المضنية للبحث عن هذا الـ « ستالين الديمقراطى » ، الذى يأتى فى يوم قريب فيطهر ، بلمسة من عصاه السحرية ، روسيا من الجوع والتعاسة والظلم والجريمة ، ويزرعها بالخير والطعام والعدل والحرية .

فيما بعد قصف البرلمان بمدافع الدبابات وانتخابات ديسمبر ١٩٩٣ ، وحتى

مغامرة اجتياح شيشنيا فى ديسمبر ١٩٩٤ ، توالت استطلاعات الرأى عن هذا الـ « ستالين الديمقراطى » المنتظر . فى أول استطلاع منها ، لم يعد يلتسن هو النبوءة الوحيدة كما كان الأمر فى الاستطلاعات السابقة . كان هناك قائمة بأكثر من شخصية محتملة ، تضم الاقتصادى الشاب « جريجورى يفلينسكى » صاحب مشروع الإصلاح الاقتصادى فى خمسمائة يوم ، الذى صاغه بالاشتراك مع مجموعة اقتصادى جامعة هارفارد الأمريكية ، وزعيم الجماعة السياسية المعروفة باسم التفاحة ، و « فلاديمير جيرينوفسكى » زعيم الحزب الليبرالى الديمقراطى ، و « ألكسندر روتسكوى » نائب الرئيس الذى عزله يلتسن وسجنه فى واقعة الصدام مع البرلمان .

وإذا كان صحيحا أنه ابتداء من هذا الاستطلاع ، أن يلتسن لم يبق المنقذ الوحيد المنشود ، ولكن صار يشاركه آخرون من الشخصيات المستقلة أو الحزبية المعارضة بدرجات متفاوتة ، فإن النسب الواردة فى الاستطلاع بالنسبة لكل شخصية مرشحة باتت متدنية عن ذى قبل ، بشكل ملحوظ . وان ظلت نسبة يلتسن – مع ذلك – فى المقدمة ، فتسجل ١٥٪ من الرأى العام . فى حين تتراوح نسب الآخرين بين ٥٪ و ٨٪ . هذه الظاهرة ، ظاهرة تعدد المتقذين ، جديدة على أحداث ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتى .

لعل التفسير الأكثر رجحانا لهذه الظاهرة ، أن الأغلبية الكاسحة من الشعب الروسى ، تحت ضغط تفاقم الأزمة الاقتصادية الاجتماعية وصدمتى البرلمان وشيشنيا الدمويتين ، راحت ، وقد تقطعت بها الأنفاس خلال عملية البحث عن الخلاص ، تتجاوز بعد عذابات التجربة ، هذا التطلع المحموم إلى مسيح مخلّص يجسد حلم أو وهم « ستالين الديمقراطى » . وذلك على الرغم من شجن الحنين الذاتى للمنقذ – الفرد ، المترسب جيلا بعد جيل ، فى نفسية الروسى المعذبة والتى تتمزق كل لحظة ، فى فقرها المادى والمعنوى وكرامتها الوطنية والشخصية الجريحة ، بين مكوناتها الخاصة المتناقضة من براءة الأطفال ، وحنان الأمهات ، وصبر صيادى السمك فى البحر المتجمد ، وقساوة الجبابرة الذين مرقوا بعواصفهم ومذابحهم التى خلعت القلوب على طول وعرض التاريخ البعيد والقريب .

مع تكرار عملية الانتخابات فى زمن قصير ، وتزاحم حركة الأحزاب بصخبها فى الشارع السياسى ، وتعدد أجهزة الإعلام المستقلة من صحف

وتليفزيون ، أخذ يتبلور تدريجيا اتجاه ملحوظ فى الفكر الجمعى للشعب الروسى ، يتحول من البحث عن « الفرد – المنقذ » إلى « النظام – المنقذ » ، أو « البرنامج – المنقذ » ، أو « القوة السياسية – المنقذة » .

انعكس ذلك فى نتائج استطلاعات الرأى العام الحديثة ، التى راحت ترشح للقيادة السياسية وبناء نظام ديمقراطى بديل و أكثر كفاية ، شخصيات لا تقف بذواتها المتضخمة وحسب . وإنما تعبر عن تيارات وأحزاب عاملة فى الساحة تطرح برامج وسياسات محددة . وأحيانا شخصيات عملت مع يلتسن . أو لاتزال تعمل معه ، ولكنها أثبتت استقلاليتها النسبية عنه . لا تخفى معارضتها لبعض سياساته ومواقفه وتحاول أن تحد من سلبياتها وطابعها المغامر .

قدمت هذه الاستطلاعات من داخل نظام يلتسن ، شخصيات مثل فيكتور تشيرنوميردين رئيس الوزراء نفسه ، الذى ينتمى إلى الوسط الديمقراطى . وتميز بمعارضته لبرنامج الإصلاح بطريق الصدمات الذى طرحه ونفذه « ايجور جيدار » عندما كان رئيسا للوزراء . وقدم برنامجا بديلا يركز على أولوية إخراج القطاع الإنتاجى العام والخاص ، من أزمته ، وحشد موارد الدولة لهذا الغرض . وهو البرنامج الذى يلقى دعما نسبيا من الأحزاب القومية والحزب الشيوعى الجديد . هذا فضلا عن إعلانه تغليب الحل السياسى على الحل العسكرى فى أزمة شيشنيا .

من هذه الشخصيات التى تقدمها استطلاعات الرأى العام الأخيرة « يورى سكوكوف » سكرتير مجلس الأمن القومى السابق ، والذى أصبح رئيسا لاتحاد منتجى السلع الروسية ، وعقد تحالفا سياسيا مع « فلاديمير ميدفيدوف » رئيس الكتلة السياسية الإقليمية الجديدة ، التى تشكل أحد التجمعات البرلمانية المهمة فى الدوما ، وتنتسب إلى تيار الوسط الديمقراطى . بالإضافة إلى « يورى لوجوكوف » عمدة موسكو ، و « شوميكو » رئيس مجلس الاتحاد الفيدرالى ، و « الماريشال كوليسنيكوف » رئيس هيئة الأركان الذى يعارض تدخل المؤسسة العسكرية فى الصراعات السياسية .

ودأبت أجهزة الإعلام المؤيدة ليلتسن على اتهام الشخصيات الثلاث الأخيرة بأنها تخطط مؤامرة للإطاحة بيلتسن ونظامه . وأن هذه المؤامرة تلقى تشجيعا وتجاوبا من الأحزاب القومية والوسط الديمقراطى والشيوعيين الجدد .

حدثنى أحد المفكرين الماركسيين غير التقليديين ، الذى عمل بحماس مع جورباتشوف واختلف معه ، ثم عاد إليه أخيرا مع مجموعة من زملائه ، فقال : حاولنا من خلال البريستورويكا والجلاسنوست ، أن نشفى بلادنا وشعبنا ، من عقدة الحزب الواحد والزعيم الواحد والرأى الواحد . كنا ندفع الأمور بسرعة إلى التغيير ، فى مجتمع لم يكن مستعدا بعد . وفى مواجهة دولة مركزية ثقيلة أداؤها متخلف عن العصر ، وحزب حكمه الموظفون البيروقراطيون أصحاب الامتيازات والمصالح ، بعد أن طردوا منه أو جمدوا فيه ، الأعضاء الثوريين المناضلين . مجتمع سرقت منه الروح والعافية إثر السنوات الأولى للثورة وخاصة بعد وفاة لينين سنة ١٩٢٤ ، والسنوات الأولى من حكم ستالين حتى بداية محاكمات التطهير الكبرى وتطبيق نظريته فى بناء « اشتراكية التكنة » بالأوامر الفوقية الحاسمة الباترة التى كان يعتبر مجرد مناقشتها خيانة للوطن والحزب والاشتراكية .

وهكذا غابت ، بل قل اغتيلت الديمقراطية فى هذا المجتمع الذى تربى طويلا تحت نير القيصرية من أجل روسيا الإمبراطورية العظمى ، ثم تحت القهر الستالينى من أجل وطن الاشتراكية الأول والأعظم .

واستطرد محدثى يقول :

« خلال عهد الركود البريجينيفى ، الذى قطع الطريق على أول إصلاح اشتراكى قام به خروتشوف ، ثم محاولة الإصلاح الثانى التى قام بها ألكسى كوسيجين ، حمّلنا بريجينيف بعناده وغبائه أثقال تكلفة سباق التسلح المجنون مع أمريكا والغرب الأوروبى مجتمعين ، حتى بدد قوانا الاقتصادية والاجتماعية ورهن مستقبلنا للمجهول . كنا نرى كل شيء يتداعى من الداخل رغم مظهره الخارجى البراق . تخلفنا فى كل شيء إلا السلاح . ليس بالسلاح وحده ، بل ليس بالسلاح أبدا ، تعيش المجتمعات والبشر والدول وتتقدم وتقوى . ولو لم يأت جورباتشوف أو غيره بثورة إصلاحية ، لكانت الكارثة على بعد خطوات محدودة . لذلك كان هاجسنا ، العمل للتغيير بأكبر معدل سرعة ممكن ، قبل أن تدهمنا الكارثة . ولكن السرعة فى التغيير كانت هى فى الواقع التى تقربنا أكثر من الكارثة . خاصة بعد أن استسهلنا الإصلاح السياسى الذى تجاوز بخطوات واسعة أى إصلاحات إقتصادية أو إجتماعية . ووجدنا أنفسنا تائهين فى غابة متوحشة من الأحزاب ، التى كان معظمها مجرد تجمعات شللية بلا برامج

أو أهداف ، اللهم إلا القفز إلى السلطة أو الاتجار فى السوق السوداء . وأمتلأت الغابة بالأفاقين والمغامرين السياسيين من كل لون . كل يرفع شعار الديمقراطية ويزعق بالتغيير . كان جورباتشوف أول من اكتشف أن مقتل التغيير الحقيقى هو فى هوس السرعة الذى استبد بنا . شرع يبطىء من حركة التغيير . اختلفنا معه . ولم يكن هناك حزب التغيير الذى نحتكم إليه . كان حزب جورباتشوف والبريستورويكا الرسمى هو الحزب الشيوعى . ولكن الحزب ، كان فى غالبيته ضد التغيير . بدأنا نحن وغيرنا نكون أحزابا للتغيير ، أو ما نتصور أنه تغيير . كل على طريقته . الخلاصة أن كل التيارات العقلانية وغير العقلانية صارت لها أحزاب ، إلا تيار التغيير الحقيقى ، البريستورويكا ، ولعلك تعرف بقية القصة . تركنا جورباتشوف وحيدا مع الحزب الشيوعى ودولته ، اللذين انقلبا عليه . ومهد انقلابهما الطرق أمام الديماجوجيين من أمثال يلتسن وجماعاته « الشوارعية » ممن أسموا أنفسهم بالديمقراطيين الراديكاليين .. اليوم نعود للتعاون مع جورباتشوف ، بعد أن وقعت الكارثة وانهار الاتحاد السوفيتى والاشتراكية والديمقراطية الوليدة . نحاول أن نؤسس حزب البريستورويكا لانتشال روسيا من الكارثة ثم التغيير . هل ننجح ؟ المسألة صعبة للغاية . ولكن ليس أمامنا إلا المحاولة سواء بجورباتشوف الذى ما زال مترددا ، أو بدونه » .

فى تقدير كثير من المراقبين فى الساحة السياسية ، أن ثمة حزبا جديدا فى حالة مخاض عسير ، يقوم على أساس منهج البريستورويكا فى زواج الاشتراكية بالديمقراطية ، والقطاع العام بقطاع خاص فى سوق مفتوحة ، ونسج علاقات كونفدرالية طوعية جديدة تؤمن المصالح الاقتصادية المشتركة بين روسيا وبين الجمهوريات التى كانت تكون معها من قبل الاتحاد السوفيتى . ويطرح ، بالتالى ، مع جورباتشوف أو بدونه ، برنامجا بديلا ونظاما بديلا .

لكن ماذا يكون وزن وموقع مثل هذا الحزب ؟ ممن يتكون ؟ وكيف يعمل ؟ وإلى أين يتجه بتحالفاته ، وسط غابة الأحزاب الروسية الراهنة التى تعانى فى وجودها وحركتها وصراعاتها وانقساماتها ، نفس الأزمة العاتية التى يكابدها النظام ، الذى تستهدف إسقاطه ؟

يكاد يكون من المستحيل الوقوف على إحصاء دقيق لعدد الأحزاب الراهنة . ففى كل يوم تشهد الساحة موت أحزاب وميلاد أحزاب جديدة . تتغير مواقفها وتحالفاتها بين يوم وليلة . ويمكن القول أن هوس تأليف الأحزاب الذى

صاحب التعديل الدستورى ، خلال السنة الرابعة من حكم جورباتشوف بإنهاء احتكار الحزب الشيوعى للعمل السياسى والسماح بالتعدد الحزبى ، قد هدأ نسبيا . وانكمش عدد الأحزاب ، طبقا لإحصائيات وزارة العدل فى الاتحاد السوفيتى فى يناير ١٩٩١ ، من ٩١ ألف حزب وجماعة وتنظيم سياسى ، إلى عدة مئات مع نهاية عام ١٩٩٤ . ولكن كم مئة بالضبط ؟ لا أحد يدرى .

هناك أحزاب لا يزيد حجمها التنظيمى عن ظل أنف زعيمها ، بغض النظر عما تستطيع أن تحصل عليه من أصوات فى الانتخابات نتيجة ظروف طارئة أو استثنائية ، مثل الحزب الليبرالى الديمقراطى بزعامة فلاديمير جيرينوفسكى . وهناك أحزاب أخرى أقرب إلى المافيا العائلية التى تعبر عن مصالح الزعيم وشركائه ، والذى يكون فى العادة من أكبر أغنياء الروس الجدد . والمثال الصارخ لذلك هو حزب « الحرية الاقتصادية » بزعامة « قسطنطين بوروفوى » رئيس بورصة روسيا للبضائع والمواد الخام . والذى يتولى الإنفاق على أنشطة الحزب وجريدته « سروتشنو فنومير » من موارده الخاصة . وكذلك حزب العمل الحر بزعامة « ايفان كيفيلدى » رئيس المجلس المركزى الروسى للاستثمار ، الذى تنطق باسمه جريدة (فيك) . يمتلك إمكانات مالية كبيرة ، على الرغم من أن عدد أعضائه لا يتجاوز الألف عضو .

هذه النوعية من الأحزاب تدعم ، فى العادة ، نظام الرئيس يلتسن . تدعو إلى تحرير الاقتصاد من جميع القيود ، وتحويل مؤسسات القطاع العام إلى شركات مساهمة تدخل البورصة . وترفع دائما شعارات ضمان واحترام حقوق الإنسان .

والظاهرة اللافتة للانتباه ، أنه بقدر كثرة عدد الأحزاب فى الساحة الروسية فإن عدد المنضوين تحت رايتها لا يزيدون ، فى أحسن الفروض على مليونين ونصف المليون مواطن ، فى بلد يتجاوز تعداده ١٤٨ مليون نسمة . وبالتالى فإن مأزقها الحقيقى يكمن فى أنها تتزاحم على السباحة فى بحيرة سياسية ضيقة وضحلة .

حتى عام انفراد يلتسن بالسلطة فى روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتى فى آخر ١٩٩١ ، كان المناخ السياسى السائد يتعامل فى تصنيفه لاتجاهات هذه الأحزاب بمعايير مناقضة لكل ما تعارف عليه التاريخ الإنسانى . بمعنى أن الحزب الشيوعى وغيره من الأحزاب التى كانت ذات توجه اشتراكى ما ، تصنف بالأحزاب اليمينية الرجعية المعادية للتغيير ، وأحيانا الفاشية . فى حين أن

الأحزاب اليمينية المعادية للاشتراكية ، كانت تندرج تحت وصف الراديكالية الديمقراطية ، وأحيانا التقدمية .

غير أنه بعد قيام جمهورية روسيا الاتحادية وانفصالها عن الاتحاد السوفيتى ، اعتدلت المعايير من جديد لتساير الأعراف السياسية العالمية .

فى إطار المعايير الدولية ، يمكن رسم خريطة لأهم الأحزاب السياسية الراهنة العاملة بالساحة على أساس مجمل حجمها ، وقوامها التنظيمى ، وحركتها السياسية ، ونشاطها فى الشارع ، وقوتها التصويتية فى الانتخابات . وذلك من خلال تسكينها فى ثلاث جبهات . وذلك بحسب اتجاهاتها السياسية والفكرية ، وما تعبر عنه من مصالح اقتصادية – اجتماعية . ونقصد بهذه الجبهات الثلاث ، التقسيم العام إلى يمين ووسط ويسار .

□ فى جبهة اليمين ، نلحظ نوعين من الأحزاب :

● النوع الأول ، يتمثل فى تلك الجماعات التى انشقت عنها الأرض منذ عام ١٩٨٩ ، باسم الأحزاب الليبرالية الديمقراطية أو الراديكالية الديمقراطية . واستهدفت إحداث قطيعة سريعة ونهائية مع الاتحاد السوفيتى والاشتراكية والحزب الشيوعى والبريستورويكا وجورباتشوف . ونصبت يلتسن زعيما منقذا للبلاد ، يقود عملية بناء ما أسمته بنظام ديمقراطى ليبرالى من حول آليات السوق الحرة والخصخصة الكاملة والسريعة للقطاع العام والالتحاق بالنادى الغربى الأمريكى – الأوروبى .

الملاحظ أنه على الرغم من محدودية القوى الاجتماعية التى تستند إليها هذه الأحزاب ، إلا أنها امتلكت إمكانات مالية هائلة منذ البداية ، وأجهزة اتصالات واعلامية حديثة استوردت معظمها من الخارج . واستقطبت – بصورة ملحوظة – أبرز الشخصيات من اليهود الروس النشيطين فى الحياة الفكرية والإعلامية والاقتصادية .

فى مقدمة هذه الأجزاب ، « **حركة روسيا الديمقراطية** » وهى إحدى القوى التى قامت بالدور الأساسى فى دعم يلتسن خلال صراعه مع جورباتشوف ، حتى أوصلته إلى رئاسة البرلمان (مجلس السوفيت الأعلى) ثم رئاسة الجمهورية . تأسست الحركة فى أكتوبر ١٩٩٠ بزعامة ليف بونماريوف والراهب جليب ياكونين ويلينا بونر أرملة العالم الفيزيائى الشهير أندريه سخاروف . ويتكون

المحور التنظيمى لها من رجال الأعمال الجدد ، وخاصة فى مجال التصدير والاستيراد والمضاربات المالية ، وكبار الموظفين فى الدولة والتكنوقراط ، وقطاعات من المثقفين المعادين لكل ما يمت للشيوعية بصلة .

شاركت الحركة فى يونيو ١٩٩٣ فى الائتلاف الانتخابى الكبير الذى تكون باسم « **خيار روسيا** » بزعامة ايجور جيدار ، والذى عرف بأنه حزب الرئيس يلتسن والذى لم يستطع أن يحقق فى انتخابات الدوما فى ديسمبر ١٩٩٣ ، ما كان منتظرا من أغلبية كبيرة ، إذ لم يحصل إلا على ١٤٪ من أصوات الناخبين . وكان « خيار روسيا » قد أسقط من قوائم مرشحيه عددا من زعماء الحركة وفى مقدمتهم بونماريوف . الأمر الذى أحدث انشقاقات فيها .

وهناك حركة « **الإصلاحات الديمقراطية الروسية** » التى كانت تأسست فى فبراير ١٩٩٢ بمبادرة من ادوارد شيفارنادزه وألكسندر ياكوفليف والاقتصادى المعروف شتالين . وذلك بعد خلافهم مع جورباتشوف فى قيادته للبريسترويكا ، وخاصة حول موقفه من استمرار الحزب الشيوعى . وضمت قيادة الحركة بالإضافة إلى هؤلاء ، جافريل بوبوف عمدة موسكو السابق وأناتولى سوبتشاك عمدة سانت بطرسبرج (لينينجراد) الحالى . وقد غادر المؤسسون الثلاثة الكبار الحركة ، وانتقلت القيادة إلى بوبوف . وتضم الحركة التى تقلص عدد أعضائها إلى ما يقرب من عشرة آلاف عضو ، مجموعة من رجال الأعمال وأصحاب المزارع الخاصة الجديدة وبعض فئات الإدارة العليا فى الدولة . وفشلت الحركة فى دخول الدوما فى انتخابات ديسمبر ١٩٩٣ ، حيث إنها لم تحصل على نسبة الـ ٥٪ من أصوات الناخبين .

ويأتى بعد ذلك « **حزب الفلاحين الروس** » الذى تأسس فى سبتمبر ١٩٩٠ بزعامة « يورى تشيرنيتشينكو » . ويؤكد الحزب دفاعه عن مصالح الفلاحين التى يرى أنها تعرضت للعسف طوال العهد الشيوعى . ويدعو إلى تغليب الملكية الخاصة للأرض على سائر أنواع الملكية الأخرى من تعاونية أو حكومية .

ويندرج فى إطار هذه المجموعة من الأحزاب ، عشرات من التنظيمات التى لا تتجاوز حجم العضوية فيها من خمسة إلى عشرة آلاف عضو مثل **حزب روسيا الشعبى** بزعامة المحقق القضائى السابق تلمان جدلان (من أصل أرمنى) . ويدعو لسلطة تنفيذية قوية وسوق مفتوحة بلا قيود ، **والحزب الاجتماعى الليبرالى** بزعامة أناتولى جولوف ، **والحزب الروسى الاجتماعى الليبرالى**

بزعامة فلاديمير فيلين ، **واتحاد روسيا الديمقراطى المسيحى** بزعامة الكسندر أوجورودينكوف ، **والحزب البرجوازى الديمقراطى** بزعامة يفيجينى بوتوف ، **واتحاد روسيا الفتية** بزعامة ديمترى جلينسكى . هذا بالإضافة إلى خيار روسيا ، وحزب الحرية الاقتصادية ، وحزب العمل الحر ..

● أما النوع الثانى من الأحزاب فى جبهة اليمين ، فهو ما اصطلح على تسميته بالأحزاب القومية . وهى فى غالبيتها تشدد على إحياء الوطنية الروسية التى ترفض الذوبان فى الأممية التى جاء بها النظام الماركسى اللينينى . وهى وإن كانت أقرب إلى توجهات السوق والقطاع الخاص المنتج ، لكنها تقبل بوجود قطاع عام إذا اقتضته الضرورات الاقتصادية ، والمصالح الاجتماعية للطبقات الشعبية . وترفض وتقاوم عمليات نهبه تحت ستار الخصخصة لصالح الرأسماليين الجدد الطفيليين . وكذلك التبعية للغرب وديكتاتورية السلطة . ومن هنا تلتقى فى أرضية مشتركة مع الحزب الشيوعى الجديد ، فى معارضتها لنظام يلتسن . وذلك فى إطار ما أصبح يعرف فى روسيا باسم « المعارضة اليمينية – اليسارية » . وتنفتح بعض هذه الأحزاب بقومياتها على ما يسمى بالكيان الروسى الأوروبى – الآسيوى (أوراسيا) والمجال السلافى المسيحى – الإسلامى ، باعتبار أن ذلك امتداد لتاريخ روسيا الذى احتضن فى نسيجه قوميات شرقية صديقة ومتآخية .

فى مقدمة هذه الأحزاب **الاتحاد الشعبى الروسى** ، الذى تأسس بمبادرة من أستاذ القانون الشاب فى سيبريا « سيرجى بابورين » فى ١٩٩٢ ، والذى برز كأحد أقطاب المعارضة ليلتسن فى البرلمان الذى حل وقصف بالمدافع فى سبتمبر – أكتوبر ١٩٩٣ . واكتسب شعبية كبيرة . ويستهدف الحزب بناء « الدولة الروسية القومية الموحدة » على أساس ديمقراطى ، واقتصاد يزاوج بين القطاع العام والقطاع الخاص ، واستقلال وطنى عن الغرب . وركزت جماعة يلتسن على محاربته ، وسرقت من مقره كشوف توقيعات الناخبين اللازمة لاشتراكه فى انتخابات الدوما فى ديسمبر ١٩٩٣ . الأمر الذى اضطر زعيمه إلى ترشيح نفسه بصورة فردية . وفاز بأغلبية كبيرة .

وهناك **جبهة الإنقاذ الوطنى** ، وهى التى تكونت خلال احتدام معركة المعارضة مع يلتسن فى ١٩٩٣ . وضمت معظم القوى القومية والشيوعية المعارضة للنظام . وذلك من خلال برنامج مشترك ، يقوم على بناء دولة الوحدة فى إطار ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى . والدفاع عن الديمقراطية وحقوق

الإنسان . ودعم مصالح المنتجين الوطنيين فى مواجهة الطفيليين . والالتزام بمبادىء العدالة الاجتماعية . وجهرت الجبهة بإسقاط يلتسن وتشكيل حكومة إنقاذ وطنى . الأمر الذى دفع بيلتسن إلى حلها ، ولكن المحكمة الدستورية حكمت ببطلان الحل . وبعد أحداث حل وضرب البرلمان فى أكتوبر ١٩٩٣ ، أصدر يلتسن مرة أخرى ، مرسوما بحلها . وألقى القبض على رئيسها « أيليا قسطنطينوف » ضمن « زعماء البرلمان العصاة » . وشهدت الجبهة عددا من الانشقاقات . ولكنها لا تزال – بقدر أو بآخر – تنسق حركة « المعارضة اليمينية – اليسارية » داخل الدوما .

يرصد المراقبون ضمن هذه المجموعة من الأحزاب القومية ، « **التجمع القومى الروسى** » الذى تأسس من حول فكرة بعث الدولة الروسية القومية . وذلك من خلال الانتماء السلافى كجذور تاريخية للشعب الروسى ، والانتماء للمسيحية الأرثوذكسية كتراث روحى للأمة الروسية . واعتماد الديمقراطية وضمان الحقوق السياسية والاقتصادية للشعب والأفراد معا . وحماية الاستقلال الوطنى ضد الاختراقات الغربية . وكان لهذا التجمع قيادة ثلاثية تتكون من ألكسندر ستيرليجوف الجنرال السابق بالمخابرات ، والكاتب والروائى الشهير فالنتين راسبوتين ، وأحد زعماء الحزب الشيوعى المنحل جينادى زوغانوف ، الذى خرج من التجمع بعد إعادة تأسيس الحزب الشيوعى الروسى الجديد وانتخابه رئيسا له . وكذلك **الحزب الدستورى الديمقراطى** ، الذى يعتبر نفسه وريثا للحزب الذى حمل نفس الأسم عندما تأسس عام ١٩٠٥ ، خلال ما عرف فى التاريخ الروسى بالثورة البرجوازية الوطنية الديمقراطية التى تزعمها كيرنيسكى . ويرأس الحزب عضو البرلمان السابق (مجلس السوفيت) ميخائيل استافييف . ولم يستطع الحزب خوض انتخابات الدوما فى ديسمبر ١٩٩٣ . وأيضا **الحركة الديمقراطية المسيحية** ، التى يتزعمها الكاتب والفيلسوف المسيحى فيكتور اكسوتشيش . ويهتم بحماية تقاليد الأسرة الروسية والأسس الاخلاقية للمجتمع . ونجح نواب الحزب فى البرلمان السابق فى تشكيل اللجنة البرلمانية « لحرية الضمير والمعتقد والبر والإحسان » ، واستصدار قانونين شهيرين . الأول خاص بضمانات حرية المعتقد . والثانى باعتبار يوم ميلاد المسيح عيدا رسميا للدولة . **وحزب الوحدة القومية الروسية** ، الذى يصنف بأنه أكثر الأحزاب القومية تطرفا . يتزعمه ألكسندر باركاشوف ، الذى يلقبه الديمقراطيون بأنه « عمدة الفاشيست » . ويدعو الحزب إلى تطهير روسيا من كل الشوائب غير

الروسية ولو بالقوة . وللحزب تنظيمات مدربة تدريبا عسكريا وتحمل شارات شبيهة بالشارات النازية والفاشية كما كان الوضع فى المانيا وإيطاليا .

ويميل معظم المراقبين إلى وضع **الحزب الليبرالى الديمقراطى** الذى يتزعمه جيرينوفسكى صاحب نظرية القفزة الروسية الأخيرة إلى الجنوب ، فى موقع وسط بين مجموعتى أحزاب جبهة اليمين .

□ فى جبهة الوسط ، مجموعة من الأحزاب ينتظمها بشكل عام توجه أساسى لبناء نظام ديمقراطى متعدد الأحزاب ، واقتصاد مختلط يفتح الأبواب أمام القطاع الخاص المنتج . ويحتفظ للدولة بدور ترشيدى للاقتصاد وبمساهمات ذات وزن مؤثر فى الإنتاج الزراعى والصناعى والخدمات الاجتماعية للمواطنين . تقف موقف المعارضة من ديكتاتورية يلتسن المقنعة ، وعدم كفاءة وفساد المحيطين به من « صبيانه » ، وكذلك مجموعات الروس الجدد من الطفيليين والمافيات المرتبطة بها .

يبرز فى الصدارة **الحزب الشعبى لروسيا الحرة** . وهو الحزب الذى ولد فى رحم جماعة « الشيوعيين من أجل الديمقراطية » ، التى أسسها ألكسندر روتسكوى فى عام ١٩٩١ . معتمدا على ما أسماه « كتلة الشيوعيين المستنيرين الديمقراطيين » الذين ضاقوا بجمود الحزب الشيوعى السوفيتى وقتذاك . وضم الحزب فى بداية تكوينه ما يربو على مائتى ألف عضو . وكان بذلك الحزب الثانى من ناحية الحجم فى الساحة . واحتل مركزا قويا فى البرلمان السابق ، قاده فاسيلى ليبتسكى نائب رئيس الحزب ، والذى أنشأ فى البرلمان السابق وفى الدوما بعد فوزه – فرديا – فى انتخابات ١٩٩٣ ، التجمع البرلمانى للصداقة مع البلدان العربية . وعندما تحول الحزب إلى معارضة يلتسن ، وأقيل رئيسه من منصبه كنائب لرئيس الجمهورية ، وأعتقل بعد حل البرلمان السابق وقصفه بالمدافع ، أصدر يلتسن قرارا بحله ، فتحول الحزب إلى العمل السرى . وامتنع عليه المشاركة فى انتخابات الدوما . وبعد الإفراج عن روتسكوى عاد الحزب إلى إعادة تكوين نفسه والتحرك فى الساحة .

وهناك **الحزب الديمقراطى الروسى** ، الذى يتزعمه منذ تأسيسه فى مايو ١٩٩٠ ، نيقولاى ترافكين ، الذى يحمل لقب بطل العمل الاشتراكى منذ العهد السوفيتى . انخرط الحزب فى البداية فى تأييد جورباتشوف ، ثم تحول إلى دعم يلتسن لفترة ، قبل أن يتحول إلى المعارضة ، ويجتذب شخصيات سياسية أسهمت

من قبل فى النظام ، مثل نيقولاى فيودورف وزير العدل السابق ، وسيرجى جلارييف وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية السابق . ويضم الحزب ما يربو على خمسين ألف عضو وله مئات الفروع فى أنحاء روسيا .

ويدرج غالبية المراقبين **حزب الوحدة الروسية والوفاق** ، الذى أسسه فى أكتوبر ١٩٩٣ ، سيرجى شخراى ضمن جبهة الوسط . وذلك على الرغم من أن شخراى ظل يشغل منصب نائب رئيس الوزراء لشئون أقاليم الاتحاد الروسى وقومياته المتعددة . ولعل ذلك يرجع إلى المركز الاستقلالى الذى حرص شخراى عليه داخل النظام ، وانتقاده العلنى لرعونة وفساد الكثيرين من أعوان يلتسن . ولكن يلتسن ظل متمسكا به رغم ذلك ، للاستفادة بما يتمتع به من نزاهة وسمعة سياسية طيبة فى أوساط عديدة من روسيا وخاصة فى الأقاليم وبين القوميات . وكذلك للوزن البرلمانى الذى يتمتع به الحزب فى الدوما والذى يضم ٢٩ نائبا . ويركز الحزب على وحدة أراضى روسيا فى إطار علاقات ديمقراطية بين المركز والأطراف ، ويعارض الحل العسكرى لأزمة شيشنيا . ويدعو إلى إقامة نظام اقتصادى يعتمد على آليات السوق وتوجه اجتماعى تضمنه الدولة .

وأخيرا – وليس آخرا – يأتى ما عرف باسم **حركة الاتحاد المدنى** ، التى تأسست فى منتصف عام ١٩٩٢ . وهى حركة دعا إليها ويتزعمها أركادى فولسكى ، الذى شغل منصب مساعد الأمين العام للحزب الشيوعى السوفيتى فى عهد أندروبوف ، الذى خلف بريجينيف ، ويتولى حاليا رئاسة اتحاد المنتجين الصناعيين . ونشأت هذه الحركة الحزبية من منظمة **اتحاد المجددين** فى روسيا ، والتى ضمت عددا كبيرا من المفكرين والمهنيين ومديرى المصانع الكبيرة ، للقطاع العام والقطاع الخاص وكبار موظفى الدولة والمؤسسات ، الذين اجتمعوا حول برنامج لخلاص روسيا يقوم على بناء دولة ديمقراطية قوية متلاحمة تنبذ النعرات العرقية ، وضمان حقوق الإنسان ، واقتصاد سوق « يتوجه لخدمة الإنسان وتحقيق الشراكة الاجتماعية العادلة بين الأفراد والمجتمع » . وذلك فى مواجهة كل من الجمود الماركسى والقومى وفوضوية الاتجاهات الليبرالية الديمقراطية الرخيصة . وضمت الحركة بالإضافة إلى **اتحاد الصناعات واتحاد الشبيبة الروسى والمركز الاشتراكى الديمقراطى** ، عددا من الأحزاب مثل **الحزب الشعبى لروسيا الحرة ، وكتلة التغيير – السياسة الجديدة** . ولم تتمكن الحركة من خوض انتخابات الدوما فى ١٩٩٣ ، بسبب الخلافات التى ثارت داخلها

حول قوائم الترشيح . ولكنها مع ذلك تتمثل فى الدوما . من خلال عدد من أعضائها الذين فازوا ، سواء على أساس حزبى أو فردى .

□ فى جبهة اليسار ، تتعدد الأحزاب بمسميات مختلفة ورؤى فكرية وبرامج سياسية اجتماعية متباينة ، ابتداء من التشدد الشيوعى بالمنهج الستالينى ، حتى الاشتراكى الديمقراطى بالمنهج المتعارف عليه فى أوروبا الغربية .

يتصدر هذه المجموعة **الحزب الشيوعى الروسى** . وهو ليس فقط أكبر الأحزاب اليسارية . وإنما أكبر الأحزاب العاملة فى الساحة على الإطلاق . يزيد عدد أعضائه على نصف مليون عضو . يتمتع بقوام تنظيمى فعال . وله فروع وقواعد منتشرة فى جميع أنحاء روسيا . وفى الوقت الذى يؤكد فيه على الفكر الاشتراكى العلمى وتراث لينين بصورة محددة ، ويقاوم « عودة الرأسمالية بشرورها إلى روسيا » ، ويناضل من أجل استعادة سلطة الشعب ، فإنه يرى أن ذلك يجرى فى ظروف وطنية ودولية مختلفة جذريا عن كل ما سبق من أوضاع . وفى هذه الظروف الجديدة فإنه يتبنى منهاج التغيير السلمى الديمقراطى من خلال قوة الناخبين والبرلمان . يقبل بالتعدد الحزبى وباقتصاد السوق الذى لا يسقط دور الدولة فى التخطيط ، وضمان البعد الاجتماعى لكل إصلاح اقتصادى . ويعارض عملية الخصخصة العشوائية . ولكنه يعترف بتعدد أشكال الملكية بما فيها الملكية الخاصة . غير أنه يرفض بيع الأراضى الزراعية وتملكها ملكية خاصة . ويطالب بتنظيم وضعها تحت تصرف المزارعين بتنظيماتهم المختلفة مجانا . ويناضل من أجل عقد معاهدة جديدة تعيد الروابط بين روسيا وبقية الجمهوريات التى كانت تشكل الاتحاد السوفيتى . ويؤكد على سياسة خارجية مستقلة .

تأسس الحزب فى فبراير ١٩٩٣ . ويعتبر نفسه وريثا للحزب الشيوعى لروسيا الاتحادية الذى تكون عام ١٩٩٠ ، ضمن إطار الحزب الشيوعى السوفيتى بعد الاعتراف – فى عهد جورباشوف – بالكيان الجمهورى لروسيا داخل الاتحاد السوفيتى . وكان يلتسن قد حظر نشاطه وصادر أمواله ومقاره فى أعقاب انقلاب أغسطس ١٩٩١ الفاشل . وعمد يلتسن إلى إصدار مرسوم – مرة أخرى – بحله بعد إعادة تأسيسه . وذلك لعدة أشهر بعد حل البرلمان وقصفه فى أكتوبر ١٩٩٣ . ولكنه اضطر ، تحت الضغوط وخوفا من مخاطر تحوله إلى العمل السرى ، إلى السماح له مرة أخرى ، بالعمل الشرعى . ويضم الحزب تركيبة من الأجيال القديمة والجديدة من الشيوعيين والاشتراكيين ، فضلا عن عمال القطاع العام

والمهنيين وطلبة الجامعات والمثقفين وأرباب المعاشات والفئات التى أضيرت كثيرا بعمليات الإصلاح الاقتصادى . وفى انتخابات الدوما الأخيرة فاز الحزب بـ ١٥٪ من الأصوات . واحتل المرتبة الثانية بين الكتل البرلمانية . وانتخب « ايفان ريبكين » ، أحد قيادته السابقين ، رئيسا للدوما . يتزعم جينادى زوغانوف الحزب . وهو من القيادات الشيوعية التى كانت قد صعدت ، خلال البريستورويكا ، فى أجهزة الحزب السوفيتى ولجنته المركزية ، وأصبح أحد المسئولين فى مجال الفكر والتثقيف والدعاية .

وينظر إلى زوغانوف باعتباره من ألمع السياسيين الروس المعاصرين ، وأكثرهم قدرة على الحوار وصياغة التحالفات والسياسات العملية . وكان هو مهندس بناء ما سمى « بالمعارضة اليمينية – اليسارية » ، وإيجاد أرضية مشتركة للعمل ضد نظام يلتسن . يعرفه البعض بأنه « شيوعى قومى » . ويطلق عليه البعض الآخر « الشيوعى الليبرالى » . وفى استطلاعات الرأى العام الأخيرة التى جرت فى مارس ١٩٩٥ حول قائمة الشخصيات العشر السياسية الأولى فى روسيا ، احتل زوغانوف المركز السابع فى القائمة لأول مرة .

وهناك حزب « **الكادحين الاشتراكى** » ، تأسس فى ديسمبر ١٩٩١ بمبادرة من المؤرخ الشهير « روى ميدفيديف » الذى كان يعتبر واحدا من أبرز جماعة المنشقين على النظام السوفيتى وقيادة الحزب على أساس افتقادهما لحرية الرأى . وينهج فى برنامجه نهج أحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى أوروبا .

ويأتى بعد ذلك « **حزب البلاشفة الشيوعى** » ، الذى تأسس فى عام ١٩٨٩ على يد الشيوعية المتشددة نينا اندرييفا ، التى اشتهرت إبان عهد جورباتشوف بنشر مقال عنيف ، كان الأول من نوعه ، ضد البريستورويكا باعتبارها تمثل انتكاسا للثورة الاشتراكية . وينطلق الحزب من المنطلقات الستالينية فى بناء الدولة الشيوعية ويعمل من أجل إعادة بناء الاتحاد السوفيتى كما كان . ويتهم نظام يلتسن بالخيانة والعمالة . ويتراوح أعضاء الحزب بين ثمانية وعشرة آلاف عضو . **وحزب العمال الشيوعى** ، وهو حزب صغير متطرف ، ينادى بالثورة من جديد لاستعادة الاتحاد السوفيتى . من أبرز قيادته الجنرال السابق ألبرت مكاشوف الذى نافس يلتسن فى انتخابات الرئاسة عام ١٩٩١ ، وقاد عمليات عنف ضد النظام خلال حصار البرلمان السابق . **واتحاد الأحزاب الشيوعية** الذى يستهدف توحيد

الأحزاب الشيوعية فى الجمهوريات التى كانت تكون الاتحاد السوفيتى . وذلك من أجل العمل المشترك لإعادة بناء الدولة السوفيتية الموحدة من جديد .

ويميل غالبية المراقبين إلى تصنيف **الحزب الزراعى الروسى** ، ضمن جبهة اليسار . وذلك على أساس أن الحزب يتحالف مع الحزب الشيوعى الروسى فى معارضته لنظام يلتسن . وخاصة فى مجال الدفاع عن مصالح سكان الريف والعاملين فى المزارع الجماعية والحكومية ضد محاولات الاستيلاء عليها من الروس الجدد ، بدعم من النظام . يتزعم الحزب ، ميخائيل لابشين ، الذى عمل مديرا لواحدة من أكبر وأنجح مزارع الدولة فى ضواحى موسكو . ويحظى بالاحترام السياسى والشعبى منذ ترأس **كتلة الاتحاد الزراعى** فى البرلمان السابق . وفاز الحزب فى انتخابات الدوما عام ١٩٩٣ بحوالى ١٠٪ من الأصوات وأصبح يكوّن الكتلة الرابعة فيه .

كذلك يدرجون فى جبهة اليسار « **حركة نساء روسيا** » التى أسستها أليفتينا فيدولوفا ، قبيل انتخابات الدوما فى ديسمبر ١٩٩٣ ، وفازت خلالها بحوالى ٨٪ من الأصوات . وتضم الحركة قطاعات واسعة من العاملات فى جميع المجالات الفكرية والإدارية والصناعية على مختلف المستويات . وتدافع عن حقوق المرأة على أساس أن ذلك يمثل ركيزة أساسية لبناء أسرة سوية ، فى مجتمع ودولة ديمقراطيين ، يؤمنان حقوق الإنسان السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وكانت « فيدولوفا » عضوا باللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى . ولكنها استقالت ، فى أغسطس ١٩٩١ ، احتجاجا على الانقلاب .

الغابة مزدحمة بما هو أكثر من هذه الأحزاب المبعثرة المتصادمة التى رصدناها . وربما كان ذلك – فى البداية – يصب فى خدمة نظام يلتسن . لكن الملاحظ – اليوم – أن ثمة اتجاهات فى هذه الغابة ، بدأت تتفق على بناء تحالف مشترك بين أقوى هذه الأحزاب من أجل حشد قوى التغيير فى تيار واحد ، ينهى أسطورة يلتسن ودكتاتوريته ، على الأقل فى انتخابات الرئاسة القادمة التى تحل مع عام ١٩٩٦ . ترى هل ينفتح بذلك طريق جديد للخلاص أمام روسيا المعذبة ؟ .

• الفصل الثانى عشر •

ائتلاف وائتلاف مضاد

تكشف خريطة الأحزاب التى تشكلت فى الاتحاد السوفيتى ثم روسيا ، عن الطابع الفسيفسائى للقوى العاملة فى الساحة السياسية . وذلك على نحو لا سابقة له فى تاريخ العالم . فى أقل من أربع سنوات [١٩٩١ - بدايات ١٩٩٤] انزرعت فى البلاد غابة كثيفة ، تضم آلاف الأحزاب والتنظيمات والتكتلات السياسية من كل شكل ولون .

ما الذى حدث ؟

على امتداد ما ينوف على سبعين عاما ، ظل هناك حزب واحد عملاق . يهيمن - منفردا - على الحركة السياسية فى أكبر بلد فى العالم . يتمتع ببنية تنظيمية سرية ، دقيقة وصارمة ، هى الأولى من نوعها فى تاريخ الأحزاب ، التى كانت وقتذاك - خاصة فى أوروبا - أقرب إلى النوادى السياسية العلنية . تتنافس فيما بينها حول السلطة بزعامات وبرامج إصلاحية ، ضمن أطر النظام وبأسلوب الانتخابات البرلمانية الدورية ، حتى ما كان منها اشتراكيا أو يسارى النزعة .

فى أواخر القرن التاسع عشر ، توصل الثورى الروسى « فلاديمير ايليتش لينين » ، إلى صياغة مبتكرة لنوعية جديدة من الأحزاب تحت اسم « الحزب الشيوعى » ، يتميز تماما عن أحزاب النوادى البرجوازية المعروفة . ليس من أهدافه المشاركة أو التنافس - برلمانيا - على السلطة فى إطار استمرار النظام . وإنما مهمته نسف هذا النظام بسلطاته وأحزابه وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية جميعا . وذلك من خلال ثورة جماهيرية تقودها طليعة واعية ومدربة على أداء

دورها ، فى مدرسة وهياكل هذا الحزب الجديد . ومن هنا جرى صب هذا الحزب فى قالب أشبه ما يكون بتشكيل هيئة أركان حرب الجيوش . فكان الأداة الفكرية والتنظيمية لطليعة الشعب العامل ، فى خوض حرب طبقية فى المجتمع . تبدأ بتفجير الثورة ، وتنتهى بإحكام الاستيلاء على السلطة لصالح الطبقة العاملة المنتصرة ، مع حلفائها من المثقفين والفلاحين الفقراء والجنود .

فى عام ١٩١٧ ، نجح الحزب فى إطلاق الثورة وتأمين سيطرته على الحكم . وحقق بذلك هدفه الذى كان قد صيغ على مقاس هيئة أركان الحرب . وبدأت مرحلة جديدة بهدف جديد ، هو بناء الدولة والنظام الاشتراكيين . لكن الحزب – مع ذلك – بقى كما هو دون تغيير ، رغم تغيير الهدف من « التدمير الثورى » لما كان قائما ، إلى « البناء الثورى » لما يجب أن يقوم .

السؤال الذى يلح على المرء – هنا – هو لماذا بقى الحزب جامدا على صيغة هيئة أركان الحرب . لم يتغير فى بنيته وبرنامجه ووسائله ، مع تغير الهدف بعد إنجاز الثورة . خاصة أن النهج الذى حكمه كان يقوم على أساس وحدة النظرية والممارسة فى تفاعلهما الذى لا ينقطع ، مع ظروف ومتطلبات كل مرحلة ؟ وكان لينين نفسه ، مؤسس الحزب ، قد شرع يتحدث ويكتب عن ضرورة تكييف الحزب مع المهام الجديدة التى باتت منوطة به بعد نجاح الثورة .

فى اجتهاد أولى ، أطرحه للمناقشة ، أجيب عن هذا السؤال بأن الحزب الشيوعى ، وقد فاز لأول مرة فى التاريخ ، « بالنصر المؤزر » فى حرب طبقية شاملة وشديدة التعقيد ، سيطرت عليه نزعة الافتتان بالذات . هل حقق حزب من قبل معجزة كتلك التى حققها ؟!

إن ما حدث فى عام ١٩١٧ ، لم يكن نتاجا لتطور سلمى أو عنيف لصراعات القوى فى مسار حركة اجتماعية معينة ، كما بشرت الماركسية ، أدى إلى نقل المجتمع الروسى من نظام شبه إقطاعى شبه رأسمالى ، إلى نظام اشتراكى خلال زمن تاريخى ممتد . وإنما كان ثورة مصنوعة مدبرة ، استغلت ببراعة الظروف الاستثنائية للحرب العالمية الأولى فى الداخل والخارج . وقفزت على الواقع المتخلف ، وكامل مراحل التطور الطبيعية التى كانت متصورة بهذه الصورة أو تلك ، إلى الاشتراكية ، دفعة واحدة وبضربة واحدة .

هذه – إذن – معجزة هذا الحزب أو « حزب المعجزة » . أعلن وخاض ،

على غير توقع ، حرب الطبقة العاملة الضعيفة ضد الطبقة الرأسمالية العاتية . وحقق من خلال هذه الحرب ما يمكن أن يسمى بانتصار « المظلوم الدائم » [العامل المستغل أو الإنسان المطحون الذى لا يملك غير فقره وأغلاله] على « الظالم الدائم » [الإقطاعى المستبد أو الرأسمالى المستغل أو المالك لكل شىء] . غير أن هذا الانتصار ظل محققا فى موطن محدود غير آمن ، لم يمتلك أسباب المنعة بعد ، محاصرا بكل « الذئاب الرأسمالية » فى العالم . صحيح أن هدفا جديدا قد برز أمام الحزب ، وهو هدف بناء نظام اشتراكى ، المفترض أن يكون أكثر عدلا وأكثر تقدما وأكثر حرية وديمقراطية من النظام الرأسمالى . ولكن الهدف الأول ما زال قائما وبشدة . وهو هذا الذى يتجسد فى حماية المواطن المنتصر وضمان استمرار وجوده . وتواضعت القيادات بزعامة ستالين الذى خلف لينين ، إلى أنه حتى يأتى اليوم الذى يتأكد فيه توافر ضمان الحماية وتأمين الوجود ، فإنه يصبح من الخطر ، إن لم يكن اقترافا للخيانة ، إحداث تغييرات فى بنية الحزب وبرامجه ووسائله فى التعامل السياسى الديمقراطى مع المجتمع والمواطنين .

ولم يأت هذا اليوم أبدا ، على مدى اثنين وسبعين عاما .. وحتى انهيار الاتحاد السوفيتى فى نهاية عام ١٩٩١ .

مع الزمن والسلطة ، تضخم الحزب بملايين الناس التى سعت ، عن قناعة أو عن نفاق ، إلى عضويته . وهبته كل شىء ، حياتها وروحها وعقلها ومستقبلها . وذلك فى مقابل مسئوليات وامتيازات ، تتصاعد مع تصاعد درجة العضوية . وصار هو العقل الجمعى الذى لا يخطىء . الأب والأم والملاذ والهيلمان والحكم العادل الذى لا يحيد ولا يميل . وهكذا ، منذ ألقت الثورة عصاها على الأرض ، صار الحزب هو الأفعى الكبرى التى التهمت كل الحيات الأخرى فى البلاد . لم يعد هناك رأى غير رأيه ، ولا موقف إلا موقفه . وذلك إزاء كل قضية ، صغيرة كانت أو كبيرة . ابتداء من تحديد سعر علبة الكبريت ، إلى التصريح بعرض فيلم أو طبع كتاب ، إلى إقرار برامج التعليم ، إلى ما ينتج أو لا ينتج من سلع ، إلى أزمة الصواريخ الكوبية مع الولايات المتحدة الأمريكية .

لم يعد فى البلاد سياسة أو سياسيون إلا داخل الحزب . وانسحبت الساحة السياسية كلها من المجتمع لتغدو أسيرة مقارّ الحزب ومستوياته التنظيمية . وذلك قبل أن يحتكرها الأمين العام للحزب والدائرة الضيقة حوله من المعاونين .

وخاصة بعد أن صفى ستالين ، إثر وفاة لينين المبكرة فى ١٩٢٤ ، كل ما كانت تسمح به البنية التنظيمية للحزب وآلياته من مناقشات وحوارات حول جميع القضايا ، فيما كان يعرف باسم « المركزية الديمقراطية » ، قبل اتخاذ القيادة القرار النهائى فى كل قضية ، على ضوء حصيلة المناقشات .

ربما يكون قد ساعد على بلورة هذه « الصنمية الحزبية » ، عديد من العوامل . لعل أهمها جدة التجربة لكل من الثورة والنظام الاشتراكى ، موت لينين المبكر ، الحرب الأهلية ، وحروب التدخل الرأسمالية ضد النظام الوليد بعد الثورة ، ديكتاتورية ستالين وما صاحبها من ظاهرة عبادة الفرد التى تفاعلت مع المخزون الروسى الروحى حول المسيح المخلّص من العذابات ، المقاومة ضد النازية فى الحرب العالمية الثانية . ثم تحديات الحرب الباردة ، وسباق التسلح النووى ، وثورة العلم والتكنولوجيا .

بيد أن هذا كله ، وإن كان يوضح ويبرز الظروف القاسية المحلية والدولية ، التى كان يجرى خلالها بناء النظام السوفيتى الاشتراكى ، إلا أنه لا يبرر استدامة الوضع الاستثنائى للحزب الشيوعى . وذلك سواء كحزب وحيد يحتكر السلطة والفكر والعمل السياسيين فى المجتمع . أو كحزب هيئة أركان الحرب ، الصارم التنظيم الذى صاغه لينين لتحقيق هدف خارق للعادة وهو الثورة الاشتراكية ، من خلال حرب طبقية .

غنى عن البيان أننا نصدر فى تقويمنا هذا ، عن وعى اليوم ، بعد دوامة العواصف المهلكة التى طوحت بالاتحاد السوفيتى ونظامه الاشتراكى . وليس بوعى الأمس ، حيث كان كل شىء يبدو ناجحا ويسير على درب التقدم واللحاق بالرأسمالية وهزيمتها ، كما كانت تؤكد وثائق وتقارير الحزب الشيوعى . وتحدد موعدا أقصى لذلك ، هو مشارف القرن الحادى والعشرين . وصار هذا الحزب ، بهذه الدرجة أو تلك ، فى ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية والمواجهات الوطنية مع الاستعمار القديم والجديد وركام التخلف ، هو النموذج الأثير عند غالبية قيادات العالم الثالث وكوادرها القومية الثورية ، حتى ما كان منها معاديا للشيوعية . نذكر هنا على سبيل المثال : الاتحاد الاشتراكى العربى فى مصر ، وحزب البعث العربى الاشتراكى فى العراق وسوريا ، وحزب جبهة التحرير الجزائرية ، وحزب الثورة فى غينيا الأفريقية الخ ..

الخلاصة ، إذن ، أن الحزب الشيوعى بالتحديد ، وليس المجتمع

أو الدولة ، بات هو الجماعة الوحيدة والمغلقة على نفسها ، التى تنطلق منها جميع المبادرات على المستوى النظرى والعملى على السواء . وفى جميع المجالات ، من المسرح حتى القوات المسلحة ، ومن تربية الأطفال حتى الصحافة والتليفزيون . وباسمه ومن أجل تعظيمه ، يتم كل إنجاز على المستوى الفردى والجماعىَ ، فى القرية والمدينة والجامعة والسيرك وأبحاث الفضاء .

والخلاصة أيضا ، أن المواطن الروسى ، لم يكن يحق له أن يمارس حقوقا سياسية إلا إذا تمتع بعضوية الحزب . وحتى عندما كان يغدو عضوا ، وخاصة منذ الفترة الستالينية حتى عصر بريجينيف باستثناءات محدودة فى عهد خروتشوف ، فإنه صعب عليه إلى درجة الاستحالة ، ممارسة أى حق من حقوقه السياسية التى يقررها الدستور على الورق . وذلك بعد العسف بالنظام الديمقراطى الداخلى للحزب . ومصادرة الحوار بالرأى والرأى الآخر فى المستويات التنظيمية المتدرجة ، التى باتت مجرد كيانات شكلية مفرغة من أية مسئوليات . ابتداء من المؤتمر العام للحزب حتى المكتب السياسى مرورا باللجنة المركزية وأمانتها . واختزال الحزب فى النهاية فى شخص الزعيم الملهم المطاع الذى يحتكر الحقيقة والحكمة ما دام فى موقعه كأمين عام ، تحف به مجموعة الموظفين الحزبيين البيروقراطيين الذين يجيدون الرطانة بلغة « السحر الاشتراكى » ، ويعششون فى سراديب الحزب ويمتلكون أختامه ومفاتيحه .

حين هبت رياح البريستورويكا والجلاسنوست فجأة ودون توقع ابتداء من عام ١٩٨٥ ، أخذ احتكار الحزب الشيوعى للعمل السياسى فى التصدع . بدأ جورباتشوف ، الأمين العام ، يخاطب المواطنين فى الشوارع والمؤسسات فى المجتمع كما يخاطب أعضاء الحزب وكهنته سواء بسواء . يطلب النصيحة ويحرك الناس للتفكير وإبداء الرأى واتخاذ المواقف .

لم يعد الحزب تلك القلعة المهيبة الساحرة التى يسكنها الآلهة الكبار والصغار ، كجبل الأوليمب فى الأساطير الإغريقية ، منعزلة عن مجتمع الناس ، لكنها تطل عليه ، تراقبه ، توجهه ، تنظم حياته ، وتعاقب كل من تسول له نفسه أن يتمرد أو حتى يراجع تعاليم القلعة وكهنوتها الحزبى . صار الحزب بيتا سياسيا عاديا يسكنه بشر مسئولون يصيبون ويخطئون ، جدرانه من زجاج مفتوح الأبواب والنوافذ أمام تيارات المجتمع وأفكاره وضجيجه . باختصار راح يفقد هيبته وقدسية أسراره .

وهكذا شرعت ساحة المجتمع البور ، الجرداء من الزرع السياسى ، تينع هنا وهناك على استيحاء ببعض الخضرة السياسية والكلام المختلف نوعا ما عن كلام الحزب السائد . وشيئا فشيئا مع أفعال وردود أفعال البريستورويكا ، راحت تدب الحركة بالرأى والتنظيم المستقلين فى المجتمع . ومع بدايات عام ١٩٩١ ، انهارت كل السدود الدستورية والعملية التى كانت تحمى احتكارية الحزب الشيوعى للسوق السياسية . وانفتحت السوق ، دون قيود ، أمام كل من هب ودب ، ليكون زعيما سياسيا أو مشاركا فى تأسيس حزب أو جماعة أو منبر ، من حول ما يشاء من برامج وأهداف . وليس عليه إلا أن يسجل حزبه فى وزارة العدل ويفتح دكانه فى الساحة .

أصابت حمى تكوين الأحزاب ، الجميع ، لأسباب ودوافع مختلفة . منها محاولة تأكيد استقلالية الذات والرأى والموقف عن الحزب الشيوعى . أو حتى كنوع للانتقام من هذا الحزب بطرح البديل المضاد لكل نظرياته وأهدافه . ومنها أيضا ، استعادة الهويات القومية المتعددة التى كان يجرى إذابتها فى الكيان السوفيتى الأممى ، بما فى ذلك القومية الروسية نفسها ، كبرى القوميات فى هذا الكيان .

كان الموقف غريبا غير مألوف . فجأة ، من حزب واحد وحيد لا شريك له ، إلى آلاف من الأحزاب والتنظيمات السياسية المنافسة والمعارضة والمناوئة . ومن ساحة سياسية ضيقة محدودة بالملايين التسعة عشر الأعضاء فى الحزب الشيوعى ، إلى ساحة كبيرة ممتدة على اتساع الاتحاد السوفيتى بملايينه التى قاربت الثلاثمائة مليون نسمة . ومن الممارسة السياسية كامتياز ، ولو شكلى ، للمواطن عضو الحزب ، إلى حق مكفول لكل مواطن فى البلاد ، بغض النظر عن انتمائه أو عدم انتمائه للحزب الشيوعى . من الهدوء السياسى المحكوم المنظم ، إلى الضجيج والانفلات والفوضى باسم الحرية السياسية .

إن النظرة المحورية التى بررت وحدانية الحزب الشيوعى ، كانت تقوم على أساس أن الحزب هو تعبير فكرى – سياسى عن المصالح الاقتصادية والاجتماعية لطبقة معينة أو جزء متميز منها ، أو تحالف بين عدد من الطبقات . وأنه ما دام التقسيم الطبقى المعروف فى النظم الرأسمالية قد تمت تصفيته فى النظام الاشتراكى ، إذن لم تعد هناك حاجة إلا لحزب واحد للطبقة الوحيدة ، التى انتصرت وأصبحت مسئولة عن بناء النظام الجديد .

من هنا انطلقت – فى أواخر الثمانينيات – من داخل الحزب الشيوعى مقاومة عنيفة ضد حركة إنهاء احتكار الحزب للعمل السياسى ، والإقرار بحق المواطنين فى إنشاء أحزاب جديدة . وذلك بدعوى أنه لا توجد فى المجتمع الاشتراكى ، طبقات أخرى أو متناقضة فى مصالحها مع الطبقة العاملة ، التى أصبحت هى كل الشعب ، تبرر تكوين أحزاب مستقلة معبرة عنها ، على خلاف الحزب الشيوعى .

غير أن هذه المقاومة ، اصطدمت بأفكار وتيارات مغايرة على درجة غير مسبوقة من القوة والإصرار . بعضها من داخل الحزب الشيوعى نفسه . وبعضها من خارجه . وكلها تصب فى اتجاه إنهاء احتكار الحزب الشيوعى للعمل السياسى ، الذى أصبح رغم قوته وحجمه غير العاديين – وهنا تكمن المفارقة التاريخية – أضعف وأضيق من أن يستوعب ما استجد من متغيرات ومتطلبات المجتمع والدولة والإنسان ، فى نهاية القرن العشرين .

كان هناك شيوعيون ، قد توصلوا منذ زمن قبل البريستورويكا ، إلى أنه حتى مع التسليم بتحول الشعب إلى طبقة واحدة ، فإن هذه الطبقة لا تتكون من فئات وأفراد على تكامل وتساوى ميكانيكى فى المصالح . وإنما هناك تفاوت وأحيانا تعارض فيما بين هذه الفئات وهؤلاء الأفراد المنضويين داخل غلاف الطبقة الواحدة . وذلك بحكم نوعية العمل وظروفه ومكانه وما يترتب على ذلك من مستويات اجتماعية وثقافية متباينة ، مما يجعل من حقهم تكوين أحزاب تمثلهم فى مسار بناء المجتمع والدولة الاشتراكيين . بمعنى أنه إذا كان من المفترض أن بناء الاشتراكية هو المصلحة العامة الموحدة لكل أبناء الطبقة ، إلا أنه حول كيفية بناء النظام الاشتراكى وتحديد أولوياته الخ .. لا يتصور تطابق مصلحة مديرى المؤسسات مع عمالها تطابقا حرفيا . أو أن مصالح عمال المصانع فى المدن هى نفسها مصالح العمال الزراعيين فى الريف ، أو المثقفين من الفنانين والأدباء والعلماء وأساتذة الجامعات . لا مفر من اختلاف الرؤى ، النابع عن ظروف الحياة المختلفة ، ضمن النظام الاشتراكى الواحد . بتعبير آخر ، يكون من الأفضل ديمقراطيا ، وللتجربة الاشتراكية نفسها ، أن تتعدد الرؤى حول المسار السياسى والاجتماعى والاقتصادى للاشتراكية . وتتحاور فيما بينها من أجل الأصلح والأنسب . وذلك من خلال تعدد الأحزاب الاشتراكية . ومن هنا تولدت ظاهرة المنشقين على الحزب بدرجاتها المختلفة منذ أواخر الستينيات .

جرت محاولات أخرى لإقرار التعددية ، ولو من خلال ما عرف باسم تعدد المنابر ، داخل الحزب الشيوعى نفسه . ولكن هذه المحاولات قمعت بعنف . ودفع كثيرون حياتهم ثمنا لها . وذلك على أساس أنها نوع من التآمر البرجوازى ضد وحدة الحزب القائد لمسيرة الطبقة المنتصرة تاريخيا فى الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية .

وحتى جورباتشوف الذى توصل إلى قناعة فى ١٩٩١ ، بإنهاء احتكار الحزب الشيوعى للعمل السياسى وتعديل الدستور بما يسمح بالتعددية الحزبية ، رفض بقوة فكرة المنابر المستقلة ذات الرؤى والبرامج الاشتراكية المختلفة ، ضمن الحزب الشيوعى . وذلك على أساس أن هذا قد يعرضه للانقسام .

ما أريد أن أركز عليه – هنا – أن مسألة وحدة الحزب الشيوعى ، بقيت مبدأ عقيديا فى حد ذاته للشيوعيين الأقحاح ، إذا صح التعبير . وحتى بالنسبة للعديد من « الديمقراطيين » منهم ، مثل جورباتشوف نفسه .

لكن على أى أساس طبقى ، إذن ، نشأت فى غمضة عين هذه الآلاف من الأحزاب التى لا يزيد حجمها فى كثير من الأحوال على أفراد عائلة كبيرة الحجم نوعا ما . أو مجرد شلة من الأصدقاء .

أثبتت حركة الواقع ، أنه كانت قد نمت على هامش الحزب والسلطة فئات اجتماعية متميزة ، عما عرف باسم الطبقة العاملة أو الشعب العامل السوفيتى . استخدمت ما اتيح لها من مواقع بيروقراطية وامتيازات وعلاقات داخلية أو خارجية فى تكوين ثروات خاصة ، والارتقاء إلى مستوى اجتماعى عالٍ نسبيا . وخاصة مع سنوات عهد الركود البريجينيفى . وعندما جاءت البريسترويكا والجلاسنوست ، كان قد تراكم لديها قدر من رأس المال الفائض عن احتياجات معيشتها المرفهة ، يضغط من أجل الاستثمار الخاص . ويطالب – بالضرورة – بضمانات سياسية وقانونية تحمى حركته . ومن هنا اندفعت مع انكسار سدود الحزب الشيوعى عام ١٩٩١ ، إلى تأسيس « هوجة » الأحزاب التى عرفت باسم « الديمقراطية الراديكالية » . وهى الأحزاب التى تعبر عن فئات اجتماعية ، لم يعد يكفيها أن لها تنظيماتها المستقلة عن الحزب الشيوعى . بل تجد أن لا ضمان لها إلا بإنهاء وجود الحزب الشيوعى ودوره فى المجتمع والدولة ، وسد الطرق على مسار النظام الاشتراكى نفسه ، ولو أدى الأمر إلى تفكيك الاتحاد السوفيتى والخلاص بروسيا وحدها . ثم النفاذ إلى السلطة .

الواقع أن هذه النوعية من الفئات تكونت فى أرضية وسراديب السوق السوداء ، التى انتعشت ونظمت قواها منذ نهاية الستينيات . وتمتعت بغطاء وحماية بعض كبار رجال الحزب والدولة وأقاربهم الذين طالهم الفساد فى ظل احتكار العمل السياسى والسلطة لمدة طويلة . وانتظم الجميع فى شبكة دقيقة امتدت إلى كثير من المؤسسات والأقاليم . تاجرت فى كل شىء ، العملة والسلاح والمواد الخام والسلع الاستهلاكية والغذائية الخ .. فى الداخل والخارج على السواء .

ولم يكن صدفة ، أن هذه الفئات كانت أسرع من غيرها فى النزول إلى الساحة بتنظيماتها وأحزابها المتعددة . ولكن المتسقة مع بعضها فى اتجاه واحد ، يستهدف التحول إلى اقتصاد السوق وخصخصة القطاع العام ، والاتفاق على يلتسن زعيما لهذا التحول .

ثمة أنواع أخرى من الفئات راحت تدلو بدلوها فى الساحة السياسية ، التى انفتحت على مصراعيها . وصعب على البريستورويكا وقيادتها التحكم ، ولو بالترشيد ، فى اتجاهاتها . أو فرز الزائف من الحقيقى فى هذه التجمعات السياسية الهائلة . كان منها المغامر ، ومنها السلفى الذى يريد العودة إلى عصر الإمبراطورية والقياصرة . ومنها أيضا ، أولئك المفكرون والعلماء والتكنوقراط وأساتذة الجامعات والمهنيون عموما ، سواء من داخل الحزب أو خارجه ، الذين سعوا بجدية ، من خلال تأسيس أحزابهم ، إلى إنقاذ الموقف . أو تطوير مسار البريستورويكا . أو اقتراح مشروعات للإصلاح الاقتصادى . أو صياغات جديدة للعلاقات القومية بين الجمهوريات المكونة للاتحاد السوفيتى . أو التصدى لموجات أحزاب تصفية كل شىء تحت اسم الديمقراطية الراديكالية .

اختلط الحابل بالنابل . ولم يعد فى قدرة المواطن الروسى الذى اعتاد الحزب الواحد والرأى الواحد ، أن يتعامل أو يستوعب ، فجأة ، آلاف الأحزاب الصاخبة بآلاف المواقف والآراء فى الساحة . وظل بمكوناته الثقافية والروحية يبحث ضمن هذه الأحزاب عن المخلص الجديد . وهو الوتر الذى برعت أحزاب الديمقراطية الراديكالية فى العزف عليه .

وهكذا ، كما أن الحزب الواحد هو الذى أفرز ظاهرة عبادة الفرد الاشتراكى فى شخص ستالين ، فإن غابة الأحزاب أفرزت بدورها الظاهرة المضادة ، ظاهرة عبادة الفرد الرأسمالى فى شخص يلتسن .

بيد أنه إذا كان ستالين طغى واستبد وقتل ، إلا أنه شيد وأنجز بلدا قويا ووفر العمل والطعام بقدر معقول لكل مواطن . أما يلتسن بعد أن زال عنه القناع الديمقراطى الراديكالى ، فإنه طغى واستبد وقصف البرلمان بالقنابل وغامر مغامرات دموية قاتلة من موسكو حتى جروزنى الشيشانية ، وذلك دون أن يستعيد قوة البلد أو يحفظ للمواطن ما كان له من عمل أو طعام .

مع توالى الأحداث ، التى زادت من اشتعال نيران الجحيم فى روسيا ، دون أن يبدو فى الأفق بصيص من الأمل فى الخلاص ، ومع تفجير أزمة الشيشان التى تتفاعل بدمويتها وقسوتها وجنونها فى الإنسان الروسى إلى الدرجة التى يرجح معها أن تتحول إلى عقدة مماثلة لعقدة فيتنام بالنسبة للإنسان الأمريكى ، أخذت الساحة السياسية ، بعد الفوضى وصعود يلتسن « المغامر المتغرب » إلى السلطة وصعود جيرينوفسكى « المغامر القومى » إلى الدوما ، تشهد نوعا من التحرك المنتظم الذى يتسم بقدر ملحوظ من التوحد التكتيكى ، رغم استمرار ضراوة الصراع .

من ذلك على سبيل المثال ، قيام قادة أحزاب الديمقراطيين الراديكاليين بالانسحاب من مراكزهم فى السلطة مع يلتسن ، ربما باستثناء « أناتولى تشوبايس » نائب رئيس الوزراء لشئون الخصخصة . ولعل هذا كان مقصودا لأنه يحقق مصالحها فى استمرار تصفية القطاع العام . إن هذا الانسحاب ، الذى يشمل أيضا حزب خيار روسيا بزعامة جيدار ، يعنى أن هذه القوى التى دفعت بيلتسن إلى قمة السلطة ليحقق برنامجها ، باتت ترى أنه بعد تجربته الفردية المغامرة فى الحكم ، صار يمثل خطرا على مصالحها فى المدى الطويل . ويؤجل إرساء حالة الاستقرار الضرورية للسوق . بل ويقلص حجمه ، إن لم يدمره ، بممارسة ديكتاتوريته الدموية على أقاليم الاتحاد القومية كما فعل مع شيشنيا . وأخذت هذه الأحزاب تسعى إلى قيام ائتلاف فيما بينها ، يقدم لانتخابات الرئاسة القادمة فى عام ١٩٩٦ ، رئيسا بديلا ليلتسن . ويتردد أن هذا الائتلاف ، إذا قام ، فإنه يرشح ايجور جيدار بالدرجة الأولى ، وجريجورى يفلينسكى صاحب مشروع الإصلاح الاقتصادى فى خمسمائة يوم ، بالدرجة الثانية .

وفى مواجهة هذا الائتلاف ، يقوم ائتلاف مضاد ، يجمع ما أصبح يسمى بأحزاب المعارضة « اليمينية – اليسارية » أو « القومية – الشيوعية » . وهى ترشح للرئاسة بديلا ليلتسن ، كلا من روتسكوى نائب الرئيس السابق ، وميخائيل

لابشين رئيس الحزب الزراعى الروسى ، واركادى فولسكى زعيم حركة الاتحاد المدنى الوسطية ورئيس اتحاد المنتجين الصناعيين والذى عمل من قبل مساعدا للأمين العام للحزب الشيوعى فى عهد يورى أندروبوف . ويضم البعض إلى قائمة المرشحين لهذا الائتلاف تشيرنوميردين رئيس الوزراء الحالى . ورغم أن هذا الائتلاف الذى يعد أكبر وأقوى تجمع حزبى فى الساحة ، قد عقد عدة اجتماعات لتحديد المرشح الأول من بين هؤلاء المرشحين الا أنه لم يستقر على رأى بعد حول الشخص الذى ينعقد عليه الاختيار . وإن كان هذا الائتلاف قد بلور برنامجه فى استعادة استقلال ووزن روسيا على المستوى الدولى . وكبح جماح الروس الجدد . وإيجاد توازن إنتاجى بين القطاع العام والقطاع الخاص . وتغيير الدستور لصالح نظام ديمقراطى ، يقوم على أساس الفصل بين السلطات .

ويبدو أن لعبة الائتلافات قد انتقلت من الساحة السياسية إلى قلب الدوما . ذلك أن يلتسن فى مناورة من أجل سحب البساط من تحت أقدام المعارضين له بائتلافاتهم المتعددة ، طرح بدوره فكرة إعداد ميثاق للوفاق الوطنى تبدأ معه القوى السياسية ، بعد تجارب العداء المتبادلة ، صفحة جديدة من التعاون حول اختيارات سياسية واقتصادية مشتركة جديدة . يعلن التزامه بها . ويتحرك فى هذا الاتجاه شخصيات من أمثال سيرجى شخراى نائب رئيس الوزراء لشئون الأقاليم ، ويورى سكوكوف رئيس اتحاد الصناعيين والذى كان يشغل من قبل سكرتير مجلس الأمن القومى .

إن حركة الائتلافات بدأت ، قبل أن تنفجر أزمة شيشنيا ، وكانت نوعا من الاستعداد لمعركة انتخابات الرئاسة فى ١٩٩٦ . لكن بعد أزمة شيشنيا وتوتر العلاقات بين الأطراف والمركز فى موسكو ، والانقسامات المكشوفة والمستورة فى بنية القوات المسلحة ، واحتمالات نشوب حرب عصابات بين عدد من القوميات المتعاطفة مع الشيشان وبين الروس فى موسكو وعدد من المدن الكبرى ، فإن احتمال سقوط يلتسن ، بصورة أو بأخرى ، قبل نهاية ولايته الدستورية فى ١٩٩٦ ، بات واردا .

وإذا حدث ذلك ، فما هى أرجح التوقعات عند هذه التآلفات التى تقوى من وزن الأحزاب ، التى يتراوح حجمها بين الصغيرة والمتوسطة فيما عدا الحزب الشيوعى الجديد والكبير ، فى الصراع السياسى ؟

إن الدستور يقرر بوضوح أن رئيس الوزراء يتولى بصورة مؤقتة مهام

رئيس الجمهورية فى حالة غيابه أو تغييبه . وهو هنا تشيرنوميردين . ولكن ماذا لو أن يلتسن ، بمزاجه الحاد المغامر ، أطاح بتشيرنوميردين من منصبه قبيل ذهابه . وعين صفيه وحارسه الخاص كورجاكوف [الجنرال راسبوتين] قائما بأعمال رئيس الوزراء . وذلك ليمنحه الصفة الدستورية التى تمكنه من خلافته على رأس الدولة ؟

إن الوضع فى روسيا صار متأزما إلى هذه الدرجة التى باتت تطرح فيها سيناريوهات تراجيدية الطابع ، يمتزج فيها الواقع المر مع الخيال المر أيضا .

سألت : .. وماذا لو حدث هذا فعلا ؟

كان رد البعض : أغلب الظن أن عددا من التآلفات قد تتفق – فى هذه الحالة – على أن تدفع إلى الرئاسة بالجنرال كولينسكوف رئيس هيئة أركان القوات المسلحة ، والذى كان يعارض دوما ، تدخل العسكر فى الشئون السياسية !

• الفصل الثالث عشر •

حالة « ربما لا ... ربما نعم »

لم تسفر حركة الائتلافات والائتلافات المضادة التى نشطت ، فى الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩٤ ، بين الأحزاب والجماعات السياسية المتشرذمة ، داخل الدوما أو خارجها ، عن تغيير يذكر فى حال روسيا الذى يصعب على الشيوعى والكافر بالشيوعية أيضا . كانت الأحزاب قد حاولت من خلال هذه الحركة – وربما لا تزال تحاول بأشكال وصياغات أخرى – أن تعظم من قواها المبعثرة المفتتة كى تفرض ، أو على الأقل ، تشق الطريق إلى بلورة سياسات حاكمة لمسار التغيير ، ذات ثقل شعبى . تنهى أو تجد حلا أو شبه حل لهذه التراجيديا الروسية التى تعلقت آمال الناس ، المدوخين فى دائرتها ، بظهور ذلك المسيح القوى الجبار القادر على صنع المعجزات . ولكن يكون أيضا عادلا رحوما رؤوفا بالعباد .

المشكلة – على حد تعبير فلاديمير موسكوفيتش – أن أكثر من زعيم طرق أبواب روسيا المعذبة ، كان له بسمة المسيح ومهابته وصوته الدافىء المخدر ، ولكن ما إن تغمره الأضواء حتى يتكشف أنه دجال أو بهلوان . ويتعرى زيفه .

فلاديمير موسكوفيتش ، مدرس للغة الإنجليزية ، أحمر الشعر ، عيناه متقدتان من خلف نظارة طبية ، لم أفهم منه جيدا هل طرد من وظيفته أم أنه هو الذى تركها فى أواخر عام ١٩٩٢ ، وخرج إلى الشارع حيث افترش مكانا مع الباعة الجائلين الجدد من الموظفين وأرباب المعاشات والضباط ، الذين يعرضون كل ما يملكونه من تحف أو أشياء صغيرة للبيع حتى يوفروا لأنفسهم ثمن الخبز .

وذلك بالقرب من فندق « راسيا » الضخم الشهير ، الذى يطل على قباب الكرملين والميدان الأحمر .

هذا الرجل ، الذى لم يتجاوز الأربعين من عمره بعد ، يعرض ما يملكه من قواميس ومسرحيات لشو وشكسبير وروايات لهيمنجواى و ج . ويلز الخ .. للبيع .

قال لى فلاديمير : اختر ما تشاء . كل شيء للبيع إلا رواية هيمنجواى « العجوز والبحر » . فأنا أحبها . ولست مستعدا أن أبيع ما أحبه .

سألته : ولماذا العجوز والبحر بالذات ؟

أجاب : أشعر أنها تحكى قصة حياتى فى هذه اللحظة .

قلت : ولكنك أقرب إلى الشباب منك إلى شخصية العجوز فى الرواية .

قال : داهمنى العجز المبكر منذ سقط جورباتشوف وانهار الاتحاد السوفيتى وتفكك .. وربما قبل ذلك أيضا .

سألت : كيف ؟

أجاب : على بداية السبعينيات ، زاغ الأفق من الاشتراكية ، فمات فيها الأمل ، وشاخت . وحين جاء جورباتشوف ظن فى نفسه ، وصدقه الناس لسنوات ، أنه المسيح المنتظر القادر على إحياء ما مات ، وتجديد شباب الاشتراكية ، وضخ دماء الديمقراطية في شرايين الاتحاد السوفيتى . لكن المسيح تاه ، رسالته تهلهلت ولم تعد تقنع أحدا لأن الجميع كانوا قد أشرفوا على الجوع . وأكمل الحواريون القصة ، واغتالوا المسيح حتى قبل العشاء الأخير الذى كان محددا له ذات يوم من ديسمبر ١٩٩١ لتوقيع معاهدة البناء الجديد للاتحاد السوفيتى .

قلت : هل يعنى هذا أن جورباتشوف كان مسيحا دجالا ، فى رأيك ؟

قال : لا . جورباتشوف كان مسيحا حالما وليس المسيح رجل الدولة .

قلت : وما الفرق . أذكر أن الكاتب الانجليزى ج . ويلز الذى تعرض رواياته للبيع وصف لينين عندما زاره بعد الثورة بـ « هذا الحالم الكبير فى

الكرملين » . ومع ذلك كان لينين قد نجح فى تفجير أول ثورة اشتراكية فى التاريخ وشرع يبنى الدولة الاشتراكية .

قال فلاديمير : هذا صحيح ، لينين الحالم فجر الثورة . لكنه لم يبن الدولة ، ظل فقط يحلم بها .. الذى بنى النظام الاشتراكى مسيح آخر جاء من الغابة ، وحشى الروح دموى الحركة . لينين ما إن أطلق حلمه حتى قتلوه قبل أن يحقق اشتراكيته ، التى لم يعرفها هو ولم نعرفها نحن كذلك أبدا . أما ستالين فلم يسمح لأحد أن يقتله . كان هو الذى يقتل الناس . لم يشبع أبدا من القتل . ولكنه مع ذلك أشبع بطون الناس بعد الجوع . وسخرهم فى تحقيق حلمه الاشتراكى ، من بناء الدولة العظمى حتى امتلاك القنبلة النووية . وعندما مل الحلم قتل نفسه بالوحدة والخمر والاستبداد . القصة الآن تتكرر بشىء من التعديل . جورباتشوف هو لينين آخر القرن . فجر الثورة الثانية . وأطلق حلم البريستورويكا الذى بدأ بالديمقراطية وانتهى بالفوضى . وفى الفوضى قتلوه حيا ، مرة ومرات . وجاء يلتسن المسيح الثانى ، من الغابة أيضا . غير أن المشكلة معه ، أنه أفقر الناس وأجاعها على أمل أن يحقق دولة عظمى ديمقراطية رأسمالية ذات سوق منتعشة بالخيرات والعرض والطلب . السوق انفتحت . لكن خيراتها تسرقها المافيا والروس الجدد . والدولة تتقزم ، والديمقراطية لعبة الكبار فقط سواء فى الحكم أو المعارضة . والقضية أن يلتسن لم يمل الحكم بعد ، رغم وحدته وخمره واستبداده .

سألته : وأين أنت من هذا كله ؟

أجاب : أنا هنا فى الشارع ، فى الهواء الطلق خارج هذا الكون العجيب . أحاول أن أكسب خبزى بما أبيعه من قواميسى وكتبى . وتأجيل دخولى حلبة اللعبة إلى أقصى حد ممكن . بيد أنه لا مفر بعد أن يلتهم سمك القرش كل بضاعتى ، كما حدث مع عجوز هيمنجواى ، أن أعمل بالسوق فى خدمة الروس الجدد ، أترجم لهم عقود صفقاتهم . وليس ببعيد إذا صادفنى الحظ ، على الرغم منى ، أن أصير واحدا منهم .

قلت : وإذا حدث هذا ، هل تبيع وقتئذ رواية العجوز والبحر ؟

تأمل الرواية بين يديه قليلا ، قبل أن يقول : لا أدرى . ربما لا . ربما نعم .

هذه العبارة « لا أدرى . ربما لا . ربما نعم » تكاد تكون هى الختام

المشترك الذى ينهى به كل روسى ، فى القاع أو فى القمة ، كل مناقشة معه عن حال روسيا الراهنة واحتمالات المستقبل .

لماذا استمرار هذا الحال « اللا أدرى » . هذا الدوران المفجع فى الفراغ ؟

ألم تكن هذه الائتلافات والائتلافات المضادة ، محاولة من السياسيين ، على اختلاف اتجاهاتهم ومواقعهم فى الحكم أو المعارضة ، لتحريك هذا الحال الراكد فى عبثيته ، وتثويره ، ومقابلة الوهم بالممكن . والإفاقة من ذلك الحلم بالمستحيل ، إلى الحلم بسياسة إصلاحية عملية أكثر رشدا واستقطابا للناس ، يخرجها من أتون هذه التراجيديا . وأن ستالين حتى لو تاب وصار ديمقراطيا ، لم يعد قابلا للوجود فى ظروف روسيا التسعينيات .

كان هذا أو شىء منه مدار حوار آخر مع عدد من الكتّاب والفنانين ذات مساء فى مطعم اتحاد الكتّاب الذى صار تتنازعه أربع منظمات متصارعة . فجأة ، صرخ أحد الفنانين المسرحيين خلال الحوار ، وقد طفق يدور بين الحاضرين بحثًا عن سيجارة مارلبورو لايت أمريكية لأن السجائر الروسية حرقت صدره :

– أنا شخصيا ومعى آخرون كثيرون نحلم بعودة بطرس الأكبر . إنه بطرس لا ستالين ، القادر اليوم على إعادة بناء روسيا الجديدة وتطهيرها من آلامها وعذاباتها .

هبّ بجسد نحيل فارع الطول وقور ، أحد الكتّاب فى ركن من القاعة : لا بطرس ولا ستالين . نحن فى حاجة إلى لينين جديد له ذكاء لينين القديم وانحيازه للشعب والتقدم ، يجمع بين الاشتراكية والرأسمالية والديمقراطية .

أطلق آخر من وسط القاعة ضحكة متموجة . وهو يرفع كأسه : .. ويضمن لنا الجنة أيضا !

أنشب الضحك قهقهاته العالية و الخفيضة فى القاعة . غير أنه بدا لى ، من قسمات الوجوه الآسنة ، أنه ضحك كالبكاء .

كانت هذه هى المرة الوحيدة تقريبا التى يأتى فيها ذكر لينين ، وأسمع اسمه فى أجواء هذه التراجيديا التى تعصف بروسيا . بطرس الأكبر تردد أكثر من مرة ، ولكن قليلا . أما ستالين فإن شبحه واسمه يمجدان كل التمجيد أو يرجمان بكل العنف والقسوة . وحضوره ، الإيجابى أو السلبى ، ما زال طاغيا .

حملت هذه الملاحظة إلى « يفيجيني سيدروف » عميد معهد جوركى للآداب سابقا والذى زاملنا أمينا مساعدا لاتحاد كتاب آسيا وافريقيا ، قبل أن يتولى وزارة الثقافة فى حكومة يلتسن . علق « سيدروف » على هذه الملاحظة بقوله : إن الروس على جميع مستوياتهم الاجتماعية والثقافية يتمتعون اليوم بحرية فى التعبير كانوا ، بقدر أو بآخر ، محرومين منها . هذه الحرية تقودهم إلى إعادة تقييم تاريخهم البعيد والقريب ، القيصرى والاشتراكى . فى القريب الاشتراكى منه ، يحتل ستالين وحده الجانب الأكبر والأبهر والأعنف من ساحة هذا الماضى ، بإنجازاته وإخفاقاته . ومن هنا فإنه أكثر الشخصيات التى رحلت ، حياة فى عالمنا الراهن . تاريخه حافل بالأحداث الجسام ، فيه ما ينكره البعض وفيه ما يحن إليه البعض الآخر بنوع من الشجن القومى . وهو فى غالبية الأحيان المدخل لرؤية أو تحليل الحاضر بكل مشاكله المعقدة .

بدا لى تعليق « سيدروف » ذكيا . صحيح أن الناس باتوا يتمتعون بحرية واسعة للتعبير . يقولون ما يشاءون ، يسخرون من الميت والحى ، من الماضى والحاضر . ولكن يشعر المرء أنها ليست هى الحرية تماما . شىء يشبه الحرية . أو قل حرية غير مسئولة بلا هدف . وربما الأدق القول ، أنها حرية كسيحة فى الزمان والمكان والناس . تفرز السخط . وتعبر عنه بتلك الروح الروسية الخاصة المفعمة بالعذوبة والعذاب معا . لا تتجمع فى تيار مشترك أو تيارات كبيرة ، أقوى من الفرد أو الأفراد ، قادرة على الحركة والتغيير فى المجتمع والسلطة والاقتصاد . هذه النوعية من الحرية تقول كلمات كبيرة ومن العيار الثقيل ، وأحيانا ذكية لماحة وموجعة ليلتسن أو جيدار أو تشيرنوميردين أو روتسكوى أو حسب اللاتوف . لكنها سرعان ما تتبدد ، أو يبتلعها الفراغ ، كأنها ما قيلت أبدا .

ليست هذه هى الظاهرة الوحيدة عن حرية التعبير وحركة الأفكار فى روسيا المعذبة . هناك ظاهرة أخرى ، وهى أن الطابع الغالب على الفكر المعاصر هو « الماضوية » ، أساسا . بمعنى البحث عن أسباب ما يحدث وأيضا حلول ما يواجه الحاضر من مشكلات وقضايا ، فى الماضى : وقائع الماضى ، تجارب الماضى ، زعماء وضحايا الماضى . واستخلاص صورة أو بلورة عبرة أو استنطاق حادث أو استحضار شخصية وإسقاطها على الحاضر . وفى بعض الأحيان تدور المعارك حول ما هو المقابل الأمثل فى الماضى لحادث ضرب يلتسن للبرلمان فى أكتوبر ١٩٩٣ ، أو من يمثل يلتسن أو جراتشوف وزير الدفاع ، أو الجنرال

كورجاكوف الحارس الخاص والصديق الحميم ليلتسن ، أو زوغانوف سكرتير الحزب الشيوعى الجديد ، أو جيرينوفسكى رئيس الحزب الليبرالى الديمقراطى وغيرهم ، من شخصيات ذلك الماضى الذى ما زال يعشعش فى تلافيف الحاضر .

التفكير حول قضايا الحاضر ومشاكله واستشراف المستقبل ما زال محدودا . وأغلبه يصاغ فى شكل شعار أو موعظة رشيدة مختصرة من مثل « أمركة روسيا » ، أو « تطعيم الاشتراكية بالديمقراطية » ، أو « الخلاص بأسلوب الصدمات » ، أو « العودة إلى روسيا العظمى » والخ ..

فى كثير من الحالات يسيطر على التفكير النزعة التآمرية . جورباتشوف مثل خورتشوف أو يلتسن أو جيدار أو ياكوفليف ، عنصر من عناصر التآمر التى استخدمها الغرب لتحطيم الاتحاد السوفيتى أو روسيا . الكل ، كان أو لا يزال ، له دوره فى المؤامرة . وإذا كانت هذه هى المؤامرة الكبرى من الخارج ، فهناك مؤامرات صغرى داخلية فى قصر السلطة بالكرملين ، تدور بين صبيان يلتسن السابقين واللاحقين . وبينهم وبين أحزاب المعارضة وتكتلات الدوما . وأيضا بين يلتسن وبين رئيس وزرائه تشيرنوميردين أو جراتشيف وزير دفاعه أو دوداييف رئيس شيشنيا المتمرد أو ريبكين رئيس الدوما .

هذا التفكير الماضوى التآمرى ، يضعف إلى حد كبير من الحركة السياسية لأحزاب السلطة وأحزاب المعارضة فى طرح سياسات إصلاحية واقعية تستقطب اهتمام الجماهير وتدفعها للانخراط بقوة فى العمل السياسى ، لترجيح اتجاه ضد اتجاه وتثبيته زمنا كافيا لامتحانه . ومن هنا يبقى كل فى موقعه الذى اختاره أو اختاروه بالتنقل من مركز إلى مركز آخر داخل نفس الدائرة وفى حدود قواعد اللعبة التى بدأها يلتسن منذ قيام جمهورية الاتحاد الروسى ، على أنقاض الاتحاد السوفيتى مع نهاية عام ١٩٩١ . ورغم أن شعبيته الكاسحة التى كان يتمتع بها عند بداية اللعبة ومكنته من تحديد قواعدها قد تآكلت إلى حد بعيد ، إلا أن حركة التآمر الحاكمة للساحة السياسية ، وإن جعلت الموقف فى حالة تأزم مستمر إلا أن ميزان القوى بين سلطة يلتسن وبين المعارضة بكل اتجاهاتها وصورها ، يظل مستقرا نسبيا إلى درجة غريبة . بل لعلها حالة شاذة ومثيرة أيضا : التأزم السياسى المستمر مع الاستقرار المستمر للسلطة التى أضحت معزولة شعبيا !

ما سر هذه الحالة ؟

إذا جاز لى أن أقول شيئا فى هذا الصدد ، وذلك فى حدود زياراتى الميدانية

الأخيرة لروسيا والحوارات التى أتيحت لى ، فإنى أرجع ذلك إلى سببين رئيسيين :

□ الأول ، يكمن فيما يمكن أن أسميه بالضمور والضيق الشديد للساحة السياسية ، فعلا وحركة . وأحسبه ضيقا أكثر حدة ، وهذه هى المفارقة التاريخية ، من ذلك الذى كان عندما احتل الساحة حزب وحيد هو الحزب الشيوعى فى النظام الاشتراكى ، حيث وصل أعضاء الحزب المهتمون والممارسون للعمل السياسى إلى ما يقرب من تسعة عشر مليون مواطن . اليوم ، فى روسيا الليبرالية الديمقراطية التى تتعدد فيها الأحزاب إلى ما يربو على المائة ، لا يزيد عدد المواطنين المهمومين بالسياسة والممارسين لها على أربعة أو خمسة ملايين على الأكثر . ذلك أن معظم هذه الأحزاب تعانى من مرض الجفاف الجماهيرى وانصراف الناس عنها .

لا يعود ذلك – وحسب – إلى افتقاد هذه الأحزاب لبرامج سياسية . اجتماعية ، تخاطب الجماهير بلغة واضحة مفهومة حول مشاكلها وكيفية الخروج عمليا منها ، أو إلى زعامات كاريزمية ذات وزن على المستوى القومى العام . وإنما أيضا إلى أن غالبية الجماهير مهمومة ومنهمكة أربعا وعشرين ساعة يوميا ، بحثا عن لقمة العيش واقتناص قوتها من براثن المافيا والفساد الحكومى والتضخم الوحشى وارتفاع الأسعار المرعب . وليس لديها لحظة فراغ للاهتمام بالسياسة وممارستها .

□ ولعل السبب الثانى ، يتجسد فى هلامية الوضع الراهن فى روسيا . وذلك على الرغم مما يبدو على السطح من مؤسسات رئاسية وحكومية وإدارية وتشريعية وقضائية . ذلك أن الفواصل بينها هشة وشكلية ، والرئيس وحده ، هو الحاكم والمشرع والقاضى فى وقت واحد .

فى تقديرى أن روسيا التى رأيتها ، تبدو كما لو أنها ورثت أسوأ ما كان فى النظام الاشتراكى وهو الاستبداد الظاهر والمقنع أيضا . واستوردت ، فى الوقت نفسه ، أسوأ ما فى النظام الرأسمالى وهو وحشية احتلاب طاقات الفرد وحقوقه وأمنه الغذائى والاجتماعى ، من خلال آليات السوق الصماء العمياء .

فى هذا الوضع تبدو الدولة رغم وجودها على السطح ، غائبة عن أداء مهامها الأساسية . فى حين يحكم كل شىء فى العمق وحوش غابة السوق

وعصابات المافيا . وهو الأمر الذى يدفع المواطن العادى إلى التغرب عن مجتمعه ودولته ، انتظارا لوقوع معجزة أو قدوم المسيح المخلص .

التفاعل بين هذه العوامل جميعا ، أقصد الضمور الشديد فى الساحة السياسية ، وهلامية الوضع الراهن فى روسيا ، ومنطق الغابة فى تسيير الليبرالية والديمقراطية والسوق الخ .. طوح بالسلطة ومؤسساتها وأحزابها وأحزاب المعارضة ، فى أرخبيل من الجزر المعزولة عن حياة الناس ومحيطها . ولأن الناس ، أيضا ، محبطون إلى درجة الانبطاح أرضا وجوعا مع تلك الحرية التى تقول كل شىء ولا تفعل شيئا ، وخاصة بعد تجربة الإصلاح الاشتراكى بالبريستورويكا فى الزمن الأخير للاتحاد السوفيتى ، وتجربة الإصلاح الرأسمالى الليبرالى بأسلوب الصدمات فى هذا الزمن من روسيا الاتحادية ، فإنهم يتحركون فى التيه . يأملون فى المعجزة أو ينتظرون مجىء المسيح المخلص ، بعيدا عن غابة السوق والسلطة والأحزاب .

فى حين يبقى الصراع محصورا فى رقعة ضيقة باردة بين الأحزاب الضعيفة والمفككة فى غالبيتها وبين السلطة التى وثب إليها يلتسن ، فى غفلة من الجميع وبقوة الحماس والتلقائية الشعبية ووحدة حركات الديمقراطيين الراديكاليين ، عند لحظات ترنح الاتحاد السوفيتى وسقوطه . تخندق يلتسن وتمترس فى الكرملين بقوة دستور من صنعه ، وانتخابات للدوما دارت تحت إشرافه ، وقوات مسلحة وبيروقراطية حكومية ثقيلة لا تزال ، تصدع لأوامره .

فى هذا الصراع ، يعلم كل الأطراف أنهم بدرجة أو بأخرى ، مرفوضون من الناس . أو على الأقل ليس لأى منهم سند شعبى يستطيع الارتكاز إليه .

غير أن هذه الأطراف تعلم أيضا أن هذه السلبية الجماهيرية لن يطول بها الزمن كثيرا . وأنه مع التفاقم المستمر والحاد للأزمة الاقتصادية والاجتماعية لا مفر ، عند لحظة ما ، من أن ينفجر الوضع ويداهم الطوفان الجميع .

لعل هذا ما يفسر حركة التوحد والانقسامات بين الأحزاب التى لا تنتهى فى صفوف السلطة أو المعارضة . وكذلك حركة الائتلافات والائتلافات المضادة بينها ، مع كل حادث مفاجىء يقع ، مثل حرب الشيشان ، أو مناسبة سياسية يقترب موعدها ، مثل الانتخابات التشريعية أو الإقليمية وغيرها . وهى ائتلافات تقوم فى العادة لزمن محدود ثم تنكسر . ربما باستثناء ائتلاف وحيد ، نشأ حول

انتخابات الدوما الراهنة فى ديسمبر ١٩٩٣ وهو ما يسمى بائتلاف المعارضة « اليسارية – اليمينية » ، الأول من نوعه ، الذى يضم الحزب الشيوعى الجديد بزعامة زوغانوف والحزب الزراعى والأحزاب القومية المعتدلة . فى حين قامت وتكسرت ائتلافات الأحزاب الديمقراطية الراديكالية التى كانت معروفة تقليديا بدعمها القوى ليلتسن ، وخرج منها – بعد حرب الشيشان – إلى صفوف المعارضة أهمها ، وهو الحزب المعروف باسم « خيار روسيا » بزعامة ايجور جيدار رئيس الوزراء الأسبق . وتبعته معظم الأحزاب الديمقراطية الراديكالية الأخرى .

ويبدو أن الحماس اشتعل من جديد فى عام ١٩٩٥ ، لكسر الائتلافات القائمة وتكوين ائتلافات مختلفة . وذلك استعدادا لمعركة انتخابات مجلس الفيدرالية – الدوما (البرلمان) ، المقبلة فى ديسمبر ١٩٩٥ ، وانتخابات الرئاسة فى يونيو ١٩٩٦ .

وعلى الرغم من أن الدستور حدد مدة ولاية الدوما بأربع سنوات ، إلا أن يلتسن كان قد حرص على أن يضمن فى القسم الثامن منه ما أسماه « بالمواد الانتقالية » . وقرر فى المادة السابعة منه أن يكون الانتخاب الأول لمجلس الفيدرالية والدوما لمدة سنتين فقط . والسبب فى ذلك يعود إلى أن فترة رئاسة يلتسن تنتهى فى يونيو ١٩٩٥ . وهو بالطبع لا يريد لهذا البرلمان أن ينتخب ، بدون إشرافه وحضوره وتحت سيطرته . ومن هنا كان السر فى اختصار فترة البرلمان الأول إلى سنتين حتى يقع انتخاب البرلمان الثانى تحت مظلته الرئاسية .

فى مواجهة هذا الحدث تنهار ائتلافات وتقوم ائتلافات أخرى .

كيف ؟

فى صفوف المعارضة يبقى ائتلاف « القوى اليسارية – اليمينية » قائما وإن كان هناك محاولات لزيادة وزنه بضم أحزاب يسارية صغيرة خارجة عنه . وذلك رغم محاولات مضادة لسحب بعض الأحزاب القومية الداخلة فى تكوينه .

وتظهر ائتلافات أخرى فى صفوف المعارضة ، لعل من أبرزها تحرك ألكسندر روتسكوى نائب الرئيس السابق والذى أعلن عن عزمه ترشيح نفسه فى يونيو ١٩٩٦ للرئاسة ضد يلتسن ، متخطيا حزبه ، الحزب الشعبى لروسيا الحرة ، ليكون ما أسماه « بكتلة القوة العظمى » . وهو يعنى إعادة بناء الاتحاد

السوفيتى من حول روسيا مرة أخرى . ولكن على أساس ديمقراطى فيدرالى ، وسياسة إصلاحية تقوم على المزاوجة بين القطاع العام والقطاع الخاص ، وبين آليات السوق واعتبارات العدالة الاجتماعية التى تضمنها الدولة .

وهناك محاولات لبناء ائتلاف من قوى البريستورويكا التى تفرقت وتعود إلى قدر ما من التوحد حول أسس وأفكار معدلة جاءت من خلال عقد مؤتمرات النقد والنقد الذاتى للتجربة ، شارك جورباتشوف بنفسه فى كثير منها .

ثمة تحركات فى جبهة الأحزاب الديمقراطية الراديكالية لتجميع صفوفها فى ائتلاف واحد جديد ، خاصة أن معظمها قد انتقل إلى صفوف المعارضة وقطع علاقاته مع يلتسن الذى بات البعض منهم ، وخاصة الذين يتمتعون بمراكز اقتصادية قوية ومصالح ذات وزن فى دوائر الروس الجدد ، يجاهر بإسقاط يلتسن الذى يعتدى على الديمقراطية ، ويحيط نفسه – على حد تعبيراتهم – ببطانة مغامرة فاسدة ، لا يعنيه الاستقرار أو الثبات على سياسة إصلاحية رشيدة فى خدمة الاستثمار والتنمية وضمان حرية السوق واتساعها .

على أن ما يثير الانتباه هو اتجاه يلتسن نفسه لتشجيع قيام ائتلافين ، من نوع خاص ، فى إطار دعم السلطة واستمرارها . وبحيث لا يمنع الاختلاف بينهما حول تفاصيل ، الاتفاق على الكليات والعمل المشترك على ضمان الأغلبية لهما فى البرلمان القادم ، وتجديد انتخاب يلتسن للرئاسة .

● الائتلاف الأول يمثل ما يطلق عليه قوى الوسط . ويتزعمه فيكتور تشيرنوميردين رئيس الوزراء . ويقوم على تجميع أصحاب المصالح فى القطاع العام والقطاع الخاص الذين يرون أن من مصلحتهم استمرار النظام فى إطار الخطة الإصلاحية التدريجية المتوازنة التى جاء بها تشيرنوميردين ، بديلا لخطة الإصلاح بالصدمات المؤلمة والتى كان يلح عليها جيدار رئيس الوزراء السابق الذى انتقل إلى صفوف المعارضة .

● أما الائتلاف الثانى فهو يمثل ما يعرف باسم قوى يسار الوسط . وكانت المفاجأة أن يتزعمه ايفان ريبكين رئيس مجلس الدوما ، والذى كان من قبل أحد مؤسسى وقيادات الحزب الشيوعى الجديد المتحالف مع الحزب الزراعى . ويضم هذا الائتلاف كل أصحاب المصالح ، فى القطاع العام والقطاع الخاص أيضا ، ولكن لهم اعتراضات على سياسة النظام الاقتصادية أو ملاحظات على أدائه

السياسى والإدارى . بيد أنهم على استعداد لدعم استمرار النظام إذا أمكن الوصول معه إلى حلول وسط ، طلبا للاستقرار .

ولمح « جيورجى ستاروف » أكبر المساعدين للرئيس يلتسن ، الذى تردد أنه المهندس الحقيقى لبناء هذين الائتلافين فى إطار السلطة ، أن هذا النهج الذى اقتنع به يلتسن من شأنه أن يوفر الظروف الملائمة لاستمرار النظام وصيانته من التمزق والانهيار ، سواء بقى يلتسن أو ذهب . ذلك أن ستاروف ، صرح بأن يلتسن لم يقرر بعد ما إذا كان سيرشح نفسه لانتخابات الرئاسة فى يونيو ١٩٩٦ أم لا . وأغلب الظن أن هذا التصريح ليس فى حقيقته إلا بالون اختبار وحسب . ذلك أنه من غير المتوقع أن يزهد يلتسن فى السلطة ، طالما بقى حيا .

ولا تزال الغابة تضطرب بحركة الائتلافات والائتلافات المضادة ، فى ضوء مفاجأة قيام هذين الائتلافين الجديدين على أرضية السلطة .

غير أن ما يثير الانتباه ، مفاجأة أخرى ، وهى رصد تحرك بعض الشخصيات العسكرية فى الغابة السياسية علنا ، تدعو إلى طريق آخر للخلاص ، مع تداعيات الحرب فى الشيشان وامتداداتها الخطيرة إلى طاجيكستان من ناحية ، ومع الفكرة التى راحت تتردد بقوة – من ناحية أخرى – حول عدم الحاجة إلى إشغال البلاد بمعركة أخرى حول الرئاسة تشعل مزيدا من الصراعات . وأنه يمكن دستوريا وديمقراطيا الاستعاضة عن الانتخابات الرئاسية بإجراء استفتاء عام حول بقاء أو عدم بقاء يلتسن على رأس النظام ، حتى نهاية القرن فى عام ٢٠٠٠ .

إن الفكرة طبقت بالفعل فى عدد من الجمهوريات التى كانت تنتمى إلى الاتحاد السوفيتى . وجرى استفتاء عام فى كازاخستان إنتهى لصالح مد ولاية الرئيس نور سلطان نزار بابيف حتى عام ٢٠٠١ . وتكرر ذلك أيضا فى أوزبكستان لصالح الرئيس إسلام كريموف ، وفى تركمانستان لصالح الرئيس صفر مراد نيازوف حتى عام ٢٠٠٢ .

ويرجح كثيرون أن الفكرة فى الأساس روسية المولد ، وأن صاحبها هو مساعد الرئيس جيورجى ستاروف نفسه . وأنه عمد إلى اختبارها فى عدد من جمهوريات الكومنولث ، قبل تطبيقها فى روسيا .

وسط هذه الأجواء بتحركاتها الائتلافية وشائعاتها المتلاطمة وحرب الشيشان الدائرة بلا نهاية والتى تقترب نيرانها من أقاليم وقوميات أخرى داخل

الاتحاد الروسى ، أخذ يتردد بين صفوف القوات المسلحة سؤال : أين نحن مما يجرى لنا ولبلادنا ومستقبلنا ؟ وأصبح لهذا السؤال صدى مسموع بين قطاعات متزايدة من الجماهير المطحونة المهمشة ، يطرح دور الجيش لأول مرة كعلامة استفهام . لعله على طريق الإجابة عنها ، يأتى أخيرا المسيح المنتظر ، مرتديا بزة عسكرية ، شاهرا سيفه .

• الفصل الرابع عشر •

القـوة الثـالثـة

لا أذكر متى وأين سمعت ، لأول مرة ، حديثا عن دور المؤسسة العسكرية واحتمالاته فى الساحة السياسية الروسية . أرجح أن ذلك وقع خلال اللقاء الذى اتيح لى فى بيت أحد الأصدقاء من الكتّاب الروس ، مع اثنين من أعضاء البرلمان السابق الذى قصفه يلتسن بمدافع الدبابات فى أكتوبر ١٩٩٣ ، خلال معركته مع النواب المعارضين بزعامة حسب اللاتوف وروتسكوى .

كان « سيرجاى » و « أوليج » ، اللذان لم يتجاوزا بعد الحلقة الرابعة من العمر ، من بين النواب المعارضين الذين ألقت القوات المسلحة ، بأمر من يلتسن ، القبض عليهم ، وأخرجتهم من الاعتصام بحرم البرلمان إلى السجن . ثم كانا من بين من شملهم قرار العفو الذى أصدره برلمان الدوما ، رغم إرادة يلتسن ، وخرجا حرّين إلى الساحة السياسية من جديد . أحدهما ، سيرجاى ، صار يعمل بالصحافة المعارضة . والآخر ، أوليج ، أصبح عضوا نشيطا فى إدارة اتحاد الصناعيين الروس .

قال لى أوليج ، ونحن فى معرض مناقشة علاقات القوى بين الأحزاب المعارضة بعضها وبعض وفى مواجهة السلطة ، « لا تنس أن تضيف عاملا جديدا مهما ، دخل إلى الساحة ، وهو الجيش » .

وأمّن سيرجاى على ذلك بقوله : « إن صحف المعارضة باتت تتلقى بصورة لافتة عن أى وقت مضى ، رسائل كثيرة من ضباط وجنود يعبرون فيها عن آرائهم ومواقفهم ، مما يجرى فى الساحة ، سواء فيما يتعلق بالمعارضة والحكم .

أو ما يدور داخل القوات المسلحة نفسها . وهى آراء ومواقف تتناول كل شىء تقريبا ، ابتداء من الأسعار والتضخم وصعوبة الحياة اليومية ، إلى الديمقراطية ، والفساد فى المجتمع والدولة والجيش . وتتمتع هذه الرسائل ، غالبا ، بجرأة ملحوظة فى القول والنقد ، ويحرص أصحابها على أن يوقعوا بأسمائهم الصريحة ورتبهم وأرقام وحداتهم . ونحن ننشر معظمها كما هى تقريبا . ولكنا ، أحيانا ، نتدخل برفع الأسماء والاستعاضة عنها بالحروف الأولى منها ، خوفا على أصحابها مما قد يلحق بهم من أذى ، نتيجة ما تحويه رسائلهم من اتهامات صريحة بوقائع محددة صارخة ، وضد أشخاص بعينهم فى مراكز السلطة المدنية أو العسكرية » .

غير أن أول نداء شعبى توجه إلى الجيش مباشرة طالبا الإنقاذ ، تردد علانية – كما علمت – خلال التظاهرات الجماهيرية التى انطلقت للاحتفال بعيد أول مايو فى ١٩٩٤ ، بعد أن كفت الدولة عن الاحتفال الرسمى بهذا العيد .

وحين كان يصل إلى سمعى خلال الحوارات واللقاءات ، بين آن وآخر ، عبارات من نوع « متى يتحرك الجيش يوما لإصلاح الأوضاع » . أو « أين جيش الشعب مما يحدث للشعب » . أو « الجيش يغلى » ، كانت تتداعى فى ذهنى صور لمصر فى شبابى ، قبل ١٩٥٢ بعام أو عامين . حين كان يعصف الملك فاروق وحاشيته بالدستور ويطيحون بالوزارات كما يشاءون ، يقبضون الرشاوى ، ويعقدون الصفقات المريبة . والأحزاب ما بين موالية أو معارضة تتحرك وتعقد الاجتماعات الصاخبة ، ولكنها ضعيفة أو غير مؤثرة . والشعب يئن تحت وطأة الفقر والمرض . والناس حيارى مطحونون يتلمسون الخلاص بأى طريق ، ويتساءلون بظمأ لاهث : أين الجيش ؟

لست من أنصار المقارنات الميكانيكية أو المطابقات السهلة بين أحوال الشعوب والبلدان ، لمجرد تشابه هنا أو هناك ، فى أزمة أو حادث أو حتى شعار سياسى . فالمسألة فى كل شعب وبلد لها ظروفها المميزة والمعقدة . وهى التى تحكم فى النهاية التفاعلات السياسية الاجتماعية بأشكالها المختلفة . ولكن ما أريد – مع ذلك – أن أسجله هنا ، أن نكهة الأحداث والروح الحزينة المتمردة التى لمستها فى حديث الناس فى موسكو ، أثارت ما اختزنته ذاكرتى من صور وأحاديث الناس فى مصر قبل حركة الجيش فى يوليو ١٩٥٢ ، كأنى أراها وأشمها وأحس بها وأنا أتسكع فى شارع جوركى أو الميدان الأحمر .

ولكن عن أى جيش تتحدث موسكو ؟

لعل صعوبة المسألة تظهر من مجرد التساؤل – فى البداية – عما إذا كان جيش جمهورية الاتحاد الروسى الليبرالية ، هو نفس الجيش الذى كان للاتحاد السوفيتى الاشتراكى قبل عام ١٩٩٢ ؟

لا أظن أن الإجابة « بلا » ، صحيحة تماما . كذلك فإن الإجابة « بنعم » ، أصبحت تتجاوز الحقيقة .

وهذا ما يجعل قضية الجيش فى روسيا على قدر غير عادى من التعقيد .

من ناحية ، يمكن القول إن الجيش الروسى ، أفرادا وسلاحا وتنظيما وعقيدة عسكرية – بالمعنى الحرفى – هو امتداد للجيش السوفيتى ، وإن كان تعداده قد أنخفض إلى حوالى المليون جندى بعد أن كان فى العهد السوفيتى قد فاق المليونين من الجنود . لكن ، من ناحية أخرى ، فإن الوعاء السياسى – الاجتماعى – الجغرافى ، الذى كان الجيش يتحرك فيه ومن حوله لحمايته ، قد تغير تماما . وذلك بهجرانه الاشتراكية إلى الرأسمالية ، ومن نظام الحزب الواحد إلى نظام التعدد الحزبى ، ومن مساحة الاتحاد السوفيتى إلى الرقعة الروسية وحسب .

فى عهد السوفيت كان الجيش يعتنق الماركسية اللينينية فكرا ، ويتبع الحزب الشيوعى سلوكا ، كجزء لا يتجزأ من الدولة الاشتراكية . وبجانب القيادات العسكرية المحترفة كانت هناك قيادات سياسية – فكرية تمثل الحزب ، من مستوى الوحدة أو السرية حتى مستوى الفرقة . وكان وزير الدفاع أو القائد العام ، يجمع بين وضعه ورتبته العسكرية وبين مركزه فى القيادة الحزبية داخل المكتب السياسى . كذلك كانت اللجنة المركزية للحزب تضم عددا من القيادات العسكرية جرى انتخابها من خلال الوحدات الحزبية القابعة بجسم الجيش . وكان للجيش أيضا ممثلوه المنتخبون فى مجلس السوفيت الأعلى (البرلمان) . وكان العسكريون كالمدنيين ، يناقشون كل شىء فى الدولة والمجتمع ، ولكن فى إطار الالتزام الدقيق بخط الحزب وسياساته . ومن هنا كانت المؤسسة العسكرية السوفيتية فى الواقع أداة حزبية خالصة . والجيش عقائديا مسيّسا من القاعدة للقمة . منضبطا تماما ، فى وحدة صلبة تحت قيادة الحزب الشرعية ، التى تتمثل فى الأمين العام والمكتب السياسى . ولذلك كان من بين الأوصاف التى تطلق على

الاتحاد السوفيتى ، أنه أكثر النظم السياسية فى العالم القديم والحديث ، المحصنة ضد احتمالات الانقلابات العسكرية .

فى عام ١٩٥٣ ، بعد وفاة ستالين ، حدثت شبه محاولة للانقلاب ، أعد لها « بريا » الذى كان عضوا بالمكتب السياسى ومسئول جهاز المخابرات . حرك بالفعل بعض قواته لفرض حصار حول اجتماع للمكتب السياسى بهدف استصدار قرارات منه لصالح دعم سلطاته . غير أنه عندما أصدر المكتب السياسى بمبادرة من « خروتشوف » ، أمرا للقوات المسلحة بضرب وتصفية تحرك بريا ، نفذ الأمر فى لحظتها . وتم القبض على بريا ومحاكمته وإعدامه بتهمة الخيانة العظمى . وكان هذا أول انقلاب فى تاريخ الاتحاد السوفيتى وانتهى بالفشل .

أما الانقلاب الثانى والأخير فقد وقع فى أغسطس ١٩٩١ ، والذى قاده الماريشال « يازوف » وزير الدفاع وقتذاك ، مع نائب الرئيس ورئيس الحكومة ورئيس المخابرات ضد سلطة الرئيس « ميخائيل جورباتشوف » الذى كان رئيسا للدولة ورئيسا للحزب الشيوعى معا . وفشل الانقلاب أيضا . وكان ذلك غريبا بالنظر إلى أن عناصر رئيسية من الدولة ومن بينها وزير الدفاع نفسه كانت على رأس الانقلاب . وقيل فى تفسير هذه الظاهرة أسباب عديدة ، فى مقدمتها أن الشعب رفض الانقلاب أو اتخذ منه موقفا سلبيا ، وأن بعض قطاعاته المحدودة من الديمقراطيين الراديكاليين بزعامة يلتسن أبدت مقاومة إيجابية له . هذا صحيح . ولكن ما يعنينا – هنا – الأسباب الأخرى لهذا الفشل والتى تتصل بطبيعة تكوين الجيش السوفيتى . من هذه الأسباب أن الجيش السوفيتى تربى على الولاء المطلق للماركسية اللينينية والدولة الاشتراكية فى إطار الشرعية التى يمثلها أمين عام الحزب أو رئيسه وبالتالى فإن فكرة الانقلاب على النظام كانت مستحيلة ، وغير واردة أصلا . وفى مثل هذه الظروف ينعدم – تقريبا – ظهور ثوار أو مغامرين من بين صفوف القوات المسلحة ، يقودونها إلى تغيير النظام أو الضغط لإحداث إصلاحات فيه . فى أغسطس ١٩٩١ أطاع الجيش الأوامر الصادرة له من قائده المباشر « يازوف » وزير الدفاع . وصور الأمر كما لو كان دفاعا عن الحزب والنظام الاشتراكى . وأن ذلك يجرى بناء على اتفاق مع القيادة الشرعية لجورباتشوف باعتباره رئيسا للحزب ورئيسا للدولة . وأن عدم صدور الأمر منه مباشرة ، راجع إلى أنه مريض فى منتجعه بالقرم . وتحركت القوات بالفعل . غير أنه ما إن تبين أن المسألة كلها خدعة ، وأنها فى حقيقتها انقلاب مدبر ضد القيادة الشرعية للحزب والدولة ، وأن جورباتشوف بات سجينا فى

القرم ، حتى جمدت القوات تحركها . ورفضت الاستمرار فى تنفيذ المخطط الانقلابى ، الذى تعثر وسقط بعد أيام معدودة من بدايته .

اليوم فى روسيا ، لم يعد هناك أيديولوجية واحدة . انهار الحزب الشيوعى . وما بقى منه صار حزبا ، ضمن أحزاب المعارضة . لم تعد الدولة اشتراكية . وبالتالى لم يعد الجيش الروسى ، من هذه الناحية ، هو الجيش السوفيتى . ولم تعد مهمته حماية الاشتراكية وأيديولوجية الحزب والدولة التى ينتمى إليهما . صار الجيش مرتبطا بمؤسسة الرئاسة وحدها فى دولة متعددة الأحزاب والأيديولوجيات . وأصبح طبيعيا ومشروعا – بالتالى – أن ينتمى الضباط والجنود إلى أيديولوجيات مختلفة ومتناقضة ، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين . ويتفاعلون مع ما يضطرب به المجتمع من أزمات اقتصادية واجتماعية .

فاقم من هذا الوضع ، سيف التقاعد من الخدمة الذى أعمل – ولا يزال – البتر لما يربو على نصف قوة الجيش ، التى أخرجت من الثكنات والمنازل المخصصة للعسكريين إلى العراء الموحش . وذلك بالإضافة إلى الآلاف من الجنود والضباط العائدين من الخارج إلى روسيا المعذبة التى لا تضمن لهم حاضرا أو مستقبلا ، وهم الذين جرى سحبهم أو ترحيلهم من معسكراتهم التى كانت قائمة فى إطار حلف وارسو ، والذى انهار مع انهيار الاتحاد السوفيتى ، فى ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا وبولندا والمجر وكذلك فى دول البلطيق الثلاث . وتنامت وقائع الفساد داخل الجيش نفسه وخاصة فى مستوى قياداته العليا .

فى هذا المناخ المأزوم ، التقطت المافيات ما تشاء من الضباط والجنود ، سواء فى الخدمة أو التقاعد . عمل آخرون سائقين وحراسا خصوصيين للروس الجدد من المليونيرات وراقصات الملاهى ونوادى القمار . وانحرف بعضهم إلى الجريمة وأصبحوا قطاعا للطرق . بيد أن الأغلبية ذابت فى بحر الشقاء الشعبى الساخط . صارت حياته البائسة هى النموذج الصارخ الذى يخشى من بقى منهم فى الجيش ، أن يلحق به ، آجلا أو عاجلا .

فى خضم هذه الظروف الجديدة القلقة للجيش ، بات متصورا ، أن فى الإمكان أن يبرز بين صفوفه ثوار أو مغامرون يخططون لانقلابات عسكرية ، وانقلابات مضادة .

وفى محاولة من النظام الروسى « الليبرالى » لمواجهة هذا « الخطر المتصور » ، جرى استبدال الانضباط الأيديولوجى السابق للجيش ، بانضباط آخر يقوم على أساس فصل الجيش عن السياسة . أو بمعنى أدق عدم تدخل الجيش فى الشئون السياسية وصراعات الأحزاب . وحددت مهمته فى حماية دولة الاتحاد الروسى الديمقراطى ضد العدوان الخارجى ، وحسب .

غير أن هذا الانضباط الجديد للجيش ما لبث أن انكسر بقرار مفاجىء من يلتسن رئيس الدولة وجراتشيف وزير الدفاع والقائد العام ، وذلك بتكليف القوات المسلحة بالتعامل بالقوة ضد المعارضة السياسية التى استحكمت بالبرلمان فى أكتوبر ١٩٩٣ . وانتهى الأمر بدك مبنى البرلمان بقنابل المدفعية ، وسوق المعارضين للرئيس إلى السجون . جرى هذا ، رغم أن الهيئة القيادية لوزارة الدفاع برئاسة جراتشيف كانت قد اتخذت بالإجماع قرارا فى اجتماعها الاستثنائى الذى عقدته فى ٢٢ سبتمبر ١٩٩٣ ، إبان تصاعد أزمة المواجهة بين الرئيس والبرلمان ، بالتزام جانب الحياد بين الطرفين . وفى نفس الوقت كانت هناك ردود فعل عسكرية مضادة لصالح المعارضة ، حين قاد أحد الجنرالات الموالين لها جمهورا من العسكريين والمدنيين فى معركة دامية للاستيلاء على مبنى التليفزيون الحكومى .

منذ ذلك الوقت انقسم الجيش إلى اتجاهات وتجمعات متفرقة ومتنابذة ، سياسيا وإجتماعيا . وراح الجميع فى الغابة السياسية يتحدثون ويحذرون من خطر سقوط روسيا فى دوامة الانقلابات العسكرية . يلتسن وجماعته فى السلطة ، يتهمون المعارضة بإذكاء الاتجاه الانقلابى فى الجيش بهدف الإطاحة « بالنظام الديمقراطى » لصالح عودة الشيوعيين تارة ، أو لصالح القوميين المتعصبين تارة أخرى ، أو لصالح التحالف بين القوتين تارة ثالثة . فى حين أن المعارضة تتهم يلتسن ، بأنه من أجل الاستمرار فى السلطة بأى ثمن وتغطية لفشله فى الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية أمام جماهير الشعب الساخطة ، فإنه غامر بإقحام الجيش فى الصراعات السياسية ودعوته إلى نصرته بالقوة ضد كل من يجرؤ على معارضته . وأنه إذا كان قد جرب هذا بالفعل فى دك البرلمان بالمدافع ، فإن ذلك مجرد « بروفة » لخطته فى إحداث انقلاب عسكرى لصالحه ، عند اللزوم ، والتحول من نظام ديمقراطى متعدد الأحزاب – رغم شكليته – إلى نظام ديكتاتورى سافر ، يحكمه بالتحالف مع العسكر الموالين له .

وكشفت انتخابات الدوما التى أعقبت هذه الحوادث الدامية ، فى ديسمبر ١٩٩٣ عن المفاجأة . وهى أن الجيش ، وخاصة فى مستوياته الدنيا والوسيطة ، يعارض يلتسن وسياسته والأحزاب التى تناصره . ذلك أن غالبية أفراده حجبوا أصواتهم – فى الانتخابات – عن جماعاته ، ومنحوها بصورة ملحوظة ، إلى الحزب الليبرالى الديمقراطى (القومى) بزعامة جيرينوفسكى بالدرجة الأولى ، وإلى الحزب الشيوعى الجديد بزعامة زوغانوف بالدرجة الثانية .

وبقدر ما أنعشت هذه المفاجأة الآمال عند القطاعات الشعبية الأكثر فقرا والمهمشة ، فى مجىء المسيح المخلّص يمتطى دبابة ، بقدر ما بات الأمر يشكل كابوسا حقيقيا لدى الأحزاب اليسارية والديمقراطية والقومية المعتدلة ، بالإضافة إلى غالبية المثقفين .

ثم جاءت المفاجأة الأخرى فى نهاية عام ١٩٩٤ ، لتشعل المزيد من المآسى فى أتون التراجيديا الروسية . وذلك بالقرار الذى اتخذه يلتسن وجراتشيف أيضا ، على الرغم من معارضة العديد من القيادات العسكرية العليا والمتوسطة ، بغزو شيشنيا ، إحدى جمهوريات الاتحاد الروسى . وإنهاء ما سمى بتمرد رئيسها « جوهر دوداييف » الذى كان من قبل أحد الجنرالات اللامعين فى الجيش السوفيتى ، حيث تولى ، لفترة ، قيادة الأسلحة الاستراتيجية للطيران القتالى .

مع الارتطام العنيف بالمقاومة الشيشانية المستبسلة ، والأداء الضعيف والمزرى للقوات الروسية والارتباك الذى ساد تحركاتها فى بداية الحرب ، والحركة الشعبية والسياسية المعادية لمغامرة الحرب والتى شملت الأحزاب اليسارية والقومية المعتدلة وحتى قطاعات رئيسية من الأحزاب الديمقراطية الراديكالية التى ارتبطت بيلتسن ونظامه ، حدث مزيد من التفسخ لوحدة الجيش ، بلغ مستوى القيادات العليا فيه . وذلك إلى الدرجة التى استقال معها بعضها ، وطرد بعضها الآخر . ومع تواصل الحرب بضراوة واستخدام القوات الروسية الغازية لأكثر أسلحتها تدميرا على نحو همجى لا يعبأ بحياة الآلاف من جنودها أو جنود شيشنيا وسكانها المدنيين ، تفجرت حركات السخط والمعارضة وقياداتها السياسية والعسكرية فى روسيا ، على نحو امتد من الروس إلى كل القوميات الأخرى فى الاتحاد الروسى . وارتفعت صيحات التحريض ، للجنود والضباط فى الشارع الروسى تدعوهم للتمرد ضد قيادتهم وضد النظام المغامر الدموى ، الذى يدفع بالبلاد إلى حافة الحرب الأهلية .

وبرزت ، فى هذا المناخ المحموم بدماء آلاف القتلى ، الخشية من أن تمتد حرب ضروس مع شيشنيا إلى كل الجمهوريات والمناطق ذات القوميات غير الروسية ، والداخلة ضمن كيان الاتحاد الروسى . الأمر الذى بات يهدد بانهيار الاتحاد الروسى وتشققه ، كما حدث من قبل للاتحاد السوفيتى . وتسربت أنباء غامضة كالأشباح إلى كل مكان فى موسكو ، تحكى عن قوات فدائية من الشيشان خاصة ، ومن القوزاق عامة ، قررت أن تفتح جبهة للحرب فى قلب العاصمة . وأن هذه القوات قد تخندقت فى أوكار سرية ، يقع بعضها فى مواقع عسكرية موالية لها داخل الجيش نفسه . وفى الشوارع والأزقة المظلمة ، حيث يسكن فى خيام أو ساحات البيوت القديمة الآيل بعضها إلى السقوط ، ما بين ١٥٠ إلى ١٧٠ ألفا من الضباط وحدهم ، الذين طردوا من الجيش أو أحيلوا للاستيداع . من بينهم ألف ومائتا جنرال على الأقل ، تلتحم بهم طوابير من آلاف الأمهات المتشحات بالسواد حدادا على أبنائهن الذين لقوا مصرعهم فى الحرب . أو الأمهات اللائى تطالبن الحكومة بسحب أولادهن من دائرة الموت المشتعلة فى القوقاز . وراحت تزكم الأنوف وقائع الفساد فى الجيش التى تفجرت ، علنا بعد طول كتمان ، حول قيادات عليا ، قامت بطريق غير مشروع ، ببيع مخزون القواعد العسكرية السوفيتية فى أوروبا وخاصة ألمانيا الشرقية ، من الأسلحة والمعدات بمئات الملايين من الدولارات التى توزعت بين الكبار . وأودعت لحسابهم ، فى حسابات سرية بسويسرا . واضطرت القيادة أمام الفضيحة ، إلى التضحية بأحد أعضائها الذى كان قد كلف بمباشرة الصفقة . وهكذا أقيل الجنرال « بورلاكوف » من منصبه . فراح يهدد بكشف أسماء زملائه فى الصفقة ، وفى مقدمتهم الجنرال جراتشيف وزير الدفاع والقائد العام ، نفسه . وتصاعدت المطالب فى الساحة السياسية وداخل الدوما بإقالة جراتشيف « الذى انهمك ببراعة فى أعمال الفساد وزج بالجيش دون إعداد وبأسلحة انتهى عمرها الافتراضى ، فى حرب قذرة لا جدوى منها إلا أرضاء نزوات سيده » .

باختصار ، بات الجيش بؤرة الاهتمام السياسى والشعبى فى روسيا . وتقاطعت الاتجاهات المتضاربة حوله .

● اتجاه يطالب بعزل جراتشيف وغالبية أعضاء القيادة ، وإعادة بناء الجيش على أسس سليمة تطهره من الفساد والانهيار فى الروح المعنوية . واستعادة ولائه لكل روسيا بجميع قومياتها دون استثناء . وعدم تسخيره فى

الحلول محل قوات الشرطة الفيدرالية فى معالجة مشاكل التمرد السياسى هنا أو هناك فى الجمهوريات والمقاطعات . وإعادة احترام قاعدة الانضباط الأساسية للقوات المسلحة بعدم إقحامها فى الصراعات السياسية .

● واتجاه آخر ، يحث ما يسميهم « بأبناء روسيا الشرفاء فى الجيش » ، لأخذ زمام المبادرة ، والتحرك من أجل إنقاذ القوات المسلحة والنظام والبلاد من الفاسدين والمغامرين السياسيين . ولو أدى ذلك إلى القيام بانقلاب .

● واتجاه ثالث يحذر من تأجيج المشاعر وتسخين الرؤوس داخل الجيش ، بما يبذر بذور الروح الانقلابية فى صفوف القوات المسلحة . الأمر الذى يقود البلاد إلى الفوضى التى لا قرار لها ، إن لم يكن الحرب الأهلية التى لا تبقى ولا تذر .

إزاء هذا الوضع الملتهب ، رصدت حركتان بارزتان فى مضمار ردود الأفعال .

□ الحركة الأولى ، أقدمت عليها مؤسسة الرئاسة فيما أسمته بتكوين « لجنة المبادرة الاستراتيجية » ، تحت قيادة يلتسن . وذلك بهدف الإصلاح العسكرى الجذرى ، فى جميع أبعاده . مكونة من عدد من العسكريين والسياسيين . وكانت المفاجأة الصاعقة للجيش ، تنصيب « بافل جراتشيف » ، رغم الاتهامات الخطيرة التى تناولته ، رئيسا تنفيذيا لهذه اللجنة . الأمر الذى عمّق لدى المعارضة والجماهير الشعبية وقطاعات واسعة من الجيش ، ما كان يتردد عن التواطؤ السياسى والمصلحى بين يلتسن وبين جراتشيف ، والذى لا فكاك له إلا بذهابهما معا .

□ أما الحركة الثانية ، فهى الأخطر . وباتت تعرف باسم « الطريق الثالث ، أو القوة الثالثة » . وتقوم على أساس أن خلاص روسيا من عذاباتها وآلامها ، بات مستحيلا ، بسبب حالة التربص الثنائية المستفحلة بين أحزاب المعارضة بكل تياراتها وبين نظام الحكم تحت رئاسة يلتسن . وأنه إذا كان من الخطر ترك الأوضاع تتدهور إلى الحد الذى يمكن أن يفرخ انقلابا عسكريا على أيدى مغامرين ديكتاتوريين فاشيين ، فإنه يصبح من الضرورى ، شق طريق ثالث للخلاص ، من خلال تكوين قوة ثالثة ، ذات ثقل وطاقة حاسمين فى تحديد المسار ، وتأمينه لصالح الأغلبية المطحونة من الشعب ، والدولة الديمقراطية ، والاستقرار و« السوق غير المتوحشة » .

وفى تقدير هذه الحركة أنه يمكن ، على ضوء حركة الأحداث وتجاربها الفادحة الثمن على امتداد السنوات الأربع الأخيرة ، تكوين هذه « القوة الثالثة » من خلال تزاوج مدنى – عسكرى لأكثر العناصر فاعلية وخبرة ودراية فى المجتمع . سواء أكانت هذه العناصر ، جماعات منظمة أو شخصيات لها وزنها ومصداقيتها فى الواقع الروسى . والتى كانت دائما تنأى بنفسها عن المشاركة فى الصراعات العقيمة حول السلطة ، أو السعى نحو مغانم غير مشروعة أو التهام قطعة أو أخرى من كعكة الفساد والمافيا والروس الجدد .

ويبدو أن هذه « القوة الثالثة » ، أخذت تتبلور من خلال اتصالات وتفاعلات بين « المجمع الصناعى – العسكرى » ، الذى ما زال يمثل أكبر مؤسسة منفردة منتجة فى البلاد على الإطلاق ، وقطاعات من الجيش وقوى الأمن ، والعدد الأكبر من رؤساء وحكام الجمهوريات والمقاطعات والمناطق الداخلة فى الاتحاد الفيدرالى الروسى ، والتى يتعاظم تناقضها مع السلطة الفيدرالية المركزية فى العاصمة ، وجماعات البيروقراطية الوطنية المستنيرة المنتشرة فى أجهزة السلطة والتى تقاوم الحكم الفردى والقرارات المرتجلة ومحاولات تصفية كل ما تحقق من منجزات اقتصادية واجتماعية حيوية للشعب تحت حجة تصفية الشيوعية وتدافع عن استقلالية روسيا عن الغرب ، وكذلك ما يجرى إنشاؤه تحت اسم « حزب الصناعيين الروس » الذى يمثل مصالح الرأسمالية الوطنية المنتجة .

وعلى مستوى الشخصيات العامة فى هذا المجال تبرز مدنيا ، أسماء : « لوجوكوف » عمدة موسكو . و « الكسى كازانيك » النائب العام الفيدرالى السابق . و « جريجورى يفلينسكى » الاقتصادى المعروف صاحب مشروع الخمسمائة يوم وزعيم جماعة التفاحة . و « أندريه كالوشين » رئيس لجنة الصناعات العسكرية فى الدوما . و « فاليرى زوركين » رئيس المحكمة الدستورية السابق . و « جونوروخين » المخرج السينمائى الشهير . ويورى سكوكوف سكرتير مجلس الأمن القومى السابق لرئاسة يلتسن ، والذى أصبح رئيسا لاتحاد منتجى السلع الروسية ..

ومن الجانب العسكرى ، تتردد أسماء : « الجنرال كولينسكوف » رئيس هيئة أركان الجيش ، و « الجنرال ألكسندر لبيد » القائد السابق للجيش الرابع عشر وأكثر الجنرالات شعبية داخل الجيش وفى الشارع الروسى أيضا ، و « الجنرال

كوتينيوف » رئيس اتحاد المحاربين فى أفغانستان و « الجنرال ستيرليجوف » الذى ترأس الجمعية التأسيسية الروسية ..

والطريق الثالث للقوة الثالثة ، يستهدف طبقا لما جرت إذاعته من بيانات وتصريحات موقعة أو مغفلة من التوقيع ، بناء دولة ديمقراطية متعددة الأحزاب . « تقاوم العودة إلى الشيوعية » من جانب ، وترفض من جانب آخر « فردية يلتسن ونظام حكمه بديمقراطيته الزائفة » . وتعيد بناء الجيش وتطهيره من الفساد . وتشغل الطاقات الإنتاجية المعطلة فى القطاع العام . وتحمى القطاع الخاص الإنتاجى فى الصناعة والزراعة ضد الرأسمالية الطفيلية والبيروقراطية معا . وتطارد الفساد والجريمة المنظمة والمافيا من خلال خطة ثلاثية ، عسكرية - بوليسية - شعبية . وتؤمّن الاحتياجات المعيشية الرئيسية للشعب . وتحقق الاستقلال السياسى لروسيا ، الدولة العظمى ، عن الغرب ، مع استعادة دورها النشيط فى الساحة الدولية . وتعميق الروابط بين القوميات المتعددة فى الاتحاد الروسى ، بما يضبط العلاقات بين المركز والأطراف على أسس المصالح المشتركة من جهة ، واحترام المصالح القومية الخاصة من جهة أخرى . وأخيرا العمل على تقوية العلاقات السياسية والاقتصادية والأمنية والثقافية المتكافئة بين روسيا ودول الاتحاد السوفيتى السابقة فى كيان أكثر فاعلية مما هو قائم حاليا فى إطار ما يسمى برابطة دول الكومنولث . وتلح القوة الثالثة على أنها فى حركتها تسعى إلى تأمين البلاد ضد خطر الانقلاب العسكرى أو الحرب الأهلية وتفكك الاتحاد الروسى . وأنها تطرح نفسها ديمقراطيا ، من خلال خوض معارك الانتخابات التشريعية لمجلس الفيدرالية والدوما فى ديسمبر ١٩٩٥ ، والرئاسية فى يونيو ١٩٩٦ .

هكذا تتقاطع الطرق بحدة ، عند مفرق السلطة فى موسكو ، الذى باتت تتزاحم فى رقعته المحدودة ، الفساد والفقر والسلطة الفردية والمافيا والحرب الشيشانية . لكن التراجيديا الروسية مازالت فصولها تترى تهدد وتصرخ ، فى القاع السحيق ، تستعجل قدوم المسيح المخلّص . لكن أحدا لم يظهر ، بعد .

« هل تتوقع مجيئه ؟ » كان هذا آخر سؤال لى فى موسكو ، وأنا أغادر الفندق فى طريقى للمطار ، إلى « ساشا » الحارس المهيب على الباب ، الذى كان كولونيلا سابقا بالجيش ، وهو يحمل حقيبتى إلى السيارة . رطن بكلمات إنجليزية ذات نغمات روسية تقول :

- ومن يستطيع أن يجزم ياجسبادين [ياسيدى] . ربما نعم .. وربما لا .

كتب للمؤلف

□ دراسات سياسية

١ – الميثاق الوطنى : قضايا ومناقشات	١٩٦٢
٢ – دراسات فى الواقع المصرى المعاصر	١٩٦٤
٣ – حوار مع برتراندرسل وجان بول سارتر	١٩٦٨
٤ – ٥ يونيو : الحقيقة والمستقبل	١٩٦٨
٥ – عام الانكسار فى العالم الثالث (١٩٦٦ – ١٩٦٧)	١٩٧٥
٦ – ملف عبد الناصر بين اليسار المصرى وتوفيق الحكيم بالاشتراك مع توفيق الحكيم وخالد محيى الدين وآخرين	١٩٧٥
٧ – عن الثورة . فى الثورة . مع الثورة (حوار بومدين)	١٩٧٥
٨ – ٤ أوراق من الملف العربى	١٩٨٠
٩ – مدرسة السادات واليسار المصرى	١٩٨١
١٠ – الانتفاضة والدولة الفلسطينية	١٩٨٨
١١ – الخليج : تشريح سياسى فى أزمة مستمرة	١٩٩٢
١٢ – عرب ؟ نعم . وشرق أوسطيون أيضا	١٩٩٤

□ أدب :

١ – رجال وحديد (مجموعة قصص)	١٩٥٥
٢ – ياقوت مطحون (مجموعة قصص)	١٩٦٦
٣ – قهوة الملوك (مسرحية)	١٩٥٩
٤ – القضية (مسرحية)	١٩٦٣
٥ – الأرانب (مسرحية)	١٩٦٤
٦ – المجانين لا يركبون القطار (مجموعة قصص)	١٩٨٦

رقم الايداع

١٩٩٥ / ٧٤٩١

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

لماذا انهار الاتحاد السوفيتي ؟ كيف تهاوى بلد كان يعد من أغنى وأقوى وأكبر بلدان العالم ، ويشكل قوة نووية عظمى واقتصاداً متعدد الطاقات ينتج من الإبرة إلى الصاروخ ظل يطرح نفسه بديلا ومنافسا للاقتصاد الأمريكي والأوروبي ؟ كيف انتهى الأمر بالمواطنين الروس للتجمع حول صناديق القمامة بحثا عن لقمة خبز ، بعد أن كانوا قد شادوا مجتمعا أزاح البطالة عن كاهله وضمن لأبنائه العمل ولقمة العيش والتعليم والسكن والصحة ، بل وعلّم عماله وفلاحيه الاستمتاع بالأوبرا والباليه ، ودفع أبناءه لارتياد الفضاء ؟ لماذا أصبح الروس يحلمون بعودة ستالين بعد أن رجموه بالأمس ؟

فى ذلك الكتاب يجيب الكاتب والمفكر السياسى لطفى الخولى بالأرقام والواقع عن هذه الأسئلة من واقع زياراته الميدانية ومناقشته مع كل الأطراف ، ويطرح احتمالات المستقبل فى روسيا التى لم تعد سوفيتية ، وإن « كان العرق الاشتراكى لايزال ينبض فيها بحذر وقلق » ، كما يقول .

الناشــر

الأهرام

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـ القاهرة



مطابع الأهرام التجارية ـ قليوب ـ مصر